

أعلام العرب

٩

عبد الله البديري
خطيب الوطنيات

بمقام
الدكتور علي أحمد بدوي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للألف والترجمة والطباعة والنشر

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - النجيلة - القاهرة

تليفون ٥٨٩٢٠ - ٩٠٥١٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ليست الصلة بيني وبين « عبد الله النديم » حديثة العهد أو وليدة الدراسة والبحث ، بل هي بعيدة عميقة بعد أيام الطفولة وعمق عواطفها وذكراياتها . فقد كان العمل المفضل الذي استحق عليه المكافأة من جدى الشيخ الكبير — بعد أن تعلمت القراءة — أن أقرأ له بصوت مرتفع من أعداد جريدة « الطائف » ومجلة « الأستاذ » لعبد الله النديم الأديب — وهو جالس بعد صلاة العصر أمام « الدوار » . وكنت أرى الانفعالات تتغير وتتباين على وجه الشيخ الوقور . فحين أقرأ له أبواب الفكاهات وأزجال النديم ومحاوراته مع المعلم حنفى أو مع لطيفة وخليفة وأبى دعموم والشيخ مرعى أو مقالات هف طلع النهار ، والفلاح المكار والتاجر الحمار كان يستغرق فى الضحك ويظهر السرور من أعماقه . أما اذا بدأت فى مقالات الحرب ووصف المواقع أو الصراع بين النديم وأعداء الوطن وعملاء الاستعمار كان وجهه يكفهر وكأنه يعانى ألما حقيقيا . وحفر اسم النديم فى مخيلة الطفولة وظل رنين مقالاته يطن فى أذنى وقد انطبع الكثير منها فى الذاكرة الحالية اللاقطة وقتذاك .

واتخذت الأدب طريقا للدراسة وحاولت طوال أيامها وبعدها أن أتكشف مكان النديم في نهضتنا الأدبية فوجدته خاليا ، وحاولت أن أعثر عليه في تاريخنا السياسى فوجدته مفترى عليه . شوه دوره الكبير في الثورة الوطنية الكبرى عام ١٨٨١ — في غفلة عن ضسائر العلماء والمحققين — مؤرخو القصور الملكية وعسلاء الاستعمار مع من شوهوا من زعمائها كى يصيبوا الأمة بخيبة أمل في قيمها وزعمائها وحتى لا تطلع الأجيال المقبلة على مواقف التضحية ومواطن البطولة خشية أن يستهدوا الخطى ويرسموا الطريق .

ودرست عصر الثورة العرابية فوجدت النديم يمثل هذا العصر في كثير من نواحيه . وتبينت أثناء الدراسة — والأسف يملأ القلب — أن المؤلفين الأجانب الذين كتبوا عن هذه الفترة في تاريخ مصر ، والوثائق السرية لوزارة الخارجية البريطانية والصحف الأجنبية وخاصة التيمس الانجليزية والديبا الفرنسية قد أنصفت الرجل وأعطته ما يستحق من الاهتمام كعدو له خطره وعبقريته .

والحقيقة التى لا مجال للشك فيها أن هناك جوانب غامضة من حياة النديم لن تنكشف حتى يعثر على كتبه الكثيرة الضائعة فى مكتبات الآستانة المغلقة أو المكتبات الخاصة لمن عاصر الثورة العرابية ، وأن الأمل لكبير فى أن يثمر على هذه الكتب يوما ما فتظهر نواح جديدة لعظمة الأديب الثائر .

على الحديدى

تمهيد

يعدُّ « عبد الله النديم » الأديبى نموذجاً عجبياً من نماذج الشخصيات فى التاريخ المصرى الحديث فقد كان نسيجاً وحده فى كل ما تميز به من سجايا لا يدانيه فيها الا شخصيات القصص والامسايطير . ولكن الله الذى يهب العبقرية لمن يشاء بقدر قد أودع حظاً كبيراً منها فى هذا العلم الفريد .

والعلم عادة يتخصص فى دور يقوم به ويضطلع بمسئوليته فى قطاع من الزمن ، ولكن النديم وقد اختار له القدر أن تكون حياته فى مطلع الثورة السياسية والنهضة الأدبية والبعث الاجتماعى لوطننا ، حددت له الظروف أكثر من دور يقوم به وساعدته مواهبه أن يضطلع بمسئولياتها جميعاً .

كان من رجال العلم وأصحاب القلم والقرطاس ، وكان يخطب ويكتب وينظم الشعر والزجل ويؤلف الروايات المسرحية ، وكان يعلم وينشئ المدارس والجمعيات والصحف ويعبىء الأمة للحرب ، ثم كان من مهارة الحيلة بحيث اذا تخفى لم يتبينه أمره الشرطة ، ولم يهتد اليه الباحثون ، أو يتعرف عليه أقرب الناس له . وكان اذا حدث سحر ، واذا أوجز ودَّ المتحدث اليه لو أطل . ووهب من الذكاء أتدره ، ومن العارضة أقواها ، ومن الحجة أمتنها ، وملئ قلبه بالشجاعة ، وحياته بالأحداث الكبار .

وحارب بلسانه وقلمه الملوك والسلاطين وأفزع الدول الكبرى كل ذلك في عزيمته وشجاعة وإيمان .

كان أدبيا يملأ الدنيا بأدبه ، ويقود الرأي العام ، وبحسب حساباته في كل ما يخطه قلمه أو تنطق به شفتاه .

ومثل بكتابته مرحلة الانتقال من الأسلوب البديعي المنق الذي يسعى وراء الحلى والزخرف والامتناع الشكلى الى الأسلوب المنطلق مع العواطف المسترسل مع المعانى . وحول الأدب الى أدب هادف يعالج السياسة والثقافة والاصلاح الاجتماعى « وبدأ الكتاب يقتدون به فى تحسين الانشاء ، ويقلدون كتاباته » .

واتخذ من تأليف الروايات المسرحية ميدانا للاستلحاق السياسى والاجتماعى ، وجعل أبطالها من العرب الذين يذكرون بالماضى المجيد ، أو من العامة الذين يمثلون الحاضر المميين .

وغيّر النديم مجرى حياة الزجل فبعد أن كان ينشد فى المجالس الخاصة للفكاهة أو التسلية أو الغناء اقتحم بزجله الحياة السياسية والاجتماعية وجعله وسيلة من وسائل الدعوة الوطنية وتعبئة الأمة للحرب ، وارتفع به فى عالم الأدب الى درجة الشعر والكتابة والخطابة . ووصل به الى مرتبة لم يصلها من قبل ، ومن ثم يعتبر النديم بدء النهضة الحقيقية للزجل .

ولم تشهد مصر فى تاريخها الطويل خطيبا يدانى النديم فى بلاغته وفصاحته وقوة أسره وشدة تأثيره على الجمهور ، فقد كان خطيبا مطبوعا من الطراز الأول ، أعطى من ذلاقة اللسان

ما يستدعى العجب ، فما هو الا أن يحرك لسانه حتى تتدفق
الألفاظ وتنهل عليه المعاني فتأخذ باللب وتأسر القلب وتقود
الناس الى ما يريد . ونشر في البلاد فن الخطابة ، وعلمها
الناشئة ، وأعاد الى الأسماع ذكرى العصور الأولى للأمة
العربية .

تملك ناصية القول ، وبلغ من قوة التأثير حداً أيقظ به
شعور الأمة الوطني ومهد للثورة ثم ساق بها الشعب الى الحرب
خلف الأحرار وألهب شعور المواطنين فنفروا خفافا وثقالا
ليجاهدوا في سبيل الوطن .

« وكان أول خطيب مصرى يقف بين الحكام الظلام ويفتح
فاه بالكلام في مكان عام » ولقب « بخطيب الشرق » و « محامى
الوطن » و « محبى الوطنية » ، وأطلق على محافله الخطابية
« سوق عكاظ » و « معرض باريس » .

وقال عنه جمال الدين الأفغانى : « ما رأيت مثل النديم
طوال حياتى فى توقد الذهن ، وصفاء القريحة ، وشدة العارضة ،
ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعا محكما بازاء المعانى ان.
خطب أو كتب » . ويقول عنه أحمد تيمور العالم المحقق :
« لقيته مرة ... فرأيت رجلا فى ذكاء اياس ، وفصاحة سخبان ،
وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من ثره ، وثره أقل من لسانه ،
ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا » .

وطغت شهرة الخطابة على شهرة الشعر عنده فلم ينل حظه
فى عالم الشعراء ، وساعد على ذلك ضياع دواوينه الثلاثة ،

والمحفوظ من شعره اليوم قليل لا يتجاوز مئات الأبيات من الشعر الذى استبقى بعد هزيمة الثورة العرابية مما لا يسر الحاكم أو يحكى قصة الثورة وشعور الناس ازاءها . وما استنقذ من شعره لم يخرج فى معانيه عن النسق والمقاييس التى فهم الجمهور والشعراء فى عصره الشعر بها : مغالبة لسانية ، ومساجلة كلامية ، ولباقة منطق ، وسرعة جواب وارتجال .

ولا يمكن الحكم على النديم كشاعر بهذا القدر القليل المحفوظ من قصائده وهو الذى طمح فى الشعر الى مجارة أبى الطيب المتنبى وملاحاة عمرو بن كلثوم ومباراة ابن زيدون فعارضهم وتحدى عيون قصائدهم لفظا ومعنى .

وفى ميدان الصحافة وصل النديم الصحفى الموهوب بصحفه الثلاث الى قمة هذا الفن فكانت « التنكىت والتبكىت » . فريدة فى تبويبها وأسلوبها وشيئا جديدا على الصحافة المصرية . يكتب فيها للعامة والخاصة ويهز بها قلوب قرائها ممن يقرأون وشعور من تثقراً لهم ممن لا يقرأون . وكانت « الطائف » لسان الأمة وجريدة مجلس النواب والداعية الكبرى للثورة العرابية ، صاحبها من أول أمرها ثم ذهب معها الى المعركة فكانت سلاحا من أسلحة الحرب ضد الأعداء ، وكانت مرجع الأخبار للصحف المحلية والأجنبية وصارعت المعارض للحركة الوطنية من هذه وتلك ثم اختفت بهزيمة الثورة . أما « الأستاذ » فكانت حدثا فى الصحافة المصرية جعلها أول أمرها للإصلاح الاجتماعى بأساليبها العام والخاص والمتوسط وللنهضة

بالأدب فتبارى فيها الكتاب والشعراء والزجالون وأشاعت في
الأوساط الأدبية حركة مباركة .

واستطاع النديم بمقالاته فيها أن ينبه الأفكار الى موضوعات
حيوية ، وأن يناقش ، ويشير العقول ، ويوقظ الرأي العام من
سباته العميق ، ويدعو المواطنين الذين أذلهم الاحتلال ووضع
على أبصارهم غشاوة أن ينهضوا للعمل من أجل مصر وغنى
للمصريين فيها على أوتار الوطنية فطربوا وعادت لهم الذكرى
وتحركت منهم النفوس للثورة على الاستعمار ، فخاف عميد
الاحتلال منه ونفاه وأغلق مجلته « الأستاذ » .

وفي مجال الإصلاح الاجتماعى كان النديم أول من ينقد
بقلمه ولسانه الغنى والفقر على السواء ويظهر العيوب
الاجتماعية لكل فريق . فقد الغنى وتبذيره وفرنجته وتشجيعه
المصنوعات الأجنبية وبخله على وطنه بأمواله فلا يسهم في
تصنيعه أو تقدمه ، وقد الفقير والفلاح في تواكله وغفلته وجهله
واقباله على المكيفات مما رماه في براثن المرايين والمحتالين ،
وطالب بانصاف الفقراء من اخوانهم الأغنياء الرأسماليين ، ودعا
الى انشاء الشركات المساهمة والمصانع والمصارف المالية الوطنية،
وعالج مشكلات الموظفين والخدم وتربية البنين والبنات ، وهاجم
انتشار هدايا المدنية : الدعارة والمسكرات والقمار تلك التى
هدمت الأسرة وقوضت النظام الاجتماعى .

وكان محور دعوته الاجتماعية هو التعاون ، وذلك بانشاء

الجمعيات التعاونية والخيرية التي تهدف الى نشر التعليم والتعاون بين أفراد الأمة ، والى نشر الثقافة الوطنية بانشاء المحافل الخطابية .

وفي الميدان الثقافي يعد النديم مع كبار المؤلفين باللغة العربية فقد شغل نفسه في حياته وخاصة في فترة الاختفاء بتأليف الكثير من الرسائل والمصنفات العلمية والأدبية فكتب في الأدب والشعر والبديع والديانات والتاريخ والجغرافيا والتفسير واللغة والأصول وعلم الكلام والتصوف والتربية والسياسة . وعن ذلك يقول النديم من رسالة الى صديق له : « فتراني فكري كليمي ، وقلمي نلني - تارة أشتغل بكتابة فصول في علم الأصول . وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم بها الله المنة ، وحينما أشتغل بنظم فرائد ، في صورة قصائد ، ووقتا أكتب رسائل مؤتلفة ، في فنون مختلفة ، وآونة أكتب في التصوف والسلوك وسيرة الأخبار والملوك ، وزمنا أكتب في العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان على سقيفة الزمان ، ويوما أشتغل بشرح أنواع البديع في مدح الشفيع ... وقد تم لي الآن عشرون مؤلفا بين صغير وكبير فانظر الى آثار رحمة الله اللطيف الخير كيف جعل أيام المحنة ، وسيلة للمنة والمنة » .

وطالب النديم بثورة اصلاحية شاملة للأزهر ووضع مشروعا لهذا الاصلاح تحقق منه الكثير في عصرنا هذا ، ودعا الى انشاء مجمع للغة العربية يقوم عليها ويبحث في شئونها ، ويوقف تيار الفرنجة اللغوية واقحام الألفاظ الأجنبية في الحديث

والكتابة ، ويحارب استبدال اللغات الأجنبية باللغة العربية ،
ويضع ألفاظا للمصطلحات العلمية والمدنية الحديثة .

ونادى بتعميم التعليم فهو في رأيه العامل الأكبر في الحضارة
والعمران وحارب الجهل كسبب للآفات الاجتماعية والعلل
الخلقية .

ووصل النديم الذروة في ميدان السياسة وحدد له القدر
مكانه في التاريخ المصرى ، فكان أول مدنى ينضم الى منظمة
الجيش التى اتخذت جانب النضال الشعبى وقامت بالثورة
الأولى عام ١٨٨١ تبغى لمصر استقلالها وللمصريين كرامتهم
وتحقق لهم انسانيتهم وصار الرجل الثانى فى مجلس قيادة الثورة
ومستشارها وداعيتها الأكبر وخطيبها الذى مهد لها ثم عباً لها
الشعور الوطنى ليسيير الشعب من خلفها حتى نهاية الطريق
وحتى تغلب القوة والحياة الشجاعة والايان .

وبعد عشر سنوات من الهزيمة والاحتلال كان أوفى الزعماء
لمبادئ الثورة ، فواصل جهاده من أجل مصر وأعاد الروح الى
المصريين وسمعوا النداء الغائب ينطلق من جديد « مصر
للمصريين » .

لقد كان النديم معلما للوطنية حمل الرسالة طول حياته ثم
كان حلقة الاتصال بين مرحلة الكفاح الأولى والثانية بين الجيل
الأول والثانى فسلم شعلة الجهاد الى الجيل اللاحق وبذر فيهم
بذور الثورة من أجل مصر .

ومع كل هذه العبقریات فقد كان النديم نبثا من صميم

الشعب نما حتى صار كالشجرة العالية أصلها ثابت وفرعها في السماء ، كان عصاميا في حياته وثقافته ، عصاميا في حياته فلم يرث الجاه عن أبيه مصباح الحُبَّاز ، بل خرج من بين أنياب الفقر والفاقة ليخلد اسمه بين العظماء المصلحين والأبطال الثائرين . وكان عصاميا في ثقافته فلم يتلق الثقافة عن المعاهد الدراسية — اللهم الا سنوات في أول حياته لا تذكر — ولا بالحصول على الدرجات العلمية بل تلقاها في مدرسة الحياة وفي معاهد التجربة فكان كما حدث عن نفسه :

« أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، ودخلت المحاكم ، وعاشت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحين والمهن الصغيرة ، وأدركت ما هم فيه من جهالة ، ومن يتألمون ، وماذا يرجون ، وخالطت كثيرا من متفرجة الشرقين ، وألمت بما انطبع في صدورهم من أشعة الغربين ، وصاحبت جما من أفاضل الشرقين المتعلمين في الغرب ممن ثبتت أقدامهم في وظيفتهم ، وعرفت كثيرا من الغربيين ورأيت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقين ، والغاية المقصودة لهم ، واختلطت بأكابر التجار ، وصبرت ما هم عليه من السير في المعاملة أو السياسة ؛ وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنسا ووطنا ودينا ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بقراءة الجرائد مدة ، واستخدمت في الحكومة المصرية زمنا ، واتجرت برهة ، وفلحت حيناً ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً وبالخطابة

والجرائد آوثة . واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذى وصلت اليه ببناء كسانى نحول الشيخوخة فى زمن بضاعة الصبا ، وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ... » .

وبعد ، فلا أستطيع أن أدعى أن رجلا له هذه الحياة العريضة وتلك المواهب المتعددة ، وقام بهذا الدور الكبير فى تاريخ وطنه — يمكن أن يحيط بكل مجالات حياته كتاب واحد . ولكن على قدر الطاقة البشرية وحسبما سمحت به الصفحات المقررة لهذا الكتاب حاولت جاهدا أن ألقى ضوءا على هذا البطل العظيم — وأنا متتبع مراحل حياته حتى النهاية — وأن أتكشف بعض عبقریات ذلك الثائر الأديب الذى ظل مهضوم الحق والتقدير من الأدباء والنقاد ، مفترى عليه من المؤرخين ، منسيا حتى من وطنه الذى عاش وجاهد من أجله ، ومات فى سبيله .

ولقد كانت لفظة كريمة من وزارة الثقافة والارشاد القومى نحو هذا العلكم الكبير ، أن بدأت فكتبت عنه فى سلسلة « أعلام العرب » . ولعل ذلك يكون باكورة تقدير الدولة لجهاد هذا الرجل من أجل مصر واهتمام بنموه فى المجالات المختلفة من الحياة حتى يحتل المكانة اللائقة به كامام فى الأدب ، ورائد من رواد الاصلاح الاجتماعى ، وزعيم من زعماء الثورة الأم فى سلسلة ثوراتنا الوطنية التى مهدت السبيل للثورة الكبرى فى منتصف القرن العشرين فحققت الأمل الكبير الذى دعا له النديم وأصبحت « مصر للمصريين » .

ابن الخباز

ولد الثائر العظيم « عبد الله بن مصباح بن ابراهيم الادريسي » الشهير « بالنديم » في يوم عيد الأضحى عام ١٢٦١ هـ (١٨٤٥ م) بمدينة الاسكندرية .

وبين الاسكندرية والقاهرة وقتذاك تنافس شديد ، فينبما كانت القاهرة تختص بالنشاط السياسى ، فان الاسكندرية كانت تحوز قصب السبق فى التجارة والصناعة وشئون المال ، وأقيم بها من المنشآت والمصانع والاصلاحات ما استقدم اليها كثيرا من المصريين والأجانب المهاجرين . وكان من بين ما أنشئ بها دار صناعة (ترسانة) كبرى على أحدث النظم ، تضارع ميثلاتها فى الدول الأوروبية ، أقيمت لتبنى لمصر أسطولا جديدا . يسيطر على البحر الأبيض . وجسع لها محمد على من أولاد الفلاحين ثمانية آلاف (٨٠٠٠) من الصبيان والشبان ممن تظهر عليهم علامات الذكاء والمهارة والقابلية للتعلم ، ليعملوا فيها ، بعد أن تم انشاؤها فى عام ١٨٣١ م .

وكان من بين هؤلاء الصبية الذين جمعوا لهذا الغرض صبى يدعى « مصباح بن ابراهيم » ^(١) ، أتى به من قرية « الطيبة » بمديرية الشرقية ، واقظم فى قسم التجارة بالترسانة ،

(١) والد عبد الله النديم وكان مولده فى ٢٠ من ذى الحجة عام ١٢٣٤ هـ .

وظل يشتغل عاملاً بها حتى صدر من الباب العالي بتركيا فرمان
١٨٤١م وكان من بين بنوده : خفض الجيش المصرى الى ١٨ ألف
جندى ^(١) ، واغلاق المصانع الحربية التى تمون الجيش ، ومن
بينها ترسانة الاسكندرية .

أقفلت الترسانة أبوابها فى وجه الشاب مصباح ومئات غيره
من شباب البلاد . لم يشأ أن يعود مصباح الى قريته ليعيد سيرة
آبائه من قبله ، فيعيش عيشة الفقر والحرمان ، بعد أن عاش فى
المدينة وتذوق نعمة الوظيفة ، بل استقر فى الاسكندرية .

وفى حى « المنشية » قلب المدينة وسوقها الوطنى افتتح
مصباح مخبزاً (طابوثة) يصنع فيها الخبز ويبيعه للنزلاء والغرباء
والأجانب . والحباسة لا يحتاج البدء فيها الى رأس مال كبير ،
وهى وان لم تكن تدر الكثير من الربح ، الا أنها كانت تؤمنه
من خوف الجوع وتقيه شر التعطل ، ولكنها مع ذلك لم ترتفع
به عن طبقة الفقراء الكادحين .

بعد أن استقر الحال بمصباح فى عمله الجديد ، وأحسن نوعاً
من الطمأنينة ، تزوج . ثم ولد له ابنه « عبد الله » وسنه
اذ ذاك ٢٦ سنة .

نشأ الطفل فى حى المنشية الشعبى المكتظ بأرباب الحرف
وأهل الصناعة والتجارة من السكندريين والوافدين عليهم طلباً
للرزق ، والمتصل بسوق الشوام والمغاربة والحجازيين .

(١) كان تعداد الجيش المصرى نحو ٢٣٦١٦٦ جندياً وبحاراً ، حسب

الحصاء عام ١٨٣٩ م .

وتربى فى أسرة فقيرة : مسكن متواضع ، وخبز اذا وجد
قالأدم غير كاف . وملبس لا يرعى فيه الا أن يستر الجسم
ولا يلتفت النظر ، وصحة ترك البت فيها للقدر .

وما ان شب « عبد الله » وأصبح قادرا على التعلم حتى
أرسله أبوه الى « كتّاب » الحى ، كما كان يفعل أصحاب
التجارة وأرباب الحرف فى زمنه ، يبعثون بأولادهم الى
« الكتّاب » زمنا ، فاذا ما اشتد عودهم وتعلموا القراءة
والكتابة ومبادئ الحساب أخذوهم الى محالهم ومقار أعمالهم
التي يتوارثونها جيلا بعد جيل .

« والكتّاب » فى ذلك الوقت كانت عماد التعليم الشعبى
فى المدن والقرى .

والشائع أن نهضة تعليمية قامت على عهد محمد على ،
ولكنها كانت نهضة خاصة تخدم غرضا معينا هو الجيش ، الذى
اتخذته الحاكم أداة لتحقيق مآربه الشخصية وأطماعه الفردية ،
يختار لها عدد محدد من التلاميذ .

ويجانبنا الصواب اذ أطلقنا على مثل هذا النوع من التعليم
« نهضة تعليمية » بالمعنى الأصيل . لأنها كانت مقصورة على
فئة قليلة : يختار أفرادها ، ويرسم لهم طريق الحياة ، ويوجهون
الى نوع الدراسة الذى يريده لهم ولالة الأمر لا الى ما يصلح
له الطالب أو يرغب فيه .

وحتى هذه الفئة القليلة المختارة من الشعب لم يكن العلم
نفسه هو القصد من تعليمها ، أو حقها فى الثقافة هو الدافع .

ولذلك ، فحمد على لم يكن يؤمن بالنهضة في مصر الا بوصفها
نقطة وثوب الى مطامعه .

والأجدر أن نسميها « نهضة عسكرية » ساقط مصر الى
مغامرات استهدفت مصالح الفرد ، متجاهلة مصالح الشعب .
والتعليم انما جاء تبعا .

ولم يكن غير « الكتاتيب » يلجأ اليها عامة الشعب في
تعليم أولادهم القراءة والكتابة وتحفيظهم قدرا من القرآن
الكريم .

ومع أن هذا النوع من التعليم كان الطريق الوحيد الى
الأزهر ومساجد الدراسة التي تسير على نمطه ، الا أنه لم يكن
يجد من الحكومة أية رعاية أو اشراف ، ولذلك بلغ من سوء
الحال والفوضى ، سواء في طريقة التدريس أو في كفاية المدرس
أو الفصول الدراسية ، درجة يرثى لها . لم تكن هناك حجرة
للدراسة بالمعنى المعروف . بل كان الصبية يجتمعون في «دكان»
أو ما يشبه « الدكان » ، يعلمهم فيه « سيدنا » ينمسا يبيع
لزبائنه بضاعته ، أو يتراصون في حجرة مظلمة ملحقة بمسجد
أو مقام ولى . و « سيدنا » — أو « فقي الكتاب » — ليس له
من المؤهلات سوى أنه يحفظ القرآن الكريم ، وله القدرة على
أن يحفظه الأطفال آليا دون دراية أو فهم .

في أحد هذه الكتاتيب ، هو « كتاب المنشية » ، بدأ
عبد الله بن مصباح حياته التعليمية . وأعاقته موهبته في سرعة
الحفظ ، وقوة ذكائه على حفظ القرآن الكريم كله في سنته

انتاسعة ، وحى من مبكرة لاقام هذا العمل الضخم . ولكن
« عبد الله » كان نادرا في قوة ذاكرته التي كانت دائما عونا له
في جميع مراحل حياته .

هذا الاستعداد الطيب المبكر من « عبد الله » كان باعثا
لأبيه على أن يدعه يواصل تعليمه .

ولكن أى نوع من التعليم يمكن « لمصباح » أن يوجه ابنه
اليه ؟

أغلب الظن أن « مصباح » لم يكن - لو أعطى الخيار -
ليدع ابنه يسلك طريق التعليم المدني ويترك التعليم الديني ،
وهو المعروف باحترامه لشعائر الاسلام ، يحب العلم ويقدر
العلماء يعنى - وهو الأسمى - مجالسهم ، ويتردد على حلقاتهم
بعد صلاة العصر في المساجد ، ليتفقه في الدين .

ولعل ذلك مرده الى أصله الرفي وطبيعته السوية التي لم
تفسدها المدنية .

وقد يكون مرد ذلك عند « مصباح » بقية مما ورثه من
آبائه الطاهرين ، فقد قيل انه منحدر من السلالة النبوية
الشريفة ، فهو ادريس حَسَنَى النسب من جهة الأب ، انتهى
اليه من طريق ادريس الأكبر بن عبد الله المحض ، الملقب بالكامل
ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن امام المؤمنين على بن
أبى طالب ، رضى الله عنهم ^(١) .

(١) عبد الله الشديم : مجلة « الأستاذ » ص ٨٧ .

فى المسجد الأنور

لم ىتردد « مصباح » اذن ، حىن اعترم أن ىواصل تعلم ولده « عبد الله » فى أن ىهبه للعلم الشرف ، ىتغى بذلك وجه الله ، وىأمل أن ىصبح ابنه عالما من علماء الاسلام وشىخا من شىوخه الأفاضل ىنتفع الناس بعلمه ، فألحقه بمدرسة جامع الشىخ ابراهىم باشا (لجامع الأنور ^(١)) عام ١٨٥٥ .

والدراسة فى لا ترهقه عسرا من أمره ، فلجامع فى حى المنشىة الذى ىسكن فىه ، وتلقى العلم فىه دون مقابل ، وكتب الدراسة تصرف للطلاب من أوقاف المسجد ، فلم ىبق غير اطعامه وایوائه ، وأمر ذلك مىسور .

والجامع الأنور بالاسكندرية والجامع الأحمدى بطنطا ، ومسجد دمیاط ، كانت وقتذاك مدارس دىنية تسیر الدراسة فىها على نمط الدراسة بالجامع الأزهر بالقاهرة ، فهى ضرور مصغرة منه .

انتظم « عبد الله » فى سلك طلاب العلم « بالجامع الأنور » وقضى زمنا ىحاول أن ىتفهم ما ىلقى علیه فلا ىجد الى ذلك سبیلا .

(١) انشأ هذا المسجد الشىخ ابراهىم باشا عام ١٢٤٠ هـ ، ووقف علیه الاراضى الكثرة وسماه « بالجامع الأنور » لىضارع « الجامع الأزهر » فى القاهرة ، ورتب له العلماء ىقراون فىه الفقه والنحو والاصول والتوحد والعلم اللسانىة والكلامىة وبقیة العلوم الأزهریة (المجلط التوفیقىة ج ٧ ص ٧١) .

ولم يكن ذلك لغباء فيه أو كسل منه ، فقد عرف في طفولته بالذكاء والهمة والنشاط . ولكنها خطة الدراسة العقيمة والكتب المعقدة وجنود العقلية المسيطرة على هذه المعاهد .

فقد كان التعليم في الجامع الأزهر والجامع الأنور ، وبقية المدارس الدينية وقتذاك يسير على أسلوب القرون الوسطى . كانت الكتب التي تدرس في هذه المساجد من تتاج العصور المتأخرة ، فقدت الروح وصارت شكلا لا حياة فيه ، متون قصد بها أن تكون ملغزة ، لتأتى عليها شروح تفيض في شرح ألفاظها ، ثم حواش تستدرك ما فات الشارح ، ثم يأتى بعد ذلك التقرير أو التعليق ، وأكثرها مساجلات لغوية يضع المعنى بينها ومعميات يصعب على طالب العلم حل ألغازها وأحاجيها (١) .

وكان على الطالب المبتدئ أن يدرس عدة كتب في عام واحد : كتابا في الفقه وآخر في النحو ، وثالثا في الصرف ، ورابعا في المنطق وكتابا في التوحيد ، وآخر في التجويد . فإذا ما تقدمت به مناول الدراسة درس الحديث والتفسير وأصول الفقه وعلوم البلاغة .

وكانت الطريقة المتبعة في الدراسة وقتذاك هي الطريقة التي سماها الأستاذ عباس العقاد : طريقة الأذن والذاكرة ، فقد كان

(١) لقد سار الأزهر منذ ذلك الحين في عدة مراحل تطور فيها في كتيبه الدراسية وفي أسلوب تعليمه ، وآخر تطور له هو الإصلاح الجذري الذي استحدثته الثورة في يوليو ١٩٦١ (المحرر)

أما تذايتها يخالطون في تلامذتهم أذنا تسع الكلمات ، وذاكرة تثبتها كما هي وتعيدها كما سمعتها ، ولا يعينهم من التلميذ بعد ذلك أن يكون له ذهن يفهم ويتصرف فيما يفهم ، أو وجدان يستضيء بنور المعرفة المفهومة ويستلذ الشعور بما وعاه منها . وهي طريقة تقتل في الطالب المبتدئ الأمل في فهم العلم ، وتصيبه في أول الطريق بما يشبه اليأس ، بعد أن أتى وفي قلبه أمل كبير في أن يجد شيئاً خيراً مما كان يجد في « الكتاب » ، مزهوا بنفسه وقد بذأ أقرانه واستطاع من بينهم أن يلتحق بالمعهد الديني الكبير ، وأن ينتظم في صفوف « المجلورين » ، وهو شرف قل من يحصل عليه .

فما ان يجلس الى حلقات الدرس حتى يفاجأ من أول يوم باصطلاحات نحوية وفقهية هي في صعوبتها كالحجارة أو أشد قسوة .

وكانت الجمهرة العظمى من طلبة العلم الشريف لا يصبرون على هذا اللون من جفاف الدراسة ولا يتحملون العناء في فهم كتبها المعقدة ويصيبهم اليأس ، فيهربون منها بعد مدة تطول أو تقصر حسب قوة تحملهم وصراهم مع نفوسهم أو خداعهم لها . كان اليأس من النجاح — كما قال الشيخ محمد عبده — يتسرب الى قلوب خمسة وتسعين في المئة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل — سبيل القاء المعلم ما يعرفه وما لا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعدادة للفهم — غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشهم

أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا من الرجال وهم في أحلام الأطفال .

أمضى الفتى الناشئ « عبد الله بن مصباح » بضع سنوات يتلقى العلم بالمسجد الأنور ، يحضر حلقات « فقه الشافعية والنحو والصرف والتوحيد والمنطق والعلوم اللسانية والأصول ^(١) » . وظل في هذه السنوات ينازع نفسه ويجهدُها على السير في هذا السبيل ، ويحاول قدر الطاقة أن يستجيب لما يلقي عليه وأن يستسيغ ما يقرأ فلا يستطيع . وعاف طريقة التدريس ، فأخذ يهجر حلقات الدرس ، ومنهم حفظ الكتب دون فهم ، فلم يعد يلتفت إليها ، ولم يستطع أن يعالط نفسه في حقيقتها ، وعرف أن هذا ليس بطريقه ، وأن القدر قد رسم له حياة أخرى غير التي اختطها له أبوه « مصباح » فقاطع الدراسة ، وفر من الجامع الأنور .

(١) سلافة التديم ج ١ ص ٢٠

الاديب الناشئ

لا ندرى كيف يكون وجه الحياة الآن ، لو أن المواهب الفنية والاستعدادات العلمية الموجودة بين البشر اكتشفت جميعها . وأعطيت الفرصة لتعمل وتنتج بطاقتها الكاملة ؟

أغلب الظن أن الحياة تكون غير حياتنا التى تؤثر فيها قلة قليلة من المواهب الفنية وقلة أخرى قليلة جدا من العبقريات العلمية .

ولكى نعيش الحياة المقدرة لنا فى بطن الغيب ، ولحكمة لا نعرفها ، تموت فى البشر أكثر المواهب وتقتل معظم العبقريات بالفقر غالبا وبأسباب الحياة الأخرى التى توجه المرء الى غير ما هو مفضل له وموهوب فيه . والقلة النادرة من هؤلاء الموهوبين هم الذين يقدمون للعالم ما يستمتع به من علوم وفنون ، يرصد لهم القدر من يوجههم الوجهة المرسومة حتى تكتشف مواهبهم .

والمدرسون الموفقون لهم نصيب كبير من هذا التوجيه بين طلابهم ، فهم ألصق بحياتهم العلمية من غيرهم ، وأقدر على فهمهم ، فمهمتهم بناء العقول البشرية ، وتأثيرهم قوى عليها ، وغالبا ما يكون فى حياة كل طالب شخصية مدرس تؤثر فيه تأثيرا يستمر مع الزمن طولا وقصرا حسب قوته وعمقه ، وقد توجه الوجهة السليمة فيصيبها التوفيق .

وفي حياة « عبد الله النديم » الأولى كانت شخصية الشيخ محمد العشرى ، أحد شيوخه في « الجامع الأنور » من الشخصيات المؤثرة الموقفة في توجيهه ، سارت به في الاتجاه الذي يتفق واستعداده الفطري وموهبته الفنية ، ودفعته في طريق الأدب ، فواصل السير حتى وصل الى قمته . وكان الشيخ العشرى نفسه ممن يتعشقون الأدب ويقدرّون الذوق الفني ، مشهوراً بنوادره الأدبية ومثلحه وفكاهاته بين مجالس الاسكندرية .

اكتشف الشيخ العشرى موهبة « عبد الله » الفنية وقدرته على نظم الشعر واستعداده الطيب في قول الزجل ، فاصطحبه الى ندوات الأدباء بالاسكندرية ، وأخذ ينشده الشعر ويكاتبه ويبادلّه الملح والنكات الأدبية . « وما زال يغمره في ألوان الفنون حتى انصبغ ، وينشده الجذ والمجون حتى نبغ ، وجرى خلفه في ميدان الفكاهة ، وصار الفه في العفّة والنباهة » .

كان هذا الشيخ أقرب الشيوخ الى قلب « عبد الله » . فاعترف بفضلّه عليه ، وظل يرسله ويذكره بالمودة والخير ، ويشير في كتاباته الى مكاتبه الكبيرة من نفسه وأثره القوي في حياته ، فيقول في إحدى رسائله اليه :

« ربيت فأحسنّت ، وغذيت فأسمنت ، مؤدبا ليثا . ولنت فسودت ، وجلت فعودت ، مهذباً غيثا . وعلمت فأفهمت ، وأشرت فألهمت ، غرض سهمك . وقد نلت ما أملت ، فيمن عليه عولت . غلامك الشهير بالنديم ، من صار في البيان كالنسيم .

وكيف لا يكون لساني قوس البديع وكلامى السهم
السريع ، وأنت باريه وراميه ، أم كيف لا يكون مقامى الحصن
المنيع وقدرى العزيز الرفيع وأنت معليه وبانيه . فوجه جمال
العلم أنت عزته ، وانسان عين الحلم أنت قرته وحاليه وجاليه ،
وجبين العقل أنت طرته ، وكتاب الفضل أنت صورته وطاليه
وتاليه ... (١) » .

اجتذب هذا الطريق الطالب المتمرد على العلم ، لأنه خاطب
منه الذهن المتفتح والموهبة المفطورة ، فهرب من حلقات العلم
الى دكاكين التجار المتعشقين للأدب ، يتطارح معهم الشعر ،
ويتبادلون نواذر الطرفاء ، والى المقاهى يستمع الى شاعر
الربابة يروى القصص والأساطير الشعرية ، وينشد لروادها
زجله . وفى الليل يصحب شيخه العشرى الى المجالس الأدبية
فى بيوت الأثرياء ، يسمع المباريات الأدبية والشعر والزجل
وفنونه .

ويتجاوب الفتى الناشئ مع كل هؤلاء فى فنههم ، ويدرك من
غير وعى أن هذا باب به وفنه ، وأنه إنما خلق لهذا اللون من الحياة .
كان عبد الله يغشى هذه المجالس فيسمع شعر الشعارين
وزجل الزجالين ، ونواذر المتماجنين ، وقصائد الراوين ، فيصغى
الى كل ذلك فى فهم كأنه كله آذان ، ويدرك أنه إنما خلق لذلك
لا للنحو والصرف أو الفقه والأصول . فاشتاق نفسه أن

(١) سلافة التديم ج ١ ص ٣٤ .

يسلك هذا المسلك ويسير في هذا الطريق ، وقد منح حافظة لاقطة ، وقدرة على التقليد فائقة ، فأخذ يحاكي بعدما اختزن ، ويغنى بعد ما سمع ، فطورا يوفق فيستدعى ذلك اعجاب أمثاله ، وطورا يعثر به لسانه فبيد الكرة ومن كل ذلك يتعلم ^(١) .

ولم يكن للأدب وقتذاك درس منظم ، ولا يعد علما ولا فنا . وإنما كان هواية كالغناء يقلد فيه اللاحق السابق دون قاعدة أو دراسة .. وكان من يأخذ نفسه بهذه الهواية ينظر إليه علماء الدين نظرة ازدراء ويعدونه من « أهل البطالة » .

وكان لهذا التقليد أثر كبير في أن يكون السجع والمحسنات البديعية وفن المقامات هي الذوق الشائع في الأسلوب الأدبي ، ولها المقام الأسمى والسبق في المجالس الأدبية ، يرتاح لها الناس ، ويحكمون على قيمة الأديب بمهارته في تقليد السابقين ومعارضة قصائدهم وتشطيرها أو تخميسها دون أن يكون لهم فضل في خلق شيء جديد .

ونأت موهبة عبد الله به عن السير في ركاب المقلدين ولكن أذواق الناس فرضت عليه أن يتبع طريق السابقين ، فأخذ يتكر في السجع أساليب جديدة لم تكن من قبل ، وينشد الزجل على ضروب مستحدثة لم يمهدها عشاق الأدب في عصره .

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ٢٠٦ .

وقد علمته نشأته في الأحياء الشعبية درسا استفاد منه طوال حياته ، درسا له خطره الكبير في حياة الأدباء وأثره العظيم في إنتاج الفنانين ، ذلك أن رهاقة حسه وبقطة نفسه وذاكته اللاقطة قد استوعبت كل ما يحيط بها من الحياة الشعبية لغة ، وأدبا ، وأمثالا ، وحكايات ، ومعاملات ، وتصرفات ، حتى أوجه التفكير . انطبع كل ذلك في نفسه لوحات كان لها أكبر الأثر في حياته الأدبية المستقبلية ، وأحاسيس الفنان وعواطف الشعراء تختزن ما يمر بها من تجارب البؤس الى جانب حلاوة البسمات وأرق معاني الجمال ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك في فنها في مقامه .

واشتهر أمر الأديب الناشئ في الاسكندرية ، وأصبح يدعى ليجالس الخاصة « ويصحب السادة وينادم الكرماء » ، فيترسل ويسجع ويخطب وينشد الشعر ، ويخالط العامة فيزجل ويطلق الأمثال والنوادر على البديهة . وصار اسمه ، برغم صغر سنه ، يتردد في المحافل والمجالس .

وقل الناس أخبار « عبد الله » الى أبيه « مصباح » في مخبزه ، فثارت ثائرتة ، وأصيب بخيبة أمل كبرى في ولده المنذور للعلم . لقد تحمل المشقة لينفق على ابنه وهو يتعلم ، رجاء أن يبارك الله له في رزقه ، وأن يصبح ابنه عالما يتقرب به الى الله . أما أن يسير في طريق اللغو وراء هؤلاء الغاوين الذين هم في كل واد يهيمون وأكثرهم يقولون ما لا يفعلون فهذا ما لا قبل له به .

وخيرُ الوالد ولده ، فاما أن يعود الى طلب العلم فيجد
الرعاية والاتفاق ، أو يذهب الى حال سبيله ويتولى أمر نفسه
فياًكل بشعره وزجله .

وغالب عبد الله نفسه فغلبته ، ولم يستطع أن يقنعها بالعودة
الى حلقات الدرس يتلقى فيها ما لا يفهم ولا يتذوق ، ولو كان
فى ذلك الطعام الوفور والرزق الميسور ، ويترك المتعة النفسية
التي طعمها فى مجالس الأدب ومناشدة الشعراء ولو كان فى ذلك
الجوع والمسغبة ، فقد كان يكفيه أن « يتغذى بنكتة ويستروح
بخطبة » .

بهذا القرار الذى اتخذه عبد الله اقطعت صلته « بالجامع
الأنور » وحلقات العلم والدراسة المعهدية المنظمة ، بعد أن قطع
فيها خمس سنوات يدرس علوم اللغة والشريعة والتوحيد
والمنطق دراسة ان لم يبلغ مداها ، فقد علمته الفلسفة اللفظية
والدقة فى الفهم والقدرة على الجدل ، وفى مراحل حياته الأدبية
والسياسية ، كانت تظهر آثار هذه الدراسة فى فلسفته الجدلية
ومقدرته الفائقة على المناقشة وغلبة الخصوم وتمكنه من اللغة
وعلوم الدين .

واجهت عبد الله مشكلة العيش بعد أن تبين أن الأدب عملة
لا تصرف فى سوق الرزق ، وحتى ذلك الحين كانت الاسكندرية
هى كل عالمه ، ومحترفو الأدب فيها منشدوه ومناظروه ، فتاقت

نفسه الطموح الى الخروج من عالمه الصغير الى العالم الكبير
« بعد أن مل الراحة ، وعسّن له الأمل السياحة » .

خرج عبد الله من الاسكندرية ، واخذ يطوف بالبلاد
ويجوب المدن والقرى ، تارة يركب القطار ومرات كثيرة يتطلع
المسافات على رجليه « لا ترده المتاعب عن أمله ولا تلهيه المآعب
عن عمله » ، يجد - شأن أمثاله من الغُرّاء الجوالين - دائماً
مكاناً له على موائد العمد وأعيان البلاد ، يتعهم بانساده
وينادهم بأزجاله ، يسحرهم بمناقضاته ويشد اليه عيونهم
بأحاديثه العذبة ، ويتعرف على البلاد وفرفائها ، فيناظرهم
ويناسدهم ، ومن كل ذلك تزداد معارفه وتنمو خبراته .

النديم

عاد عبد الله من هذه الرحلة الى الاسكندرية بعد ستة أشهر اكتسب فيها لقباً جديداً اشتهر به وغلب عليه وصار يعرف به طوال حياته ، هو لقب « النديم » . وقد علمته رحلته الجراءة والاقدام ومعاناة الشدائد سعياً وراء الرزق « وحسب الظهور بين مشاهير الندماء » . وقد كان قبل الرحلة — شأن كل حدث — هيباً يخاف الاغتراب ، ويتملكه الجبن حين يفكر في سبيل العيش المجهولة .

ويحكى النديم عن أثر هذه السفرة في نفسه فيقول :

« وما تعهده في طبيعتي من الجبن ، وكلامي من الجبن ، كان في الصخر ، قبل ركوب السفر ، ومعاناة الأمور ، ومعاناة الدهور ، فان من ألف الراحة ، وأتف السباحة ، واقتصر على بلده ورجال عصره كان كطير القنص اذا وضع في القفص يفرح بطعامه وشرابه ويمرح في قفصه . فان غابت عنه الميرة أدركته الدهشة والحيرة ، يستغيث فلا يغاث حتى يصير كالبغاث ، وان فتح له الباب غاب عنه عقله وضل وكره ، فرجأ ثر من شبكة ووقع في هلكة . أما من أراد التغرب فهو كالكركي تارة شامى ومرة تركى وآونة مصرى وأخرى بصرى ، لا يحرم من القفار نيلها ولا من الأنهار نيلها ، وزاد علمه بالبلاد والعباد ... » .

كان النديم يتوقع أن يجد من الحفاوة بالاسكندرية مثل ما ودعه بالأمس زملائه ممن احترفوا الأدب واتخذوا منادمة الكبرياء والأثرياء لهم عملا واثشاد الزجل والشعر في المحافل والمجامع مصدرًا للرزق ، ولكنه أصيب بخيبة أمل ، فقد تنكروا له وتعصبوا عليه ، وصاروا ينقدونه وشعره والأساليب البديعة الجديدة التي جاءهم بها معه في رحلته « وأعلنوا عليه الحرب ، وتجمعوا ضده من كل حزب » .

والواقع أن الحرب التي أعلنوها عليه كانت حربا في سبيل لقمة العيش ، بعد أن أحسوا — وقد جاءهم بجديد من فنون — تقول له خطرهم — أنه بذهم وتفوق عليهم ، « فخافوا من أن يقهرهم في منادمة السادة الأغنياء وأن يختص هو دونهم بالمنح والعطاء » .

وضاق النديم بالاسكندرية وأهلها ، إذ لم تعد مجالسها ترضى طموحه وذوقه ، وقد تفتحت آفاقه بعد رحلته ، ورأى عالما أكبر وسمع عن دنيا تختلف كثيرا عن الاسكندرية .

ولم يكن بعد الاسكندرية سوى القاهرة يهاجر إليها .

وكانت هجرته الى القاهرة في عام ١٨٦١ وسنه اذ ذاك سبع عشرة سنة ، ونزل فيها ضيفا على صديق له يدعى عبد العزيز حافظ كان قد تعرف به في الاسكندرية يعمل مفتشا بالسكة الحديد ، وكان ذا يسار يحب الأدب ويكرم الأدباء^(١) .

(١) سلافة النديم . ج ١ ص ٢٤ و ٤٩ و ٥١ .

الأديب التلغرافى

عندما وصل النديم الى القاهرة يبحث فيها عن مصدر للرزق كانت الحكومة فى حاجة الى شبان متعلمين تشغل بهم الوظائف المستحدثة فى مكاتب التلغراف ، وكان المتعلمون الذين يعرفون القراءة والكتابة قليلين جدا ، والذين يصلحون للوظيفة أقل بكثير .

تقدم النديم ليعمل باحدى هذه الوظائف . ويغلب على الظن أن فكرة تعلم التلغراف والعمل به — وهى أبعد ما يكون عما أخذ به نفسه — جاءت عن طريق صديقه المفتش بسكة الحديد ، والتلغراف تابع لها وقتذاك .

وفى التلغراف شىء جديد وغريب على النديم ، وخاصة أنه لم يدرس شيئا من العلوم المدنية . « ولكن ذكاه الفطرى ساعده على أن يتقن هذا الفن فى بضعة أسابيع » . ثم عين « تلغرافيا » وصار يتنقل فى مكاتب مختلفة حتى استقر به المطاف فى مكتب بنها .

ولم يكن النديم سعيدا أول أمره بعمله ، لأنه عين فى بلاد نائية وهو فيها غريب ، قد حرم غذاءه الروحى فى صحبة الأدباء والشعراء .

وضاقت نفسه بحياة الصخب والضجيج التى يحياها ليل نهار ، يعانى من صفير القطارات وضوضاء المسافرين ومن

صحبة الجمالين والباعاة الجائلين ، ولا ينقذه من كل ذلك سوى قلمه ينفس به من ضيقه فى خطابات يكتبها الى صديقه المفتش .
« ولو علم السيد ما أنا فيه من معاناة الأمور ومعاناة الدهور لالتبس عذرا لتأخيرى ، فأرجو الصفح عما يوجد فى هذا من القبح ، فقد حررته ليلة نوبتى ، بعد عشائى وقبل نومتى ، مع صغير الواورات وجمعية العربات ، ونداء العدة مدة بعد مدة ، وعندى من الأوباش كل سكير وحشاش ، حزب يلعب الدمنة وفريق يقرأ كليله ودمنة ، وقوم يلعبون النرد ، وشخص يقزح كالقرد . وكنت فى بلوى كبيرة اذ صار المحل كبيرة ... » .

وألقى نفسه بعد ذلك مترددا عند مفترق الطريقين . فقد كادت عشرته لهؤلاء الجهال تستميله اليها ويجرفه تيار الجهالة ، وأصبح منها قاب قوسين أو أدنى وفى ذلك يقول :

« وانتظمت فى سلك التلغراف ، وامتزجت بالأوباش بعد الأشراف . فضعف يقينى ، ولم أجد من يقينى . فان أغلبهم سكارى ، وكلهم حيارى . لا يعرفون الهدى ، ولا يتركون الردى . أعبدهم من اذا رأى الخمر هام ، فلا يرد الا بالحمام . وأصلحهم نواسىء العمل ، وأقنعهم أشعبي الأمل . لا يركون ولا يتصدقون ، ويحلفون ولا يصدقون . ولا يرون عيبا فى فحش ، فهم أغلظ طبعاً من وحش . ان حدثوك كذبوا ، وان اتهمتهم خانوا وسرقوا ، وان هديتهم ضلوا ومرقوا . كم قت قبيحهم خطيبا ، وأسمعتهم وعظا رطيبا ، فلم يزدادوا الا نفورا .

وقد أعيانى رد هذا الخطب ، حتى ذبل غصن يقينى الرطب ،
فكاد طبعى تسرقه تلك الطباع ، وتجرى به فى كهوف الضباع .
فقد خضت معهم فى حديثهم اللغو ، ولبست ثياب اللعب
واللهو . فما طلبت واعظا الا لقيت شبه شيطان ، ولا تصورت
صالحا الا رأيت سكران ... » .

ولكن القدر أهذه قبل أن تجرى به نسياع الانسانية فى
كهوف الضلال ، فنقل الى القاهرة بمكتب تلغراف القصر العالى
مقر الأميرة خوشيار خانم (هانم) أفندى ، أم الحديو
اسماعيل^(١) .

ولا ريب فى أن اختيار النديم لهذا المكتب كان تقديرا
لكفايته التى لفتت اليه أنظار رؤسائه ، اذ أن احاطته اللغوية
وثقافته الأدبية رفعتة عن مستوى زملائه موظفى المصلحة من
أنصاف الأميين وقتذاك .

واستقرت الحياة « بالنديم » فى القاهرة . فهو صاحب
وظيفة تدر عليه المال مايكفيه مؤونة الحياة ، وهو ينظر اليه
باحترام لأنه من موظفى القصور الملكية . وأصبح لديه من

(١) كانت الاميرة خوشيار خانم تسكن قبل أن يتولى ابنها الحكم قصر
الزعفران معر جامعة عين شمس الآن بالعباسية . ثم انتقلت الى القصر العالى ،
ومكانه فى حى جاردن سيتى الآن . وكانت خوشيار تعد الملكة الحفوية للدولة ،
فقد كان ابنها اسماعيل - على جبروته - يستشيرها فى كل أموره ويعمل بآرائها .
ولذلك عظمت مكانتها ، وأنشد الشعراء فيها قصائدهم يتلمسون لها مختلف
المناسبات ليتباروا فى مدحها والتناء عليها ، وكان أبرزهم الشيخ على
أبو الصر والشيخ على اللبتي شاعرا المعية الحديوية .

الوقت ما يرضى فيه هوايته ويشبع رغبته فى مجالس الأدب التى طال حنينه إليها . وكان حظ القاهرة من منتديات الأدب أوفى ونصيبها من الحياة الفكرية أكبر . ففيها الكثير من المجالس الخاصة التى يجتمع فيها رجال الفكر وشيوخ العلم وعشاق الأدب . وهم مزيج مختلف ، منهم الثرى والوجيه والأديب الفقير والأزهري المعمم والأفندى المطربش والموظف والتاجر . وهذا منتدى الأدباء ، وذلك مجمع الفقهاء ، وغيرهما ملتقى الطرفاء أو المقتنين . حتى ليكاد كل واحد يعرف مكانه من هذه المجالس حسب ذوقه وميله ، ويكثر ذلك فى طبقة الأوساط والأغنياء وذوى الميل العلمى والفنى .

ومن الندوات الأدبية ما كان يعقد فى سراى حسن بك حسنى البارودى بغيط العدة بباب الخلق . كان منتدى أديبا حافلا ، يؤمه أعيان المنشئين والشعراء والمتأدبين من طلبة العلم ، يسمرون فيه مع ابنه « محمود سامى » الشاعر الشاب . فشعر قديم ينشد ، ومعارضات له تنشأ ، وعرض للمعنى الواحد فى صيغ مختلفة ، وأماليب تتمثل فيها ألوان البديع ، وقد لكل ذلك ، تتخلله النوادر الفكهة والملح الأدبية .

وكان للشيخ أحمد وهبى مجلس يعقده فى دكانه بالغورية حيث يبيع الطرايش ، يجتمع فيه الأدباء والشعراء يتناشدون ويسجعون ويتناظرون ^(١) .

(١) أحمد تيمور : تراجم أعيان القرن الثالث عشر واو

والى جانب هذه المجالس الخاصة مجالس عامة تجتمع دون نظام وعلى غير موعد ، يحضرها المتشاعرون ، ويؤمها المبتدئون ومدعو الأدب ، تعقد فى المقاهى والمتنزهات وفى الأفراح والمآتم .

بهذه المجالس العامة التى تفتح صدرها لكل رائد ، اتصل « النديم » أول ما اتصل ، لكنه لم يأنس إليها ، لأنه وجد فيها صنوفا ممن يدعون الأدب وهم فى زعمه جهلة بلداء ، صناعتهم المغالبة والحقد والذم ، وهم كثير منهم التكسب ونيل العطاء ، فان أعطى رضى ، وان منع سخط وهجا ، « يسمون شقشقة اللسان عنوان البيان ، ويرون البلاغة والفصاحة فى الهجاء والوقاحة ، ويمدون الغلط الشنيع من أنواع البديع ... يسطون على أدب غيرهم ويدعونه لأنفسهم ، ثياب منقوشة وعمائم منقوشة ، وأعاب كبيرة ممثلة كبيرة ، لا يعرفون من العلم الا اسمه ، ولا من الأدب الا رسمه ، اذا رأوك على بساط الأدب تطفلوا ، فان أخذت فى البحث تنصلوا على أن شهرتهم أكبر من الأجرام ، ولحاهم أطول من الية الأغنام ... » .

وخاب أمل « النديم » فى هذه المجالس وسئمتها نفسه . وفكر فى أن يلزم داره ، وينأى بنفسه عن بضاعة الأدب وأهله . وشكا أمره الى صديقه مفتش سكة الحديد ، فقدمه الى ندوة الشيخ أحمد وهبى .

وجرت العادة فى الندوات الأدبية الخاصة وقتذاك ألا يحضرها غرب الا بصحبة عضو أدب يركيه لروادها ، فيأخذون

فى مناقشته حتى تثبتوا من بضاعته ، خشية دخول المزيفين
ومدعى الصناعة الذين كثروا فى تلك الأيام .

وجلس « النديم » بين يدى أحمد وهبى ، فأخذ يتنقل به
بين ألوان البديع ليعلم أهو مبتكر أم سارق ، فكان النديم
يستعيده ما قال ليعيده عليه لفظا بلفظ ويرد عليه ألوان البديع
بابا بباب . وقضى معه الساعات ، حتى تبين فيه سرعة البديهة ،
وأصالة الموهبة الأدبية ، والتمكن من البديع واتقانه لفنه ،
وعدم تكسبه بأدبه ، فأجازه ، وأخذ يعلل له فساد الأدب
وأهله بقوله : « ... لكل سلعة قوم ، ولكل قوم بضاعة ،
ولكل عصر رجال . وحالنا اليوم تزيف الصناعة ، وطلب
المحال . ان أبناء جنسك لا يحسنون انشادهم الا فى الأمور
الطائرة . وقد كثرت تجارة هذه البضاعة فى كل سوق وكل
متمرى فهجرت الناس هؤلاء الباعة ومالوا الى الفسوق ...
وصناعها (الأدب) فى هذا العصر كثيرو العدد قليلو الرشد عادمو
المدد ، لا لفقد المشتري فى هذا العصر بل لسعى الأجلاف فى
غش الأصناف . ولم يبق منهم على أصله سوى من لاذ بالبديع
والتجا ... » .

وعقدت أواصر الصداقة بين النديم وأحمد وهبى ، وهو
أديب تعرفه ساحات الأدب ومجتمعات القاهرة . فقدمه الى ستة
من الأدباء هم فى القمة من حياة العصر الأدبية : شاعر مصر
محمود سامى البارودى ، والسيد على أبو النصر ومحمد
صفوت الساعاتى شاعرى المعية السنية يعيشان فى كنف

الحديث ، والشيخ أحمد الزرقاني الكاتب الأديب ، ومحمد بك سعيد بن جعفر باشا مظهر الشاعر الناصر ، وشيخ الأدباء عبد الله باشا فكرى . وقد وصفهم النديم ، وأثنى على علو كعبهم في الأدب في رسالة بديعة مطولة سماها « لواء النصر في أدباء العصر ^(١) » . جعلهم فيها آلهة الأدب ومحتكرى صناعته . والرسالة مع أنها تدل على طول باع النديم في فن البديع ، وطواعيته له دون جهاد فهو يتنقل فيها بين أنواعه المختلفة ويتكرر فيها صورا جديدة - إلا أنها مشحونة فوق طاقتها بمتراذفات أطالت مبناهما دون أن تزيد في معناها ، وبالع في وصف أصدقائه الجدد ، وجعلهم أئمة العالمين في الأدب ، ورسالة البلاغة الذين لا يدرك لهم شأوا في الدنيا .

وكان كلما تقدمت به الأيام في القاهرة ازداد معرفة بالأدباء ومجالسهم ، فكان يحضر ندوة محمد باشا سيد أحمد بشبرا والسيد عبد الواحد الحريرى شيخ الطريقة العنانية الصوفية وغيرهما .

وتوقت الصلة بينه وبين هؤلاء وأولئك من الأدباء . فاستفاد من معارفهم ، وداوم على حضور مجالسهم والشرب من منهلهم ، فكان في النهار « تلغرافيا » يستقبل الاشارات ويرسلها ، وبالليل « أدبيا » يتقبل نماذج الأدب وينشد على منوالها ويحاكيها ، ومن كل ذلك تزداد ثقافته .

(١) نص الرسالة - سلاقة النديم : ٢٤ - ١/٢٩ .

وهيأت له الإقامة بالقاهرة فرصة أخرى ، هي مواصلة الدراسة المعهدية الدينية واللغوية التي بدأها ولم يتمها بالجامع الأنور بالاسكندرية ، فصار يتردد على حلقات العلم بالأزهر ، وفي الأزهر دروس حرة تلقى في الساعات المختلفة من النهار والليل لرواد العلم . فكان النديم يحضر من دروس كبار الشيوخ^(١) ما يوافق وقت فراغه .

وتعرف في حلقات العلم بالأزهر على عدد من طلاب العلم الذين أصبح لهم فيما بعد شأن في أمور الدين والأدب والسياسة . وعلى الرغم من كثرة معارفه وتعدد صداقاته ، إلا أن عبد العزيز حافظ كان آثرهم لديه وأقربهم إليه ، يلزمه في أوقات الفراغ ، ويسعد بلقائه كل السعادة ، ويصف النديم ما كان بينهما فيقول « ... وامتزجنا بالسرور امتزاج النور بالأحداق ، وصاحبنا الصفاء مصاحبة الآجال للأرزاق ، فصار مجلسنا ألطف من جو مر به النسيم وأظرف من ثغر بسيم ... تترامى علينا الأفراح ترامى الفراش على النور ، ويلازمنا الأنس ملازمة السير للبدور ... » .

وحين نقل هذا الصديق من القاهرة الى مكان بعيد قال للنديم قبل أن يفارقه : « أحب أن تتواصل الى رسائلك وتسامرني وسائلك بشرط أن تكون أسطرها عشرين فما فوق ،

(١) حضر دروس الشيخ محمد الانبأبي الذي صار فيما بعد شيخا للأزهر :

الأمناذ ص ٨٩٤ .

وأن يكون بعضها فى غزل وشوق وبعضها نكتا أدبية ، وبعضها فوائد عربية هذه محادثة والأخرى مسامرة ، تارة طرائف خميرية ومرة لطائف عمرية ، وهكذا ترشف من كل دن وتشطح فى كل فن على أن تكون بحكايات ما طرأت الأفكار ولا خرجت من الأوكار ، وتلتزم الجنس فى الفقر ليكون أوقع فى الفكر ، وأن لا تأخذ من شعر غيرك الا بيتا أو بيتين ، وأن تأتى رسالة يوم الخميس ورسالة يوم الاثنين ، وأن يكون آخر كل رسالة دخولا على أول ما بعدها وهذه عروة ذكرى لك فلا تنقض عقدها (١) ... » .

كتب النديم من هذه الرسائل خمس عشرة رسالة سماها « رياض الرسائل وحياض الوسائل » (٢) ويقول عنها الذين تولوا جمع بعض آثار النديم بعد وفاته من أصدقائه وأقاربه : « ... وهى رسائل فريدة فى بابها يدل عنوان كل واحدة منها على مضمونها ، ومنها : الستر المسدول فى دلالة الانجيل على الرسول ، الحصون المنيعه فى الرد على أهل الطبيعة ، الفكرة المطبوعة فى تطبيق الطبيعة على الشريعة ، تطهير الأذواق فى حميد الصفات والأخلاق ، الأبكار البديعة فى الرد على المعتزلة والشيعه ، السهم السريع فيما تضمنته وقيل يا أرض من

(١) سلافة النديم : ١/٧١ .

(٢) سلافة النديم : ٦٦ - ١/٧٢ .

البديع ، اخراج الوديع من الظرف في أن المعجز النسق
لا الصرف ، الشئ ورثة في أولاد مصر الزئة ، الشجرة
العشاشة في أولاد مصر الحشاشة ، شد الدبلاق في أكتاف
أهل بولاق ، حاوريني يا طيطة في الطربوش والبرنيطة ، صحبة
السلامة للابس العمامة ، وغيرها كثير مما هو مدون في مجموعة
كان قد أودعها هي وديوان شعره الثالث عند من ضمن بها
لنشرها ، ولم نظفر منها الا بمقدمتها ورسالتين لم يسبق أحد
من كتاب العربية الى مثلها^(١) .

(١) سلافة النديم ١/٦٩ .

على الطريق مع الأحرار

جاء جمال الدين الأفغانى الى مصر وهى ترسف فى أغلال حكم اسماعيل وتتخبط فى بحر لجى من الظلمات ... ظلام سياسى ، وظلام اجتماعى ، وظلام دينى ، وظلام خلقى . أما ديجور الظلام الأكبر فقد كان فى استبداد الحاكم وطغيانه . جاء المفكر الأفغانى عام ١٨٧١ وكان ذوو البصيرة فى مصر يعيشون فى حيرة يتلمسون معالم الطريق فاجتذبتهم أحاديث جمال الدين وآراؤه .

واستهوت أفكاره الجريئة عبد الله النديم ، كما استهوت غيره من المثقفين الذين يتوقون الى المعرفة الحقيقية وقد أضنت الحيرة قلوبهم ، انتظم النديم فى عداد حواريه ، يتخلق هو وزملاؤه^(١) حول أستاذهم ، قيسط لهم ما ينير العقول ويظهر العقيدة ، ويذهب بهم الى معالى الأمور ، ويستلفت نظرهم الى ما وصلت اليه بلادهم من ذلة العبودية وبؤس التحكم ، وهو فى كل ذلك له سلطة على دقائق المعانى ، يبرزها فى صورها اللاتقة بها ، كأن كل لفظ قد خلق لمعناه .

كان جمال الدين ينبه فى كل تلميذ من تلاميذه ملكات ذهنه

(١) منهم : محمد عبده ، وإبراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وعلى مطهر ، وحسنى ناصيف ، وعبد السلام المويلحي ، وأخوه إبراهيم ، وسليم النقاش ، وأديب اسحق ، ومحمود سامي البارودي ، وعبد الكريم سلمان .

وضميره ، ويستحث في قرارة طبعه غاية وسعه من الاجتهاد والهمة ، حسب فطرته واستعداده . كان يغرس فيهم الثقة التي هي عدة من يتولى عظامم الأمور . والهدف الذي كان يسعى اليه من وراء ذلك كله هو نهضة العالم الاسلامي في وجه الدول الغربية العظمى ، وفي وجه ملوكه وأعدائه المتآلين عليه ، بل في وجه أبنائه الكارهين للإصلاح كراهة الطفل المريض لمذاق الدواء .

وكانت خطته لبلوغ هذا الهدف أن يبدأ بتأسيس دولة واحدة ، على الأقل ، صالحة لقيادة العالم الاسلامي كله في معترك السياسة الدولية ، وفي تنفيذ برامج النهضة والهداية العملية .

ورأى جمال الدين ، بعد زيارته لدول العالم الاسلامي ، أن مصر هي أصلح هذه البلاد لتكون نقطة الانطلاق ، فعقد العزم على أن يبدأ فيها دعوته واتخذ لتحقيق ذلك عدة مراحل . كانت المرحلة الأولى ترمى الى اصلاح الفكرة عن الاسلام ليساير المدنية الحديثة ، وتهدف الى حركة تجديد ديني تقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي ، فقرأ دروساً نافعة في كتب المنطق والحكمة والتفسير والتوحيد والتصوف وأصول الدين ، فلم يكن يقف بالعبارة في شرحه عند ألفاظها ومعانيها ، « بل كان يستخرج منها قوة حية تسرى الى النفس فتحرکها الى العمل ، وكأما الكلمات المشروحة على لسانه تلك

المفاتيح الصغيرة التى تدار فتنبعث منها قوى الكهرباء لا يستقر عليها قرار .

ثم بدأ تلاميذه يستعدون ليحملوا مشعل الفكر وراية الحرية بين الجمهور الذى حطم الاستبداد روحه المعنوية حتى صار يرى أن شؤونه العامة والخاصة ملك لحاكمه الأعلى . وأخذت قلوبهم تشتعل بنار الثورة وتضى أرواحهم بنور المعرفة . وصار يحملهم على الكتابة ويمرنهم على الخطابة ويرشدهم الى انشاء المقالات الأدبية والحكمية والعلمية فى مواضيع مختلفة ، فاشتغلوا على نظره ، ونبغ منهم كتبة لا يشق لهم غبار وخطباء هزوا أعواد المنابر ، وأصبحوا « يشعرون بأن فى استطاعتهم القيام بكل اصلاح يناط بهم ، وأنهم اذا وزعوا على مديريات القطر ومحافظاته يصلحونها فى أقرب وقت » (١) .

ثم أخذ يوسع الدائرة حتى تعم البلاد هذه الأفكار فطلب ممن يحضر مجلسه من أهل العلم أن ينقلوا ما يسمعون من أفكاره الى بلادهم ان كانوا من أهل القرى ، أو الى أحيائهم ان كانوا من أهل المدن ، لتستيقظ المشاعر وتنبه العقول .

وقد لمحت بصيرة الأستاذ فى تلميذه النديم الخطيب الموهوب ، فأخذ يدربه ويأخذه بالمران ، وأعطاه من الوقت والاهتمام قدرا كبيرا ، وكأنه رأى بظهر الغيب أنه سيكون أول خطيب مصرى يقف بين الجماهير ليقرع آذانهم بنداء الحرية ، فتبهج عواطفهم وتثور مشاعرهم ويهبثون وراء النداء يلبون داعى الوطنية .

(١) تلويح الأستاذ الامام . ص ١/١٣٦ .

ولازم التلميذ أستاذه بانتظام أربع سنوات ، ما ان يفرغ
من عمله حتى يهرع اليه ويلازمه كظله ، فتختزن روحه تعاليمه ،
وتعى ذاكرته دروسه ، ويتقبل توجيهاته في الخطابة والكتابة .

ثم فجأة يختفى النديم . يختفى من مجالس السيد ، ومن
القاهرة كلها .

كانت الحياة تسير به رخاء . فهو مطمئن الى مصدر رزقه
بما يؤديه من عمل بالقصر العالى ، سعيد بصداقاته مع رجال
الأدب ، خفى بمجالس أستاذه التى حلقت به الى عالم جديد
وجد فيه عالمه الذى خلق له .

وفي هذه الفترة أدركته — كما يقول — برهة من الزمن لم
يذق فيها سم الاحن وقتما كان بالقصر العالى وقد خدمته
المعالى . وامتزج بالسروور امتزاج النور بالأحداق ، وصاحبه
الصفاء مصاحبة الآجال للأرزاق . ولكن الحظ قلب له ظهر
المجن فاققلب الدهر الغشوم النحس المشوم ، ورمقه بعين
الانتقام وحسده على هذا الانتظام ، وأخرجه منه قهرا ، فلم ير
أقبح منه دهرا ، صدمه صدمة معذب لا لطمة مهذب . وأى
لطمة أقسى من أن يجلد النديم بالسياط ، وأى صدمة
أقوى من أن يفصل من عمله ويطرد من القصر ومن القاهرة كلها ؟
لقد غضب عليه خليل أغا كبير أغوات الوالدة باشا ، وقد
بلغ نفوذه فى ذلك الوقت تبعا لنفوذ سيدته ما لم يبلغه ناظر

النظار ، « اشارته حُكم ، وطاعته غُنى ، يخضع له الكبراء
ويسعى لخدمته العظماء ، كأنه كافور الاشيد في أيامه » .
وإذا غضب عليه الجبار الأسود — وهو المعروف بقسوته
وغلظته وجبروته — فلتغضب عليه الدنيا كلها . وإذا فصل
وطرد من القصر فلن تقبله وظيفة أخرى في القطر كله .
يمكن القول ان « النديم » قد شغل بمجالس أستاذه جمال
الدين ، وكانت تظل معقودة حتى يشتعل رأس الليل ببياض
النهار . فآلهاء ذلك عن مهام وظيفته ، فكان يذهب الى عمله
مكدوداً مرهقاً لا يستطيع أن يؤديه على الوجه الأكمل . وشاء
سوء طالع أن يرتكب خطأ متصلاً بالطاغية نفسه ، فكان ما كان .
ومن المحتمل أن يكون أمر ارتياده مجالس جمال الدين قد
بلغ القصر . وكان أستاذه قد بدأ يسفر عن عدائه لاستبداد
اسماعيل ويجهر بذلك في مجالسه ، فتربصوا « بالنديم »
الدوائر ، حتى أذاقوه مر العذاب .
أيا ما كان هذا الخطأ فقد استغضب به من لا يرحم .

الرحلة الثانية

خرج النديم من القاهرة ملرودا مهيض الجناح جريح الكرامة موتورا يغلى بمرجل الغضب ويطفح بالثورة والألم ، ولكنها ثورة مكبوتة فى نفسه ، فليس له من سبيل الى اظهارها بعد ، وسيف الظلم مشهور فى كل مكان .

كان هذا الحادث أول صراع بين النديم وبين الظلم والاستبداد ، خرج منه مهزوما عن ضعف لا عن رضى وتسليم ، وآثر الصمت والسكوت .

والسكوت ليس دائما اقرارا بالهزيمة أو اعترافا بالظلم ، ولكن قد تدعو قلة الحيلة الى التدبير — كما يقول النديم — حتى تحين الفرصة للانتقام .

وما كان يستطيع النديم الا أن يسكت ويصبر ، وهو آنذاك فى الميدان وحده لاحول له ولا قوة ، « والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم حديد ، والناس كلهم عبيد له وأى عبيد » .

ويصور لنا النديم هذا الحادث فى نفسه ، ويكشف عن الحطة التى اتخذها ، فيقول من رسالة كتبها الى أحد أصدقائه يشكو اليه الدهر تحت عنوان : « الساق على الساق فى مكابدة المشتاق » :

« ... صدمنى الدهر صدمة معذب ، لا لظمة مهذب .
فلتجلى لحره ، مع ضعفى عن ضربه ، قلت : أعزى النفس
وأسليها ، وأعرضها على القتال وأعزيها :

شلت يمين الدهر أدمت منحرى
فرمت بكف الذئب فك القصور
صالت وقد أرخى الدجى ثوب الأما
ن على النديم فمزقته بخنجر
جهل اللثيم مكان قلرى فاعتدى
ولو انه يدرى به لم يغدر
اياك نفسى والفرار فاعما
يسعى الفتى للحين ان لم ينصر
ان تقبلى نفسى فان مزية التد
بير تهزم جيش ملك الأدهر
فالصبر سيف لا يثلم حده
والحزم حصن للفتى المتفكر^(١)

أخذ النديم يضرب فى الأرض على غير هدى ، يجوب مدن
الوجه البحرى وقراه ، يستعيد سيرته الأولى قبل الوظيفة ،
ويستفيد من الخبرة التى اكتسبها فى رحلته السابقة . ولكنه فى

(١) الرسالة كاملة : سلافة النديم ٦٣ - ١/٦٧ .

هذه الجولة كان غيره في المرة السابقة ، فهو الآن يحمل بين
ضلوعه نفسا ثائرة ، وفي قلبه مبادئ من تعاليم جمال الدين
وفي عقله ثقافة أخذها من الحياة ومن الوظيفة ومن صحبته
للعظماء ومجالسته الأدباء والعلماء ومن حضوره حلقات العلم .
وفي جيبه « بقية من مال ينفق منها على طعامه ويأوى الى الفنادق
في منامه » .

وحط الرجال أول الأمر في المنصورة ، واتخذها مركزا له
يطوّف ما يطوف ثم يأوى إليها يؤنس فيها أصدقاؤه ومحبيه .
وأخذ يتعرف في طوافه بعشاق الأدب ومنشئيه ، ينشدهم
ويستمع الى انشادهم ويسمعهم من زجله وبديعياته ما لم يسمعوا
بمثله من قبل . ويحكى النديم عن نفسه في هذه الفترة فيقول من
رسالة له أرسلها الى بعض أصدقائه :

« ... وصرفه من كيسه لا من كيسه ، وماواه حجرات الأجر
لا بيوت عجر وبجر ، ان دخل مجلسا فبنزاهة ، وان أبدى بدافع
فغن بداهة ، وان ثقل فعن صحيح وان أسند فالى صريح ، وان
سأل أوجز وان سئل أعجز ، وان أنشد أطرب ، وان مدح
أطنب ، وان وعظ سحر وان تغزل خلب القلوب ... يقطف زهر
كل فن ويقتحم لجة كل فن ، ويردف المسائل بانشاء الرسائل
بذهب سائل ... ويستكثر الاخوان ... حتى كثرت في الناس
أخلاه . ولم يكن عن أخ لاه .

.... ثم مال يزورق السباحة ومطية السياحة الى بندر
المنصورة ، دعتة الى تلك الدمن صورة ، وجال فيها

جولة . ورأى البندر وما حوله ، ثم سأل عن أندية الآداب ،
ليتعرف بدوى الألباب ، فدل على شزيمة قليلة ، سليمة
جيلة ... » (١) .

وفي طوافه تعرف على عمدة « بداوى » (٢) وكان من أثرياء
الدقينة . وأعجب العمدة بحسن حديثه وطلاوة مسامراته فدعاه
أن يقيم عنده وأن يدرس لأولاده القراءة والكتابة ومبادئ
علوم الدين . فاستقر المقام به في القرية .

وكانت إقامته في « بداوى » فرصة كبرى ليتعرف الحياة
الحقيقية في الريف ، ويرى عبودية من لون آخر هي عبودية
الأرض . واستبداداً من لون مخالف هو التحكم في مقادير الرزق .
وفي حياة .

وخلط في أوقات فراغه بالفلاحين ، واشتغل معهم بالزراعة ،
فنبضت في ذاكرته الصورة عاداتهم الشعبية وأمثالهم العامة ،
وسجنت ذاكرته الطرائف من الملاحظات والفرائد من التقاليد
والعادات . وخبر حياة الفلاحين وأخلاقهم ومعاملاتهم ، وشارك
الفقير منهم فقره وبؤسه ، وجلس إلى الغنى فرأى ثراءه .
ومرافه . وتزداد معرفته بما يراه وما يحسه ، فتكشف له
الجريمة الكبرى التي صنعها الاستبداد والاقطاع في جمهرة .

١١ الصديق اللدال يعرف عليهما : محمد افندى كمال ، احمد افندى على .
خير سلافه الديه ١/٦٠ .

١٢ الشيخ أحمد أبو سعدة ، وكان يملك ألف فدان في مركز فارسكور
بقيته .

الفلاحين ، لقد أفسد الظلم الاجتماعى أخلاقهم فأصيبوا بالنفاق والجشع والبلادة والمذلة .

وطبيعى أن يضيق النديم بالحياة فى « بداوى » بعد أن استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وترك من خلفه وظيفة تدر عليه الكفاية من الرزق ، ومجالس الأدب مع الكبراء والأدباء ، ودروس جمال الدين مع العلماء والعظماء ، الى « مخالطة العوام والسفهاء والجهلة والأغبياء » . ولولا عامل الحاجة والرغبة فى أن يتكسب قوته من عمل كريم — وهو الفقير المنبوذ من الوظائف — لما صبر على هذه الوحشة .

وما لبث النديم أن اختلف مع العمدة آخر العام ، طالب النديم بأجره كمدرس ، وأنكر عليه العمدة هذا الحق ، وأراد أن يكون عمله نظير اطعامه كبقية أتباعه ، ولم يقبل النديم أن يكون مسخرا ، « فتشاحنا وتشادا وتسابا » وكبر على العمدة أن يتناول عليه النديم فسلط أعوانه ليحرقوا داره وينالوه بالأذى وجاءه الخبر فهرب « النديم » من القرية ليلا مهاونا غير كريم ، وخرج هائما على وجهه ، ونفسه تنفطر من الألم والغيط . ولكأت الاهانة جرحه السابق ، فقد كانت الصدمة الثانية على غرار سابقتها ، مصدرها الطبقة الحاكمة الاقطاعية . فقوى حقه عليها وزاد عداؤه لها . وما ان وصل الى المنصورة حتى أخذ لسانه ينطلق بهجاء العمدة وأهل « بداوى » ، ويصوغ فيهم أدبا لاذعا ، تدفعه عاطفته الجريح ، ويذكيه شعور المظلوم الثائر . ومما قاله فيهم :

« ... قوم يحتاجون لترجمة السلام فضلا عن الكلام ،
قلوبهم غلف وألستهم قلف ، وصورهم أقطع من صور نعش ،
وطباعهم أغلظ من طباع وحش ، مشائين همازين ، غمازين
لمازين ، أشد نقا من نافقاء اليربوع وأشأم من أربعاء الأسبوع ،
وأبكى من عيون ينبوع ، وأنكى من وقوع متبوع ، وأعذر من
أم عمرو وأحرق من لهب جمر ، وأجشع من تيمى رأى مأدبة .
والأم من نوبى بلغ مأربه وأشح من مغربى جاع غلامه ، وأظلم
من ليل حملق ظلامه ، وأطمع من طالب النحل من المحل ، وأحمق
من سائق الرحل الى الوحل ، وأتعب من حبلى حملت صخرا ،
وأرذل من خنزير طلب فخرا ، وأهر من كلب ضرب ، وأفرغ من
كأس شرب ، وأجهل من ذباب رأى حلوى ، وأعوى من ذئب
حلت به بلوى ، وأحزن من يهودى وقعت دراهمه ، وأبلد من
جمل دقت مناسمه ، وأذل من قلب رشق بطرف كحيل ، وأبعد
عن الحق من وقوع المستحيل ، عالمهم أضل من إبليس ،
وصالحهم بادى التدليس ... انهم عن الضلال لا ينفكون ،
قاتلهم الله أنى يؤفكون » ^(١) .

وتناقل الناس بالمنصورة أخبار « النديم » وأزجاله وهجاءه
البدوى وعمدتها وأذنايه ، واتصل أمره بعين من أعيان المنصورة ^(٢) .
يجب الأدب وأهله فاستضافه وأكرمه وفتح له متجر خردوات ،
فاتخذ النديم مقرا لندوة أدبية « يتناشد روادها الأشعار

(١) سلافة النديم ٦٠ - ١/٦١ .

(٢) السيد محمود الفرقاوى .

ويتبادلون الأفكار » . وراح ينفق عليهم في كرم وسخاء ، وبعد
برهة وجد متجره قاعا صفصفا ، بعد أن بدد المكسب ورأس.
المال ، فأغلقه ، وعاد يطوف بالبلاد ، ينزل ضيفا على عشاق
الأدب » ويفد على أعيان القطر ووجهائه ، فيكرمون وفادته ،
ويهشون لمقدمه ، لما رزقه الله من حلاوة اللسان وخفة الروح
وسرعة الخاطر وحسن المنادمة » .

وذاع صيته بين محبي الأدب ، يتحدثون بمعجز رسائله
ومحرراته له نظما ونثرا ، ويتباهون بحفظها والقائها في الأندية
والمجتمعات ، حتى اتصل خبره الى شاهين باشا جنج سنة
١٢٩٣ هـ بطنطا .

وشاهين باشا جنج كان على ذلك الوقت مفتشا عاما للوجه
البحري والحاكم بأمره فيه ، له ذوق أديب واحساس شاعر ،
فكان يستضيف الأدباء ليأنس بمطاراتهم الأدبية ويطرب
بمساجلاتهم الشعرية ، وكان يزدهيه أن يكون له مجلس أدبي .
يعقده في قصره بطنطا ، ويشئ عظيمه أن يحف به العلماء
والشعراء .

ويحدثنا أحمد باشا تيمور كيف اتصل النديم بشاهين باشا .
جنج فيقول :

« كان بين شاهين باشا والشيخ أحمد الجندی أحد العلماء .
بالمسجد الأحمدي صحبة وتزاور ، وكان الشيخ (يستظرف)
غلاما حلاقا مليح الشكل حسن الصوت ، فأمره مرة أن يغني .
بحضرة الباشا ، فعنى بقول النديم :

سلوه عن الأرواح فهي ملاعبه
 وكفوا اذا سل المهند حاجبه
 وعودوا اذا نامت أرقام شعره
 وولوا اذا دبت اليكم عقارب
 ولا تذكروا الأشباح بالله عنده
 فلو أتلّف الأرواح من ذا يطالبه
 أراه بمسني والدموع تكاتبه
 ويحجب عني والفسّاد يراقبه
 فهل حاجة تدلى الحبيب لصبه
 سوى زفرة تشنى الحشا وتجاذبه
 فلا أنا ممن يتقيه حبيبه
 ولا أنا ممن بالصدود يعاتبه
 ولو أن طرفي أرسل الدمع مرة
 سفيرا لقلبي ما توالّت كتابه
 وكان كثيرا ما يتغنى بها ، فطرب الباشا طربا شديدا ،
 واستظرف قائل الأبيات وثنى رؤيته ، فأرسلوا له بالحضور ،
 فلما حضر الى « طندتا » ^(١) وواجهه ، استنبح سورته ، الا
 أنه أعجبه ظرفه وأدبه ومال اليه ، فاتخذة ندما لا يمل ورفيقا
 حيث حل ^(٢) .
 وأصبح مجلس شاهين باشا بعد أن انضم النديم اليه كعبة

(١) تطور الاسم وأصبح الآن طنطا .

(٢) تراجم اعيان القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر . ص ١ و ٥ .

يجج اليها المتقفون وعشاق الأدب ، وصار للنسديم فيه ليال مشهودة حضرها أفاضل الشعراء وكبار منشئى العصر وزجاله ^(١) ، فناظرهم — على مسمع من شاهين باشا ورواد مجلسه — فى أساليب البديع المنوعة وطارحهم النوادر والملح وناشدهم فنون النظم والنثر ، فظفر بهم جميعا . وكانوا لديه — كما يقول — أحد معاصريه ^(٢) « كالراعى لى جرير ، أو الخوارزمى أمام بديع الزمان ، فاعترفوا له بالسبق وهم بين طائع وكاره . أذكر له من ذلك أنه حضر اجتماعا حافلا لى شاهين باشا تحامل عليه فيه كل القوم ، فاقترح بعضهم عليه انشاء قصيدة يعارض بها دالية المتنبى المشهورة التى مطلعها :

أقل فعالى بله أكثره مجد

وذا الجد فيه نلت أو لم أنل جد
وقال انه لا يتأتى لشاعر أن يعارض قوله فى هذه القصيدة :
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته بد
فغضب النديم وأمسك القلم وأنشأ قصيدته الدالية التى أولها :

سيوف الثنا تصدا ومقولى الغمد
ومن سار فى نصرى تكفله الحمد

(١) أمثال السيد على أبو النصر والشيخ رمضان خلابة والسيد محمد فاسم والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى وغيرهم .
(٢) أحمد سمير .

الى أن قال معارضا ذلك البيت الذى ظنه المتعنت معجزا :

ومن عجب الأيام شهم له حجا
يعارضه غر ويفحمه وغد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما
لتحفظ أعراض تكفلها المجد

وأردفهما بخمسة أبيات على شاكلتهما ، ولكن لم يبق غيرهما
فى محفوظى لأنى انما سمعتهما منه سماعا سنة احدى وثمانين
وثمانمائة وألف . فأفحم المعارض وأبلس ، ولم يدر كيف يقول «
وفى هذه القصة يمكن أن ندرك معنى الشعر عند أدباء ذلك
العصر وجمهوره ، فهو عندهم مساجلة كلامية ، ومقالة لسانية
ولباقة منطق وسرعة جواب وارتجال ، ولم يكن معظم الأدباء
فى ذلك العصر يرجعون فى قهدهم ولا فى تحديدهم ومقارنتهم الى
مقياس أدبى صحيح . ولم يكن الدافع الى قول الشعر فى أغلب
الأحيان تصوير لعاطفة أو تعبير عن ألم أو تجربة سارة أو حزينة
بل كان طموح الشعراء فى ذلك العصر معارضة الفحول من
الشعراء القدامى أو تشطير قصائدهم أو تقليدهم .

النديم الزجال

وكان النديم حتى ذلك الوقت — وهو الذى تملك ناصية القول فى فنون البديع وضرب بسهم وافر فى نظم الشعر — يحاول قول الزجل على البديهة ، فيطيعه مرة ويتعاصى عليه مرات ، لعدم وجود ما يحرك مشاعره ويلهب موهبته ، حتى وقع حادث طريف — وهو مقيم بطنطا — مع اثنين من « الأدبائية » .

« والأدبائية طائفة من المتسولين يستجدون بأدبهم العامى ، وطلاقة لسانهم فى الشعر ، وحضور بديهتهم ، عرفوا باللجاج فى الطلب والالاحاح فى السؤال ، فاذا رددتهم أى رد أخذوا كلمتك على البديهة ، وصاغوا منها شعرا يدل على استمرارهم فى طلبهم ، واستغواهم بمدوحهم ، وقد جمعوا الى طلاقة لسانهم وحضور بديهتهم منظرهم المضحك فى ملابسهم وحركاتهم ... وسموا « أدبائية » جمع « أدباتى » وهو لفظ سخرية لأديب ، ويكثر وجودهم عادة فى الموالد ومواسم الحصاد .

وكان ما حدث للنديم مع فريق من « الأدبائية » سببا فى انطلاق لسانه بالزجل . استجابت له موهبته فى الثشاده وطاع له ، وأصبح اماما فى هذا الفن من القول .
وتفصيل الحادث مبسوط فى مجلته « الأستاذ » ، ^(١) كتبه

(١) العدد ٤١ من السنة الأولى ١٨٩٣/٦/٦ .

يقلمه بعد أكثر من خمس عشرة سنة ، نقله بنصه ، ولا نرى
مرجعا أولى بالاعتماد عليه ، وأوفى منه في بابه .

« اتفق لى أنى كنت بولد سيدى أحمد البدوى رضى الله
تعالى عنه سنة ١٢٧٤ هجرية (١٨٧٧ م) ، وكان معى السيد
على أبو النصر والشيخ رمضان حلاوة والسيد محمد قاسم
والشيخ أحمد أبو الفرج الدمهورى ، فجلسنا على قهوة
الصباغ تفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهما
لاقتقادنا عليهما استلفت أخاه إلينا وخصانا بالكلام فأخذنا
يعدحانا واحدا فواحدا ، الى أن جاء دورهما الى ، فقال أحدهما
يخاطبنى :

انعم بقرشك يا جندى والا اكسنا امال يا افندى
ألا أنا وحياتك عندى بقى لى شهرين طول جيعان
فقلت على سبيل المزح معه :

أما الفلوس أنا مدّيشى وانت تهولّى ما مشيشى
يطلع على حشيشى أقوم أملص لك لودان
ثم أخذنا تتبادل الكلام نحو ساعة حتى غلبا عندما فرغ
محفوظهما .

فلما قمنا وتوجهنا الى منزل المرحوم شاهين باشا ، وكنا
نازلين عنده جميعا ، أخبره السيد على أبو النصر بما كان منى مع
الأديبين . فلما أصبحنا استدعى شاهين باشا شيخ الأديبة ،
وطلب منه أن يستحضر أمهر الأديبة عنده ، ووعدهم أنهم ان

غلبوني يعطهم ألف قرش ، وان غلبتهم يضرب كل واحد منهم
عشرين كرباجا ، فرضى بذلك ، واستحضر الشيخ داود والحاج
اسماعيل الشهيرين بعمل الزجل وانشاده ارتجالا في أى غرض ،
واستحضر معهما ستة من أشهر الحفظة المقتدرين على الارتجال
أيضا . وعقد الباشا لذلك مجلسا أمام بيته بطنطا ، وأجلسنى
بينه وبين المرحوم جعفر باشا مظهر ، وقد وقف الناس ألوفاً
والعساكر تدفعهم عنا . ثم ابتدأ الشيخ فقال :

أول كلامى حمد الله ثم الصلاة على الهادى
ماذا تريد يا عبد الله قدام أميرنا وأسيادى
فقلت :

أنا أريد أحمد ربه بعد الصلاة على المختار
وان كنت تطمع فى أدبى أسمعك حسن الأشعار
فقال :

دعنا من الأدب المشهور وادخل بنا باب الدعكه
لدخل على أسيادنا بسرور وتغنم الخير والبركة
فقلت :

هيا احتكم فى البحر وشوف فن النديم ولا فتك
دلوقت تسمع يا متحوف أحسن أدب وحياة دقك
فقال هات مدح فى الحضرة على قد :

تعمل عمايلك يا منصان يابو الشفيفة العسيلة
يا صاحب الحجل الرنان ودى الأمور الحيكيلة

ماذا تريد من دى الولهان
أحسن أنا من خمر الحان
وان كنت تسمح يا ابو الخير
قل لى واسعف
قصدي أرشف
يبقى الوصال الدوا ليه
فقلت :

المجلس العالى محمود
واليوم دا يوم مشهود
شاهين باشا فيه موجود
فيه الأمارا والأعيان
خلعت عليه حلة احسان
حظو أزهر
جعفر مظهر
أما المدير هذا المسعود
فانه فى الناس معدود
من ضمن أرباب العرفان

دور

مجلس عليه حسن مهابه
والحاضرين أهل نجاهه
اترك بقى شرب الغابه
كأنه مجلس سلطان
وينقدوا قول الانسان
واشدد نسمع
تطرب مجمع
وان كان تغنى برابه
تمطر على شجر البستان
حسن الكلام مثل سحابه
فقال :

التصد منك يا نلتينا
الا أفت دلوقت غريمنا
وان كنت تجهل تريمنا
تعمل زجل هيله يله
قصدي أحدفك بالقليله
اسأل عنا
واحذر منا
أحسن أوديك لعظيمنا
يشيك ألفين شيله

فقلت :

انت صغار لسه نونو وفي الزجل منتاش مجدع
اتبع نديم تلقى فنونو تأتيك من المعنى الأبدع
أما عظيمك وجنونو ياكل نفسه
وان كان يعارض بمجونو يطلب عكسه
لأن فتى وشجونو لكل متعسظ يردع
وبعد أن دار الكلام بيني وبينه في كثير من هذا الوزن قام
الشيخ داود وقال :

قصدي أقول كلاما يحكى لضمات الزهور هات اشجنا بنظام
من من كان وكان
ادخل بنا لمعان كالبرك من خلف الستور في قالب متحل'
في النظم بالاتقان

فقلت :

اسمع كلام نديم من طيه كل السرور واعقل نصيحة حبر
يدعوك للعرفان
لا تستخف بخصم لو كان من أهوى الطيور واصفح فكل صفوح
يعلو على الاعيان
واخش اللئيم دواما فاللؤم داع للشرور واحفظ مودة حر
في عهده ما خان
لا تصطحب بوضيع ينزلك عن سرج الظهور واصحب أخى شريفا
واطلب رضا الاخوان

وانزل بيت كريم ان كنت ضيعا في العبور واسمع سؤال فقير
أودى به الحرمان

هذى نصيحة حر قد جرب الدهر الجسور ان كان يعجب هدا
أولا فخذ بيان

فالبحر بحر لال ان قللت زانت نحور والفكر فكر ذكى
لا يعرف النسيان

فأعرض عن كان وكان عجزا منه وقال : هات فخرا على قد :

يا صبا نجد ورامه	هجت للمتاق وجدا
كل صب في غرامه	ما اشتكى في الليل سهدا
عنفوني عذبوني	ذقت في التعذيب شهدا
والهوى أحرق ضرامه	كل أحشائي وقلبي

فقلت :

فخر مثلى في بيانه	والغبي يفخر بجماله
والأدب أحسن صفاتي	فالذكي حسنو كماله
والليب يظهر بعلمو	والغلام مجده جماله
كل قول المرء يغنى	غير محمود المآثر

فقال :

فخر مثلى في نكايت	تضحك الشيخ العبوس.
ألحس المعنى برجلي	واشرب القول بالكؤوس.
لا تلم من قال حظي	وائتناسي بالفلوس.
لا تقل زيد وعمرو	ليس في النحو مفاخر

فقلت :

الفلس حفظ المفلس والجعيدى والحرامى
والعلوم روض الأكابر لطفها فى العقل نامى
والمضاحك والمساخر ما لها دخل فى كلامى
كل مضحك بين قومو مسخره للمجد خاسر

فقال :

ساعة الحظ وحيدته عند محبوب وحان
لا أبالى يوم أنسى بالمعانى والبيان
منتهى قصدى فلوسى تملأ البيت بالأوان
ان كيسى ان كيسى مجمع الدنيا ولآخر

فقلت :

كل ما فى الكيس يفارق يا دؤود واسمع وفكر
والفخار والمجد كتوا فى العلوم فاطلب وبكر
وان تكن شيخ حق عالم فامش بين الناس وذكر
تجى كل الناس بعلمك بل ترى المجموع شاكر
واستمر النديم يساجلهم فى كل فن حتى عجزوا جسيما
فانطلق وحده ينشد الفنون الصعبة مدة طويلة ، ويستمر النديم
فيقول :

« ثم عدنا للزجل المعتاد بما يطول ذكره ، فان الشيخ رمضان
كتب من زجل هذا المجلس خمسة كراريس ، وكله محفوظ
عندنا لم يضع منه شيء ، وقد استمرت هذه المناظرة ثلاث
ساعات ... »

« ولقد عدل المرحوم شاهين باشا عن ضرب الأدبية . وأعطاهم خمسة جنيهات . وقد شهد هذا المجلس عدد لا يحصى وناهيك بمجلس يعقد في الشارع في المولد الكبير . وقد قلّبتنا فيه أوزان الزجل وتكلمنا في فنون الشعر الثمانية ، مع الاسهاب في القول . وكنا اذا دخلنا في باب الزجل العادى يتكاثر على جميع الأدبية بسرعة غريبة ، ومع ذلك فاني لم أقف معهم في شيء . وكانت الشروط أن من تنحج وبلغ ريقه أو سكت بعد فراغ صاحبه عُدَّ مغلوبا . وقد تناقل الناس هذا المجلس وما قيل فيه حتى بلغ حد التواتر وحفظ بعض الشعراء كثيرا من أحماله الأدبية » .

وفي مجلس شاهين باشا تعرف النديم على تتونجى بك ، وكان من الحاشية الخديوية ، ذا غنى ويسار ، فأعجب به وعينه وكيلا لدائرته .

هيأت له الوظيفة الجديدة فرصة التردد على القاهرة ليقابل موكله هناك . وأمنت صلته بشاهين باشا — صاحب الخطوة . لدى الخديو اسماعيل — وعمله لدى تتونجى — صنيعة القصر وصاحب النفوذ فيه — خوفه من خليل أغا أن يلحقه بأذى . ورفعت الوظيفة روحه المعنوية وأعادت اليه شعوره بكرامة الموظف الذى يكسب قوته بعمله .

بدء الانطلاق

وما ان عاد النديم الى القاهرة حتى عاوده الحنين الى مجلس أستاذه جمال الدين في « مقهى البوسطة » فكان يأخذ مكانه منه كلما جاء الى القاهرة . ولكنه وجد الحديث في مجلس أستاذه غير الحديث والرواد غير الرواد الذين عهدهم من قبل . لقد ترك أستاذه وهو يقرأ كتب العلم ويشرحها ويفيض في الحديث عن الاصلاح الدينى كأساس للاصلاح السياسى والاجتماعى ، ويعلم تلاميذه الخطابة ويحملهم على التحرير وانشاء المقالات الأدبية والعلمية فى موضوعات مختلفة « لا تخرج جامعتها عن اصلاح الأفكار وتهذيب الأخلاق » . وترك الرواد وهم مبهورون بعلم الشيخ وطريقة شرحه ، تتعلق به العيون وتعجب بطلاقة القلوب ، وهو يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال .

وعاد النديم فوجد حديث شيخه قد تغير واتجه اتجاها آخر . وجده يتحدث عن الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والتدخل الأجنبى والتحرر من كل ذلك ، ويتناقش مع مريديه حول الحكومات الشرقية واستبدادها والحكومات الغربية وتحررها ، والتكتل الشعبى وتكوين رأى العام وتنظيمه والمقاومة الشعبية . مصطلحات لم يعرفها قاموس المصرين فى ذلك الوقت ، فقد كانوا « ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق

نه ان يبيديه فى ادارة بلاده ، أو ارادة يتقدم بها الى عمل من
تأعسل يرى فيه صلاحا لأمة ، ولا يعلمون من علاقة بينهم
وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم به
وتضربه عليهم .

عاد فوجد شيخه لا يقصر حديثه على الخاصة ، بل يقرب
إليه أنعامه ليتكون فيهم رأى قوى وجهة وطنية شعبية . كانوا
يرتادون مجلسه ، فيتبنون من حديثه سوء حال أمتهم ،
ويتفهمون مواضع يؤسهم ، ويتبصرون بأسباب الفقر والذلة ،
ويصسون على أن يخرجوا من الظلمات الى النور ، وأن يتحرروا
من العبودية للحاكم ، ويفهموا موقفهم منه وموقفه منهم ، وكان
ينفث فيهم الشجاعة كيلا يخافوا بأسه ، فليست قوته الا بهم ،
ولا غناه الا منهم ، فيقول لهم فيما يقول : « انكم معاصر المصريين
قد نشأتم فى الاستعباد وريتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت
عليكم القرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون
عبء نير الفاتحين وتعنون لوطاة الغزاة الظالمين ، تسومكم
حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم
صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم التى تجمعت
بما يتحلب من عرق جياهمكم بالقرعة والسوط وأنتم صامتون ،
فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية وفى رؤوسكم أعصاب
تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة
ولما صبرتم على هذه الضعة والحمول ، ولما قعدتم على الرضاء
وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان

والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيين والمساليك
والعلويين — وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويبيض عظامكم
بأداة تسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة ، لا حس لكم
ولا صوت . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة
ومشاهد سيوة وحصون دمياط ، فهي شاهد بمنعة آبائكم وعزة
أجدادكم . هبوا من غفلتكم . اصحوا من سكرتكم ، انفضوا
عنكم غبار الغباوة والحمول ، عيشوا كباقي الأمم أحرارا سعداء
أو موتوا مأجورين شهداء » ^(١) .

ثم يوجه حديثه الى الفلاحين فيقول :

« عجبت لك أيها الفلاح ، تشق الأرض بفأسك باحثا عن
رزقك . لماذا لا تشق بهذا الفأس صدور ظالميك ؟ » .

ويتطلع النديم الى وجوه اخوانه من رواد المجلس فيجدها
قد تغيرت . لقد مانت عليها الابتسامات وارتسم عليها التحفز
والعمل ، يتناولون بأعناقهم الى ما يقوله شيخهم مشرئين اليه
يجهرون بالشكوى مما آلت اليه البلاد ، ويظهرون الخوف على
الوطن ان طال حكم اسماعيل . فيفكر فريق منهم في خاله ،
وفريق يدبر قتله .

ولا يلبث النديم أن ينتظم في عقدهم مرة أخرى ، فيصبيه
ما أصابهم ، وتمس كلمات الشيخ قلبه وكأنها جمرات تكوى بها

(١) سليم العنجوري (سحر هاروت) : محمد رشيد رضا تاريخ الأستاذ

الامام ج ١ ص ٤٦/٤٧ .

عواطفه فتشتعل ، أو سياط تمزق ثياب الغفلة عنه وغشاوة الظلمة من حوله فيفيق ، أو مفتاح الكهرباء يصل تيار الحمية والاندفاع بعقله ومشاعره فتوقظها وتثيرها . ويجد في نفسه كما يجد زملائه في نفوسهم ، بعد سماع خطب « السيد » وحديثه ، أن الواحد منهم جدير باصلاح مديرية أو اصلاح مملكة^(١) .

وانضم النديم الى المحفل الماسوني الذي أنشأه أستاذه .
وحين نظمت شعبة - فريق يدرس الوزارات ومصالحها ويتعرف مايقع فيها من الظلم ، ووجوه الاصلاح . وفريق ينشئ الصحافة ويمدها بالمقالات ، وثالث للدعاية بين الناس يبصرونهم بمبادئ الشيخ ويخرجونهم من ظلمات العبودية الى نور الحرية - كان نصيب النديم في هذا التنظيم أن يتخذ الاسكندرية مقرا لدعايته ونشاطه ، ويبصر الناس بمبادئ حزب الاصلاح ، ويساعد في تحرير صحف المحفل « مصر » و « التجارة »^(٢) ، فصدع النديم بالأمر ، وعاد الى الاسكندرية في أوائل سنة ١٨٧٩ .

(١) المتار ج ٨ ص ٧١٠ .

(٢) رأس تحريرهما أديب أسحاف وسليم النقاش .

أحلك فترات الظلام

لو أننا عقدنا مقارنة بين الحقب المظلمة التي مرت بالمصريين ، على كثرتها ، لوجدنا حكم اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) أحلك فترات الظلام وهي الفترة التي عاشها النديم صيبا وشابا ورجلا .

وتاريخ اسماعيل على كثرة المؤرخين له لم يكتب كاملا في مصر ، لا قبل ثورة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ ولا بعدها . لم يكتب قبلها ، لأن الأقلام - فيما عدا النادر منها - أجبرت على الصمت الا اذا أرضت الحاكم ، فقلبت الحقائق وشوهت التاريخ . ولم يكتب بعدها ، لأن الأقلام حين انطلقت ، كان كثير من الحقائق عن هذه الحقبة قد اختفى أو نسي ، ولم يكن أمامها من المصادر التي تستقى منها مادتها سوى المستندات الرسمية ، أو الكتب الأجنبية الذائعة الصيت لشهرة مؤلفيها ، أو الكتب العربية التي زيفت الحقيقة .

والوثائق الرسمية في عهد اسماعيل لا تصلح مستندا للتاريخ فقد كان اسماعيل يحجو ما يشاء منها ويثبت ، وعنده القدرة على التزييف ، وكثيرا ما فعل .

والمشهورون من الكتاب الأجانب انما يكتبون عن هذه الحقبة لأنها تخدم غرضا شخصيا أو تخدم الدولة التي ينتمون اليها .

وليس من شك فى أن حقائق كثيرة عن اسماعيل وحكمه ضاعت مع الزمن ، ولا سبيل الى بعضها الا بالبحث فى الكتب التى ألفها أولئك المغامرون من الأجانب الذين استقدمهم اسماعيل وبذل فى استقدامهم جهده وماله ، ليظهره بمظهر المتمدين .

كان هؤلاء موضع أسراره ، وأداته فى تحقيق أغراضه ومشروعاته ، ووكلاءه فى أوروبا وفى الآستانة ، فعرفوا عنه كل شئ ، عرفوا الحقيقة كلها ، سرها وعلنها .

وأكثرهم ، بعد خلع اسماعيل ، استنفدوا الغرض من إقامتهم بمصر ، فعادوا الى بلادهم . وكتب كثير منهم كتباً ومقالات أودعوها هذه الأسرار والحقائق . وكانت الكتابة عن الأمير الشرقى اسماعيل وأخبار أسرافه وألوان متعه ومغامراته فى أوروبا وجبروته فى مصر ، تأخذ فى أذهان الأوربيين وقتذاك طابع قصص «ألف ليلة وليلة» . ومع الزمن اندثرت هذه الكتب وتلك الصحف وأودعت المكتبات الوطنية فى أوروبا ، واندثر معها جزء من الأحداث لتاريخنا ووضع معها على الرفوف .



لم تطبق القاعدة المشهورة التى تروى عن لويس الرابع عشر بتمامها فى زمن كما طبقت فى عهد اسماعيل . فقد كان الرجل هو الدولة يتصرف فى أرواح رعاياه وأملاكهم ، فيسعد من يشاء منهم ويشقى من يشاء بغير حساب ، يرجع اليه فى كل صغيرة وكبيرة من أمور الدولة . مشيئته أمر ، ورغبته قانون .

يطاع طاعة عمياء ، وليس هناك من يعصاه ليموت خنقا أو غرقا أو مسموما أو مطعوناً بخنجر من أتباعه وحاشيته .

كان الجشع وجنون العظمة والاسراف ، التي أصيب بها اسماعيل تدع الذين حوله من بطائنه ، وعلى رأسهم اسماعيل صديق المفتش ونوبار باشا ، يفكرون في مصادر لاثرائه ، فذكروه بما فعل جده محمد على من مصادرة الأراضي وجعلها جميعا ملكا خاصا للوالى ، فاعتزم أن يقتنى ذلك الأثر . غير أنه لم يصادر الأراضي مصادرة علنية — كما فعل جده — بل اتخذ طريق الارهاب والضغط حتى تصبح الأراضي التي يريد اغتصابها عالية وعبئا على أصحابها ، وتضيق الدنيا في وجوههم ، فيفروا تاركين الأرض ومن عليها ، أو يبيعوها له بثمن بخس زهيد ، وقد حصل بهذه الطريقة على خمس (١/٥) أراضى مصر الصالحة للزراعة .

وأذكوا فيه صفات الاستبداد والقسوة والاستغلال الكامنة فيه ، فضاعف الضرائب على المصريين ، وزاد من عددها ، وصار يعتصر الفلاحين والأهالى ليمتص دماءهم ، مستعملا ألوان التعذيب في سبيل الحصول على المال ، وقد قدر ما كلفتهم سنوات حكمه الست عشرة بنحو ٤٠٠ مليون جنيه هى مقدار ما ادخروه في سنى الرخاء ، وقد جردهم منها اسماعيل ، ونحو ٢٠ مليونا ديونا عليهم للمرايين الأروام والمالطيين ، استدانوها ليتقوا بها سياط الجلادين .

ودلوه على الطريق الذى سلكه من قبله سلفه سعيد^(١)، وهو الاستدانة من أوروبا، فأوغل فيه حتى وصل بمصر الى قاع الهاوية . وبلغ ما استدانته ٩٦ مليوناً من الجنيهات .

ومن فضول القول أن ثبت كيف استعبدت اسماعيل شهوة جمع المال ، بجمعه من المصريين قهراً وقسراً يتفنن فى وسائل تعذيب لبيتز المال منهم ليبدده يمينا وشمالا على ملاذه وحماقاته فى بناء القصور واقتناء التحف ، ومغامراته النسائية فى أوروبا ، والسفه فى اقامة الحفلات للوك أوروبا وعظماؤها ، وفى المضاربات 'الخرقاء' . وفى الرشوة للحصول على لقب « الخديوية » ، أو تغيير نظام وراثتها لدى السلطان التركى .

على أن الذى رآه « النديم » أثناء تجواله فى قرى الصعيد والوجه البحرى فى رحلته الأولى والثانية وسجله فى مذكراته التى سماها « تاريخ مصر فى هذا العصر »^(٢) ، وفى جريدته « الطائف » تحت عنوان « مصر واسماعيل باشا » يعتبر كشفا تاريخيا ، لأنه صورة شاهد عيان ، فصلت الملامح وكشفت عن الحقائق التى تدمغ اسماعيل بالتوحش وتسلبه صفة الانسانية ، فقد كان يستمتع بامتصاص دم ضحاياه قطرة قطرة حتى تصبح عظاما فخرة . حقائق لم يجزؤ أن يذكرها المؤرخون العرب

(١) بلغ ما استدانته سعيد ٣ ملايين من الجنيهات .

(٢) ظلت مخطوطة حتى حققها الدكتور محمد أحمد خلف الله تحت عنوان عبد الله النديم ومذكراته السياسية عام ١٩٥٦ .

وقتذاك ، أو يصل اليها الذين كتبوا من الافرنج ، وليس راء
كمن سمع .

يقول « النديم » فيما كتب : « كان الحديو غارقا في لذاته
سائرا وراء شهواته ، لا يرفع الا الأراذل ، ولا يقرب الا
الأسافل . ثم حملة جشعه على زيادة الطمع ، فأرسل الى
الأنحاء كل صخرى الفؤاد وحشى الأخلاق وفي الأصل ردىء
المنبت سىء التربية خبيث الطبع لايرعى حرمة للانسانية ولا حقا
للدين ولا ذمة للأخلاق . أرسل عككوش وعمر لطفى وسلطان
لاكره الأهالى على تسليم الأطيان ، فاغتصبوا له تقاتيش
الصعيد ... ثم استعمل حسن راسم على الأقاليم البحرية ، ليتم
الخراب ويعمم الرزية ، فاستخلصوا له تقاتيش الوجه البحرى
... وكان العربون السلب وبقية الثمن الضرب ، ثم أخذ في بناء
السرايات وحشوها بالمحسنات ، واخترع من الأقلام ما لا
تصوره الأوهام . وكانت نحو ستة ومبعين جنسا تحتها أنواع
كثيرة لا تدع صغيرة من المظالم ولا كبيرة .

« وأخذ يبيع الرتب يبيع القماش الى الأوغاد والأوباش ،
ويستعملهم فى الأحكام ، وهم لا يعرفون ما خطت الأقلام .
كل هذا ومعدة ظلمه تهضم الحديد وجهنم أطماعه تقول هل من
مزيد » ...

وكتب فى جريدة الطائف ^(١) يقول :

(١) الطائف ٤/٢٩ ، ٦/١٨٨٢ .

» وكانت طرق تحصيل الضرائب تتسعر لها الأبدان ، قوامها
الاذلال والاهانة والايالام . فادا هبط المأمور قرية للاشراف على
تحصيل الضرائب طلب سكانها واحدا بعد واحد ، فمن دفع
نجا من عذاب أليم ولا يناله الا بعض السياط ليشبع نهم المأمور
تلذرب ، ومن قصرت يده ألقاه القواصة على الأرض وقطعوا
هابه بالسياط ، فاذا نجا من الموت أودع السجن ...

» وقد شاهدت القواصين وجباة الضرائب يعترضون سير
جنازة فى أحد الشوارع ، ثم تقدم كبير القواصين وأمر بانزال
النعش من فوق أكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبة التى كانت
مستحقة على الميت . وصاح المشيعون : لعنة الله على الخديو
فى كل كتاب . وأخيرا دفعت الشهامة أحد المشيعين فأعطاهم
الضريبة ، وكانت ستة قروش .

» وقد رأيت ألوفا من الأهالى جعوا من كل المديرىات لحفر
رياح الخطاطبة كى يسقى مزارع الخديو ، وكان البرنس حسين
باشا مفتشا للوجه البحرى . مر القواص على جواده معلنا أن
البرنس سيفاجئهم للتفتيش ، فهرع الملاحظون الى قطع الأغصان
الغليظة من الأشجار ونزلوا بها على جسوم الفعلة العارية ، فلا
تسمع الا الأناث والصراخ والنحيب ، ولا يظهر من هذه
الأجسام الملطخة بالطين سوى مواضع السياط . وكلما مر
البرنس على مدير ورأى الأتقار تقع على الصخور وتغرق
فى الوحل وتضرب على الوجوه قال للمدير « أفرين أفرين »
(برافو برافو) . فما انتهت زيارته الا وعدد الموتى قد بلغ

الثلاثين بين مضروب بالسياط وغريق في الوحل . ورأيت طفلاً يبلغ من العمر ٨ أو ٩ سنوات قد وقف على الجسر في الطريق يتفرج على موكب المفتش ، فتناوله أحد السواس من يده وألقاه في التربة فمات لوقته ، فتبسم المفتش لذاك السائس استحساناً لفعله ...

وكان البرنس حسين هو وأبوه اسماعيل يطربهما أنين الضحايا وتأوههم ، ويسعدهما منظر القتل والتعذيب ^(١) ... « كانت البلاد على سعة أطرافها كليمان أعد للذين ، ومجلس جزاء هيبء لأرباب الجرائم والخطئين . ولو أن سائحا جوياء صعد في درجات الهواء الى حد يرى ويسمع من تحته من أهالى الديار المصرية اذ ذاك لرأى أمة تتقلب على جبر العذاب على غاية من الاختلاط والاختباط تتحرك تحرك الدود على غير نظام وتسمع ضجة عامة وصيحة صاخبة تزعج السامع وتستنفر الهاجع وتقت قلب من أودع ذرة من الاحساس الانسانى ، وما هى الا مزيج نفثات تقذف بها الصدور الموقدة والقلوب المكبته فتصعد بها الأنفاس المحترقة ^(٢) » ...



قد تصيينا الدهشة ويتولانا العجب من آباءنا الذين عاصروا اسماعيل وهم يتقبلون كل ذلك فى صمت المغلوب على أمره

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

واستسلام المربوط بقدره ، لا يعرفون الثورة على ظلم أصابهم ، ولا الاعتراض على اجحاف ألم بهم ، بل يمتثلون له امتثال العبيد الى مصائرهم في ذلة وامتهان ، وكأن قلوبهم فارغة ولا نخوة فيها ، وأحاسيسهم مشلولة لا تحس ألم الذلة والعبودية .

والواقع أنهم كانوا كذلك ، مشلولة أحاسيسهم من يوم أن جاءهم الاستبداد باسم الدين افتراء وكذبا ، مرة على يد الفاطميين وثانية على يد الفرس وأخرى على يد الأتراك ، وامتثلوا لظلم الحاكم واستعباده من يوم أن خلعوا بأن استكاثتهم هربهم الى الله . خلعهم تجار الأديان من العلماء الأديعاء ، فبثوا في أذهانهم خطأ « أن طاعة الحاكم — مهما ظلم — من طاعة الله ، وأن كل شيء بقضاء وقدر ^(١) » .

وهذا الاعتقاد الخاطئ الذي أذل الأمة باسم الدين افتراء عليه كان أول ما أعلنت دعوة التحرير التي تزعمها حزب الإصلاح الحرب عليه وجعلت هدفه هدفا من أهدافها ، فبين دعايتها من العلماء للناس أن ما أصابهم من الوهن والضعف والذل إنما مرده الى عدم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، ووجهوا همتهم الى تنبيه الأمة الى معرفة حقها على الحاكم ، فدعوا الى الاعتقاد بأن الحاكم ، وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين

(1) Coan. Egypt Under Ismail p. 113

يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن الخطأ ولا يقف طغيان
شهوته الا نصح الأمة له بالقول والعمل .

وأخذت الغشاوة تنقشع عن القلوب وتسترد النفوس
شجاعتها حين تدخلت الدول الأجنبية في شئون الأمة ، وأصبح
أمر البلاد مرة بيد الرقابة الثنائية وأخرى بيد لجنة التحقيق
الأوربية العليا . وجاءت ثلاثة الأكتاف بإنشاء الوزارة المختلطة
وتعيين وزيرين أحدهما انجليزى والآخر فرنسى . يصرفان
شئون الدولة ويخضع الوزراء المصريون لأوامرهما .

لم تعد خدعة العلماء السابقة تجوز على الناس ، فظلم
الحاكم وهو مسلم يمكن خداع الناس به ، ولكن ظلم الحاكم
وهو غير مسلم لا يمكن تعليله بالدين .

وظهر الأثر سريعا في النفوس ، فكانت أول معارضه في
مجلس شورى النواب للحكومة تأخذ صورة جدية . وتظاهر
الضباط وهاجموا نظارة المالية احتجاجا على السياسة المالية ،
 واجتمع الأعيان بدار السيد البكرى ووضعوا اللائحة الوطنية
وحضر مشايخ البلاد يطالبون وزير المالية الانجليزى بتخفيض
الضرائب وتحديد مواعيد ثابتة لتحصيلها .

وفجأة اكتشف الشعب نفسه ، وأحس ما فيه من قوة
تستطيع أن تقف الظالم وتطالب بالحقوق ، اذا كان لديه « رأى
عام » .

رسول الدعوة

حتى أواخر عام ١٨٧٨ لم يقم النديم بعمل يمكن اعتباره إيجابيا في المجتمع ، فقد أمضى معظم شبابه وصباه يطلب العلم فترة ويكافح في سبيل العيش سنوات ، وهو في كل ذلك مسوق بموهبته الأدبية تستنفد من وقته وجهده وتفكيره الشيء الكثير .

واذا بدا النديم يدور حول نفسه في هذه الفترة ويلف في محور حياته الخاصة شأن أقران عصره من ذوى النفوس الحرة فقد يعتذر لهم بأن استبداد اسماعيل لم يترك فرصة لأحد في العمل الاصلاحى . وحياة النديم نفسها لم تكن سهلة يأتيه رزقه رغدا ، بل كان عليه أن يواجه صعوبات الكفاح في سبيل الحياة ، وخاصة أن بضاعة الأدب وقتذاك لم يكن لها سوق رائجة ، فان أطعمته يوما نزيلا عند أحد الوجهاء تركته خاوى البطن خالى الوفاض أياما .

ثم كان لقاءه الأول بجمال الدين ، فكان أكبر حادث في حياته . اكتشف فيه أستاذه طاقات كبرى للعمل الوطنى الأكبر الذى يعد حزبه للسير فيه .

وكانت الفترة بين اللقاء الأول والثانى — بعد أن تحركت فيه أوتار الاستعداد واتصل به تيار القوة الروحية من جمال الدين — هى فترة الاعداد والتشبع ومرحلة الحضانة وشحن

العواطف ، فكان كما يقول : يقضى وقته مفكرا فى أعمال
الحكام التى تجلب المقت ، ويدون فى مذكراته كثيرا من
الحوادث ، ويثبت الوقائع والفظائع التى كانت تمر به ^(١) .
وأقامه اللقاء الثانى على جادة الطريق فأخرجه من السلبية الى
الايجابية ومن حياته النظرية الى طبيعته العملية ، وعزز فيه
ثقته بنفسه التى لا غنى عنها لمن ينصب نفسه لعظائم الأمور
ويستهدف الغاية البعيدة والمطلب العصيب .

وصل النديم الى الاسكندرية فى أوائل عام ١٨٧٩ ، جاء
اليها شخصا آخر غير الذى فارقتها بالأمس . فهو الآن فى
الخامسة والثلاثين من عمره ، يجر وراءه رصيда ضخما من
الخبرة والتجربة ، اكتسبه من حياته التى تنقلت به من النعيم
الى الحرمان ومن معاشرة العظماء والأمراء الى مصاحبة العامة
والفقراء . وفوق ذلك فهو رسول دعوة تهدف الى انقاذ الوطن
من الوقوع فى أيدي الاستعمار ، وتخليصه من الظلم
والاستبداد ، وتوفير الأمن والعدالة للجميع .

ولم يكن هو وحده الذى تغير ، فقد تغيرت الاسكندرية
كذلك ، لم تعد تدور مناقشات مجالسها حول فكاهة أديب أو
قصيدة شاعر أو طرفة زجال ، بل كان محور المناقشات العلنية
ما تكتبه الصحف من مقارنات بين مصر وغيرها من الأمم ، ومن
سوء الأحوال المالية للبلاد ، وما يستتبع ذلك من مطامع أوربا

(١) انظر تاريخ مصر ص ٤٩ .

فى الشرق وواجب المصرىين خاصة والشرقىين عامة نحو
المستعمرىين . وكانت كتاباتها يقف بها الخوف عند ذلك فلم تكن
اتمس اسماعىل .

ثم ىدور الهمس فى المجالس الخاصة حول ضىق الشعب
باسماعيل وكره الناس له والأمل فى اصلاح الحال على ىد ابنه
« توفىق » الذى عقدت أواصر الصداقة بىنه وىبن أنصار حزب
الاصلاح وقطع على نفسه عهدا باصلاح ىشمل نظام الحكم
وىقضى على عوامل الانحلال والفوضى فى البلاد ، وىوقف زحف
الاستعمار تحت ستار حماىة مصالح الدائىن .

وكان على « الندىم » أن ىعمل فى حذر ، « فعىون اسماعىل
فى كل مكان ، وهو لا تأخذہ رآفة ولا رحمة بمصرى ىرفع راية
العصىان » . وأخذ ىتكشف أجواء الاسكندرىة وىاراتها ،
فوجد الشىباب ىنتظم فى الجمعىات السرىة التى تهدف الى قلب
نظام الحكم الاستبدادى فى البلاد .

وبدا ىتصل بأصدقائه المخلصىين الذىن ىعرف فىهم صدق
الوطنىة ، فوجد اثنىن منهم ىعملان فى جمعىة « مصر الفتاة »
السرىة : محمد أمىن نائب رئىسها ، ومحمود واصف كاتم
أسرارها . وعن طرىقهما اتصل الندىم بالجمعىة ، وانضم الىها ،
وتعرف على أكثر أعضائها .

و « مصر الفتاة »^(١) جمعية سرية أنشأها ليف من الشباب المتحمس على غرار « تركيا الفتاة » التي أنشأها مدحت باشا بتركيا لتناوى دكتاتورية السلطان عبد العزيز وتطالب بالدستور .

واستهدف الشباب المصرى من جمعيتهم « القضاء على دكتاتورية اسماعيل واستبداده والعمل على خلع أو قتله والمطالبة بالحكم الشورى والدعوة الى الاصلاح العام » . وكانت منشورات الجمعية ودعوتها تلقى الرعب فى قلب اسماعيل ، فأخذ جواسيسه يترصدون أعضائها فى كل مكان ، محاولين كشف أمرهم لينزلوا بهم بطش اسماعيل جزاء جرأتهم عليه .

ولم يطل انتظام النديم فى عضوية « مصر الفتاة » ، فالعمل فى الظلام والسرية وحياسة المؤامرات لا تتفق وطبيعته الشعبية التى تؤثر فى الشعب وتؤثر به . ومن ناحية أخرى كان يرى أن الجمعيات السرية مقصور عملها على أفراد قلائل ، ونشاطها لا يتعدى محيطا ضيقا ، ويخشى عليها — اذا كشف أمرها — غوائل الحكومة فى ذلك العهد ، عهد البطش والاستبداد ، بينما هو يؤمن بأن الطريق السليم للاصلاح هو تنبيه الرأى العام وتبصير الشعب بما يدور حوله ، فتتسع الدائرة ، ويصبح

(١) ذكر من أعضاء هذه الجمعية جمال الدين الافغانى وأديب اسحاق وسليم النعاش ونقولا توما وعبد الله النديم وذكر الشيخ محمد عبده أن الجمعية أغلب أعضائها من الشبان اليهود : تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٧٥ .

العمل جماعيا من الأمة ، ومن ثم لا يستطيع ظلم أن يقف في الطريق ، ولا استبداد أن يمنع التيار .

أخذ النديم يناقش أعضاء « مصر الفتاة » ويحاول اقناعهم بتحويلها الى جمعية علنية تعمل للإصلاح في وضع النهار ، ولكن الخوف من اسماعيل كان قد تمكن من القلوب « فكان كلما نبه عاقلا أسكته ، فاذا ألح عليه أثبته وبكثته . فأخذ ينكر على أهل البلاد وقوفهم تحت ردم الاستبداد » .

اتفصل النديم عن الجمعية ، وبدأ يسير في طريق الإصلاح الذي يوافق استعداده وفطرته ، وهو تكوين عصبية من أصحاب المصالح الحقيقية في الأمة ، وهم سواد الشعب من الفقراء ، وتكوين رأى عام يقف في وجه الظلم والاستبداد ، « فلم أجد طريقا لتبنيه الوجهاء والأمراء ، الا بعصبية أكونها من الفقراء » .

وواتته الفرصة ليعلن في الناس دعوته ، فصحيفة « مصر » الأسبوعية التي أنشئت بالقاهرة سنة ١٨٧٧ لتكون لسان حال الدين وحزبه الإصلاحى ومتنفسا لأقلام أنصاره وحواريه ، يدونها بأرائهم ومقالاتهم ويعولونها بأموالهم ^(١) انتقلت سنة ١٨٧٨ الى الاسكندرية ، وهى وقتذاك العاصمة التجارية والصحية . وساعد جمال الدين وتلاميذه رئيس تحريرها أديب اسحاق على اصدار جريدة يومية أخرى بالاسكندرية سماها « التجارة » ^(٢) . وكان أديب يلزم مجلس جمال الدين ويراسل

(١) تاريخ مصر من ٥٢ .

(٢) مملوك في ١٨٧٨ بالاسكندرية .

الجريدتين من القاهرة وكان شريكه سليم النقاش يشرف على الطبع والنواحي الفنية ، فوكلا أمر تحريرهما الى النديم وفي ذلك يقول :

« ومن أتوا الى جمال الدين من الآفاق الكاتب المنشئ ،
« أديب افندى اسحق » فرآه فقير الحال لا يملك شيئا من المال ،
فساعده بنفسه وماله وفتح له جريدة مصر لسان حاله واجتمع
اليه أدباء مصر ، وكتبه العصر ، فزفئوا اليها من الآداب
ما تنورت به الأبواب .

وعندما انتقلت الى الاسكندرية . اجتمع (أديب) بى فى
جلسة أدبية وطلب منى أن يكون لى عبارة فى مصر والتجارة .
فالتزمت تحرير أغلبهما لكون مشربى من مشربهما ... (١) » .
وبدأ النديم يقدم أفكاره الاصلاحية للجمهور عن طريق
الصحافة ، واتخذ ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية مجالا
لمقالاته . فقد كان يرى أن الاصلاح السياسى يجب أن يصحبه
اصلاح اجتماعى ، ومن ثم لقيت مقالاته من النجاح ما لفت اليه
الأنظار . فقد وجدت صدى فى نفوس القراء اذ كانت تعبيراً
عما يعتل فى صدورهم من ثورة مكبوتة .

ولم يكن نجاح النديم الصحفى راجعا الى آرائه وأفكاره
وحدها ، بل شارك فى ذلك الأسلوب الذى عالج به مقالاته ،
فقد أدرك أن الكتابة الصحفية فى الموضوعات السياسية
والاجتماعية انما يناسبها أسلوب متدفق لا يقيده السجع أو

الصنعة ، لينسجم وحركات النفس الثائرة المتحمسة المنطلقة .
وأدرك أن الصحافة إنما تحتاج الى أسلوب سريع مرسل بعيد
عن الوشى والمحسنات اللفظية ، فترك النديم كتاباته الأدبية
البديعية — مع ما كانت تبدو عليه من أنها طبيعية غير متكلفة —
وأخذ يكتب مقالاته السياسية مرسلة تتفق وعواطف القراء
واقعالاتهم . « وأعجب القراء بمقالات النديم اعجابا شديدا
لطلاوتها وبلاغتها وبما فيها من وفاق وتلاؤم وخلوها من الصنعة
المتكلفة والركاكة التي كانت طراز هذه الأيام ، وبدأ الكتاب
يقتدون به في تحسين الانشاء ويقلدون كتاباته » (١) فكان
مرحلة الانتقال بين الكتابة البديعية والكتابة المنطلقة المرسلة .
وزادت شهرة النديم ، « وأخذت شمس حياته العامة تشرق ،
وبدأ دوره الايجابي في سبيل مصر والمصريين » .

وأحسن صاحبا الجريدتين اقبال القراء عليهما استحسانا
لأسلوب النديم وأفكاره ، فوكلا اليه تحرير معظم ما يكتب
فيهما . غير أنهما استغلا ولعه بالكتابة ورغبته في نشر أفكاره ،
« واستفادا من مقالاته مادة ومعنى ، فلم يؤجراه على كتاباته ،
وكثيرا ما ضنا عليه حتى بذكر اسمه في ذيل مقالاته ، بل يتركان
القراء يفهمون أنها لهما ومن انشائهما ، وكثيرا ما كانا ينسبانهما
لأنفسهما ويمهرانهما بامضاءيهما » (٢) .

(١) أحمد تيمور باشا : تراجم اعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع
عشر من ١٦ - ١٧ .
(٢) أحمد سمير : سلافة النديم ج ١ ص ٦ .

محور الدعوة

والى جانب نشاطه الصحفى أخذ النديم بروج لفكرة انشاء جمعيات فى القطر كله « تسعى فيما يعود على الوطن وأهله بالمنفعة الحقيقية » . وحتى ينتزع الخوف من القلوب أعلن أن ميدانها سيكون فى الأعمال المشروعة بعيدا عن السياسة ، وسيقتصر نشاطها على المحيط الثقافى والاجتماعى ، وبدأ بإنشاء أول جمعية فى الاسكندرية ولبى دعوته وانضم اليه — على تردد — بضعة أفراد من أهل الثغر ، وأخذت الصحف تنشر أخبار اجتماعاتهم التمهيدية ومشاوراتهم لتأليف الجمعية . ثم كان اجتماع التأسيس فى ١٨ أبريل ١٨٧٩ وحضره أحد عشر رجلا^(١) .

وفى هذا الاجتماع تقرر أن يطلق على الجمعية اسم : « الجمعية الخيرية الاسلامية » ، وأن يكون النديم نائب رئيسها^(٢) ، وأن يكون من أهدافها التعاون على فتح مدارس للبنين والبنات لجميع أبناء الشعب بالمجان للفقراء وبمصرفات

(١) منهم محمد أمين ، الدكتور حسن سرى ، محمد شكرى ، الحاج محمد الكيال الشيخ محبى الدين التبهان ، محمود واصف ، الشيخ على ضيف ، حسن المصرى ، عبد الجليل عمر شويط ، انظر التجارة ١٩/٤/١٨٧٩ .
(٢) ترك منصب الرئيس شافرا ليتولاه محافظ الثغر .

قليلة للقادرين ، وتقديم المعونات المالية للفقراء من أهل الاسكندرية ، ودعوة الناس الى الاجتماع على هيئة ندوات أسبوعية ليتباحثوا في العلوم الدينية والمعارف ولتزدوا بما يبعث الغيرة الوطنية في قلوبهم ويحببهم في جنسيتهم المصرية « (١)

وتحققت أمنية النديم وتكونت باكورة الجمعيات ، وكانت بذلك أول جمعية اسلامية تدعو الى التعاون في الخير من جهة . وإلى وصل الجمهور بشئون بلاده عن طريق البحث فيها من جهة أخرى .

وإذا نظرنا الى أوجه نشاط الجمعية الخيرية عرفنا الهدف الحقيقي الذي سعى اليه النديم من وراء انشائها رغم ما اتخذته من مظهر خيرى وتعليمى وأدبى أمام الحكومة . كان له منها هدف قريب وهدف بعيد : أما الهدف البعيد فهو نشر التعليم بين أبناء الأمة ، لينشأ جيل عدته العلم الصحيح والتربية الاجتماعية والوطنية الصالحة فينهض بالبلاد . ومن ثم نادى بانشاء المدارس على أن تكون ذات صبغة قومية يعنى فيها باللغة العربية وآدابها والأخلاق والتربية الوطنية والتاريخ المصرى والاسلامى والخطابة .

وأما الهدف القريب فهو دعوته الكبرى التى جاء من أجلها الى الاسكندرية . وقد حددتها النديم بأن الدعوة هى تنبيه

(١) صحيفة التجارة ١٩/٤/ ١٨٧٩ .

« الرأي العام » وإيقاظ الأفكار الخاملة والاتجاه الى الحرية
بوسيلة انشاء الجمعيات والمحافل الخطائية بالقطر كله ^(١) .
وأراد النديم من هذه المحافل أن تكون « مصبوغة بدم الغيرة
الوطنية ، تمحوفتور الانسانية ، كالراح تشرب للنشوة ، لا بل
كالسيف يقلد للسطوة ^(٢) » .

وأعلنت الصحف عن حفل افتتاح أولى مدارس الجمعية في
٨ يونية ١٨٧٩ وحضر الحفل كثير من أمراء العسكرية والملكية ،
والعلماء والوجهاء ، وخطب فيهم النديم خطبة الافتتاح ^(٣) بين
فيها « أن المدرسة تعلم الأطفال الأخوة في الوطن وتبعدهم عن
التعصب للدين أو العنصر وتنشئهم على الوطنية وحب
الانسانية » . ثم شرح لهم خطته في تحقيق الهدف الأكبر وهو
اقامة المحافل الخطائية لتبحث في الشؤون الوطنية وما آلت اليه
البلاد . ثم ختم خطابه معلنا أن « هذا الاحتفال سيكون تاريخا
لبعث الأرواح العربية ونشأة الغيرة الشرقية ، وهكذا يكون
الميل الذاتي للأنس بالنفع النوعي والمصلحة الوطنية ، فالأعضاء
شتى والنفس واحدة والعروق عدة والدم واحد والأفكار ان
تواعت فمرها لسان واحد » .

واقسم الجمهور — بعد سماع خطاب النديم — قسمين .

(١) تاريخ مصر في هذا العصر ص ٥٥ .

(٢) مصر ١٣ يونيه ١٨٧٩ .

(٣) وصف الحفل وخطاب الافتتاح نشر في مصر في ١٣ ، ٢٠ ، ٢٧ يونيه .

سنة ١٨٧٩ .

فريق أرهبهم الخوف لأن النديم تعرض لأمر خطيرة قد تؤدي بهم الى الهلاك فوجهوا اللوم اليه ، وفريق سمي خطبته سحرا ووصفه بأنه يعالج أدواء القلوب ويشحذ الأذهان وينبه العقول الحامدة ^(١) ، وأخذ الحماس أديب اسحاق ققام يعدح النديم على ما قاله ويشئ على الخطبة التي اتبعها ^(٢) .

وطلعت الصحف بخطاب النديم في صفحاتها الأولى وقلته حرقا ، وأصبحت فقراته حديث المجالس وصارت جرأة النديم فيه مثار عجب للجميع .

وكان النديم بذلك الخطاب « أول خطيب مصرى وقف بين الحكام الظلام وفتح فاه بالكلام في مكان عام » في وقت بلغ فيه الاستبداد أشده والظلم جاوز حده والطغيان في عنفوانه والقهر قابض على صولجانه ويد الظالم حديد والناس كلهم عبيد له أي عبيد .

واستقبلت مدرسة الجمعية تلاميذها من أولاد الفقراء والأغنياء على السواء تبث فيهم روح الأخوة والوطنية والتعاون ، وعين النديم مديرا لها فجعل نظامها على غرار المدارس الأجنبية ، غير أنه اتجه بها اتجاهها وطنيا ، وصبغها بالصبغة العربية ، واتدب لها فضلاء المعلمين من العرب والأجانب ، واختص نفسه بتدريس الانشاء والخطابة وعلوم

(١) مصر ١٢ يونيه ١٨٧٩ .

(٢) الرجوع السابق .

الأدب ، والتحق بها كثير من أبناء الثغر على اختلاف أديانهم وجنسياتهم (١) .

ولم يقصر التدبير رسالة المدرسة على الناحية التعليمية الصرفة ، بل خرج بها الى الحياة ، فكون من التلاميذ جماعات للخطابة ، والتمثيل ، والفنون ، والآداب ، وصار يدرّب التلاميذ على الخطابة ويقدمهم في المحافل ، فيتحدثون في الاتحاد والتعاون وحقيقة الانسان وحقوقه ، وكتب لهم تمثيلات نقدية قاموا بأدائها أمام الأمراء وأعيان البلاد منها : « الوطن طالع التوفيق » وتمثيلية أخرى باسم « النعمان » « وكان مراده من ذلك - كما يقول أحد مدرسي المدرسة (٢) - تدريبهم وتمارينهم على أساليب الخطابة والجدل من جهة ، وبث روح الغيرة والنخوة في أفكارهم من جهة أخرى ، ليتمكنوا اذا بلغوا مبلغ الرجال من أداء مقاصدهم بلا حياء ولا خجل ، لأن الأمة كانت لا تزال في أشد الحاجة الى ذلك ، بسبب ما قضى به ضغط الحكام السابقين على أذهانها من الجبن والخمول ، حتى ان أعظم عظيم في الدولة كان لا يقدر أن يحدث نفسه في سرير نومه بشيء من الإصلاح ، خوفا من الطيف أن ينم عليه .

وذاعت شهرة المدرسة في الأوساط التعليمية ، فقد كانت أول مدرسة خاصة في مصر لا تتعصب لدين أو جنس ، وان أنشأتها

(١) بلغ تعداد التلاميذ ٤٨٠ منهم ٢٠٣ ففراء وأيتام يتعلمون بالجان انظر التجارة ١٨٧٩/١/٢٢ ، التنكيت والتبكيك ١٨٨١/٧/١٧ من ٩٢ .
(٢) أحمد سمير مقدس اللغة العربية (سلافة التدبير ج ١ ص ٨) .

هيئة دينية ، وكانت مدارس الطوائف الدينية وقتذاك تقتصر على أبناء الطائفة ، أما مدارس الارساليات الأوربية فكانت تهدف الى أغراض سياسية وتبشيرية بين أبناء البلاد ، وقد يتبادر للذهن أن فتح مدرسة عمل هين سهل اذا قورن بما يحدث هذه الأيام ، ولكننا لو عرفنا أن ميزانية الحكومة وقتذاك كانت تعجز عن رصد اعتمادات لفتح مدارس جديدة ، وهى تفرح تحت أعباء الديون الأجنبية ، ولم يكن هناك سوى بضع مدارس فى القطر كله ، لعرفنا الجهد الذى بذله النديم ، والعمل الذى قدمه للدولة .

كان النديم يؤمن إيماناً راسخاً بأن خير وسيلة لتحقيق هدفه القريب والبعيد هو تكوين الجمعيات ، تنشئ المدارس فينتشر التعليم ، وتدعو الى التعاون والتضامن وتعمد محافل الخطابة تبادل فيها الرأى فيتكون « الرأى العام » .

وما ان استكملت « الجمعية الخيرية الاسلامية » مقومات النجاح حتى اجتمع النديم بفريق من الأقباط ودعاهم الى تكوين جمعية منهم ، تنظر فى شؤون الطائفة وتسير على نهج الجمعية الخيرية فى التعليم ، والدعوة الى التآلف والتعاون وتبادل الرأى ^(١) ، فاستجابوا لدعوته ، وتكونت « الجمعية الخيرية القبطية » على غرار « الجمعية الخيرية الاسلامية » ، واتفقت معها فى الغاية والهدف .

(١) تاريخ مصر ص ٥١ .

على مفترق الطرق

كان ذلك يحدث فى الاسكندرية ، بينما يدق حزب الاصلاح وعلى رأسه جمال الدين فى القاهرة المسامير الأخيرة فى نعش اسماعيل فقد اجتمع أقطاب الحزب وذهبوا الى شريف باشا وطلبوا اليه أن يقنع اسماعيل بالتنازل عن العرش لابنه توفيق . واتخذ وكلاء الدول الأجنبية من موافقة حزب الاصلاح وهو يضم النخبة المثقفة فى البلاد على خلع اسماعيل حجة عند حكوماتهم على موافقة الأمة ، وأجبر اسماعيل على التنازل فى . ١٨٧٩/٦/٢٢ .

فرح الناس بتولية توفيق ، وتفتحت آمالهم فى حياة أفضل واصلاح جذرى لأموهم ، فقد كان قبل توليته الخديوية يتودد الى أعضاء حزب الاصلاح ويعلن انضمامه تحت لوائه ، ويؤكد لجمال الدين كلما لقيه أن يعتمد عليه ، وأنه « كل أمل فى مصر » . لتحقيق برامج الاصلاح . ولكنه ما ان اعتلى العرش حتى وجد نفسه بين قوتين متضاربتين تشده كل منهما اليها :

قوة حزب الاصلاح ، وقد أخذ أعضاؤه يحثون توفيق على الوفاء بعهوده الدستورية . وقوة القناصل الأوربيين التى منعتهم من أن ينزل عن شئ من سلطته التى يريدون استغلالها باسمه ، وأدعن توفيق آخر الأمر للقناصل وقفض عهده شأن ولاه العهود حين يتولون السلطة ورفض أن يوقع قائمة الاصلاح التى تقدم بها اليه شريف باشا الذى لم يكن أمامه سوى الاستقالة .

واهتاج الرأى العام لاستقالة شريف ، ورأى فيها بوادر الخطر على آماله الدستورية التى عقدها على توفيق ، وكثر اللغط حول موقف الحديو وضعفه أمام قنصلى فرنسا وانجلترا . وأدخل القنصلان فى روع الحديو أن حزب الاصلاح يمثل مصدر خطر عليه ، وأنه سوف يآتمر به كما ائتمر بأبيه من قبل ، واتفقا معه على التخلص من رئيسه جمال الدين فقبض عليه فى ٢٦ رمضان ١٢٩٦ (أغسطس ١٨٧٩) ونفى من البلاد . واستغل القنصلان ضعف الحديو الجديد وصارا يلوحان له ويهددانه بمصير أبيه الذى لقيه حين رفض أن يتبع أوامرهاا المعطاة له فى صورة مشورة ولم يلبث توفيق حتى ألقى بنفسه بين أيديهما ، يصبان أوامرها فى أذنه ، فيصدرها مكسوة بكساء السلطة التشريعية .

وانقض عنه مؤيدوه من المواطنين ، بعد أن أصابهم فى آمالهم بخيبة كبرى . ولم يكن أمامه الا أن يسير فى الشوط حتى النهاية تحت سيطرة النفوذ الأجنبى الذى ساندته فى منصبه غنا لطاعته .

وحين أشير عليه بأن يعين مصطفى رياض رئيسا لوزرائه أبى وعارض ، فهو يعلم أن رياضاً من تلاميذ أبيه اسماعيل يحب الاستئثار بالحكم ولن يدع له من أمور السلطة شيئا . وذهبت معارضته سدى ، فأحس أنه يوشك أن يفقد السلطان بعد أن فقد تأييد الشعب . ولكنه كان قد اتخذ الطريق الذى لا خيار فيه ، وصدق على التعيين مرغما .

ومن أول يوم بدأ رياض يطبق مبادئ أستاذه اسماعيل .
ملطة مطلقة وحكم استبدادى . حرية لمن يتقرب اليه زلفى ،
وضرب بيد من حديد وتقى وسجن لمن ينقده أو يعارضه . غير
أن هذه السياسة لم تكن تطبق الا على المواطنين المصريين ، فان
واجه أولياء نعمته من أصحاب النفوذ الأجنبى فهو حمل وديع
وتابع أمين ، لا يرى بأسا من اغصاب الخديو واغصاب الأمة في
سبيل ارضائهم .

وسرت في النفوس هزة أسف عميقة ، وخاب فآل من كان
يلوح في قلبه شعاع من أمل في اصلاح البلاد .

ووقفت مصر في هذه الفترة على مفترق طريقين : فاما
خضوع واستسلام لتوفيق ورياض ، ومن خلفهما قوة القناصل
المحركة ، يستبدون بها ويستعيدون سيرة اسماعيل في اذلال
الأمة ، واما مقاومة للحكم المطلق ، وكفاح في سبيل حياة أفضل
تحت نظام الشورى . وقد جربت الأولى فقاست منها العذاب .
ولكن المقاومة والكفاح في حاجة الى « رأى عام » تنتظم فيه
البلاد . ومع أنها جربته على نطاق ضيق بين الطبقة المستنيرة
ابان حكم اسماعيل ، فقد أشعر الناس بقوتهم واستطاعتهم
الوقوف في وجه الظلم والمطالبة بحقوقهم ، يوم أن قامت
معارضة في مجلس شورى النواب ، ويوم أن هاجم الضباط
نظارة المالية واعتدوا على الوزير الانجليزى ، ويوم أن اجتمع
الأعيان في دار السيد البكرى ووضعوا اللائحة الوطنية .

وفي القاهرة أصبحت مجالس المدنيين والضباط تعقد في الحفاء ولا حديث لها الا ما صارت اليه البلاد .

وفي الاسكندرية أخذ النديم يتلفت حوله فلا يجد في الميدان أحدا من رفاق المعركة وزملاء الكفاح ، فقد نفى الرائد وزعيم الحزب ، وتفرق الأعضاء خوفا من بطش رياض ، واستكان منهم من أغرته الوظائف الحكومية ، وأصبح يدافع عن استبداد رياض ، وينادي بأن مصر في حاجة الى دكتاتور عادل ، وأن المصريين لم يصلوا الى المستوى الذي يمكن أن يحكموا به أنفسهم تحت لواء الشورى !!

لم يفزعه ذلك أو ينحرف به عن الطريق ، بل لعله زاده استمساكا بمبادئه وإيمانا بوطنه ومواطنيه ، بعد أن اعتدل الى الغاية التي ينوبها واستقام على الطريق اليها ، فلا انحراف بعد ذلك ولا احجام عنها حتى يصل الى متنهاها .

ورأى النديم أن الوقت قد حان لتنفيذ هدفه الثاني « غير مبال بتحذير الناس له وتخويفهم اياه » فأعلن عن اقامة محفل للخطابة في ساحة المدرسة ليلة الجمعة من كل أسبوع ، وافتتح أول محفل منها في ٢٢ أغسطس ١٨٧٩^(١) ، وصارت تغص ساحة المدرسة بالوافدين عليها وكان يزيد عددهم عن ٥٠٠ مستمع كل اجتماع^(٢) .

(١) التجارة ٢٣ أغسطس ١٨٧٩ .

(٢) الرجوع السابق .

وأحدثت المحافل هزة فكرية في الاسكندرية ، وفق ما قدره
النديم . فقد هرع الناس اليها يستمعون اليه بما لم يسمعه من
خطيب مصرى قبله وهو يخطبهم في فضل الجمعيات والمحافل
الخطابية والمجالس الأدبية والصحف السياسية والعلمية وكيف
تخلق الشعور الوطنى وتنبه الرأى العام ^(١) . ويوازن لهم بين
الشرق وأسباب تأخره والغرب وأسباب تقدمه ، في حديث
ظاهره الاصلاح الاجتماعى والثقافى غير أنه محشو بما ينبه
الآلئاب الى ما وصلت اليه البلاد من سوء الحال .

وفى خطبته المشهورة « مملكة الحيوان والانسان » ^(٢)
كان أكثر تصرُّحا وتوجيها ، وافصاحا عما يعنى من خطاباتة ،
اذ بدأها بقوله :

نادينا خطابات المعانى
تقدمها لأعيان البرايا
تأملها فتحت اللفظ معنى
لتعلم كم خبايا فى الزوايا

وتناول فيها سياسة الأمة ، غير أنه استعمل الأسلوب الرمضى
— حسبما فهمه وصوره له خياله — حتى ينبج من بطش رياض
فمثل بالحيوانات موقف الشعب وطوائفه ، واستئساد الخديو

(١) التجارة ١٥ سبتمبر ١٨٧٩ .

(٢) مصر ٢١ أكتوبر ١٨٧٩ .

وزرائه على المصريين من ناحية ، وضعفهم واستنواقتهم أمام القناصل من ناحية أخرى .

ودعا النديم الخطباء أن يدلوا بدلوهم في الدلاء ، وأن يشتركوا معه في تبصرة الشعب بمجريات الأمور ^(١) ، وأشرك النابغين من تلاميذ المدرستين الإسلامية والقبطية في الخطابة ^(٢) وصار يعد لهم الخطب لالقائها فخطبوا في الاتحاد والتعاون وحقيقة الناس ^(٣) .

ودعا النديم الى الاكثار من هذه المحافل وانشائها في جميع البلاد حتى ينال كل بلد حظه من الوعي والتعليم والقومية ^(٤) . وأخذت الصحف تنشر خطب النديم كاملة في صفحاتها الأولى ^(٥) وخلعت عليه كثيرا من الألقاب ، فدعته « خطيب الشرق » و « خادم الانسانية » و « محيي الوطنية » وسست محفله « سوق عكاظ » تارة و « معرض باريس للأدب » تارة أخرى ^(٦) . وفي كل مرة كانت تصف المحفل واقبال الجمهور عليه ، وكيف يسحر النديم مستمعيه ويأخذ بقلوبهم ويمتلك

(١) كان ممن يخطب في المحفل اديب اسحاق ، احمد سمير ، ابراهيم اللغاني ، احمد العوام وغيرهم ..
(٢) كان من الخطباء التلاميذ : مصطفى ماهر ، احمد فتحي زغلول ، وواصف سمكة ومرقص بيه .

(٣) انظر التجارة ١٨/١٠/١٨٧٩ .

(٤) انظر التجارة ٢٣/٨/١٨٧٩ .

(٥) انظر جريدة التجارة ٢٣/٨ ، ٦ ، ١٥ ، ١٢/١٢/١٨٧٩ مصر ٣١/١٠/١٨٧٩

(٦) التجارة ٢٣ اتمس ١٨٧٩ - المحروسة ٧ فبراير ١٨٨٠ .

عواطفهم ، « ويث في الأفئدة الضعيفة أنوار الحمية الوطنية ،
ويضرم في النفوس الهامدة نيران الغيرة والحرية ^(١) » .
والواقع أن خطب النديم كانت شيئا غير مألوف سماعه لدى
المصريين بعد أن كمن الاستبداد أفواههم قرونا طويلة ، وأصم
الظلم آذانهم عن سماع كلمة الوطنية حقبا ودهورا . فهفت
الأسماع اليه وهو يردد نغمات الحرية ويعزف قيثارها .
وأصبحت الاسكندرية ولا حديث لها الا خطب النديم
ومحافلها ، واجتذب المحفل اليه كبار القوم وسراة
الاسكندرية ^(٢) ، وانضم الى الجمعية كثيرون من أصحاب
النفوس المشتعلة بالوطنية ^(٣) .



حين وقع الشقاق بين الحديو ورئيس وزرائه نتيجة التنازع
على السلطان ، وتسابقا ، كلاهما ، في التقرب من السيد
الحقيقي ، السلطة الأجنبية ، كي تسنده ضد الآخر وتحصيه
منه . لم يجد الحديو فيها النصير فبدأ يتخذ سياسة التقرب

(١) التجارة ١٨٧١/٩/١ .

(٢) منهم : اسماعيل باشا يبرى ، مصطفى باشا العرب ، عبد الله باشا
سالم ، حسين واصف بك ، ومحافظ الاسكندرية ووكيل المحافظة ومأمور السبعية
ووكيل الحكمدار .

(٣) منهم : أحمد رسم بك العلالي ، أحمد نبيه ، محمد باشا النانسورى ،
محمد بك العدل ، عبد القادر بك الغريانى ، سعد الله حلاية ، أمين العلالي ،
على بك حسن ، محمد منيب ، السيد بيد القادر ، عمرة ، السيد عبد الرحمن
حمادة .

الى الشعب مرة أخرى ، لعله يستعيد ثقته فيه فينصره على رياض ويقوى مركزه أمامه بعد أن فقد سلطانه . وأمعن رياض في دكتاتوريته ، فصب انتقامه على كل معارضة وأسكت كل لسان يهيم بأن يواجهه بالحقيقة أو يتحدث عن الحرية ، واضطهد الصحافة الحرة بالمصادرة حينا وبالاغلاق أحيانا أخرى ، فأغلق صحيفة « مصر الفتاة » ، وصادر صحف أبى نظارة ومنعها من دخول البلاد لمعارضتها لسياستها . ثم اثثنى الى أديب اسحاق — وهو من حزب جمال الدين — فنفاه من البلاد وأغلق صحيفتيه « مصر » و « التجارة » في ٢٢/١١/١٨٧٩ .

وأوعز أنصار جمال الدين في الخفاء الى سليم النقاش ، شريك أديب اسحاق ، أن يستصدر صحيفتين جديدتين بدل المغلقتين ، وقدمتا له المعونات الأدبية والمالية . وكاد مرضه يقف به عن اتمام المشروع ، ولكنه استعان بالنديم ، ووكل اليه أمر كتابتهما . ويخبرنا النديم عن ذلك فيقول :

« اجتمع بى سليم النقاش ، وعاهدنى العهد الأكيد ، على أن أحرر المحروسة والعهد الجديد . ثم استرخص عنهما ، فأذن اليه . وانعطفت بكليتى عليه ، والتزمت تحريرهما بقلمى ، وشحنهما بكلمى . ولم أذكر اسمى بهما مداجاة لرياض ، حتى لا يسوق لى مرضا من هذه الأمراض ... » (١) .

(١) تاريخ مصر : ص ٥٤ .

وأخذت العنوانات الجديدة الجذابة التي عنون بها النديم مقالاته تلفت النظر الى الصحيفتين الجديدتين « المحروسة »^(١) و « العهد الجديد »^(٢) ، فأقبل الجمهور عليهما ليقراً عن الأخلاق والسلوك تحت عنوان « الاستقامة »^(٣) و « حلية الناس الأدب »^(٤) ، وعن التعاون وأثره في نهضة الأمم ، وعن الاجتماعات وتبادل الرأي وفضل ذلك في تكوين الرأي العام تحت عنوان « اشد يدك بيد أخيك تنجح »^(٥) ، وعن التعصب للعنصرية والدين وأثرهما الويل في وحدة الصف تحت عنوان « صاحب الحقد مقوت »^(٦) ، وعن المقارنات التي عقدها بين الشرق والغرب وما يجري فيهما تحت عنوان « هم ونحن »^(٧) وعن الدعوة الى الوحدة بين صفوف الأقباط وأعضاء جمعيّتهم الخيرية لتظل قوية تؤدي رسالتها تحت عنوان « قولك الحق يهدي ويدل »^(٨) .

وأهم ما يلاحظ في كتابته الصحفية في الجريدتين الجديدتين أول أمرهما أن النديم تجنب التعرض للسياسة ، فان تناولها

-
- (١) يومية صدر أول عدد منها في ١٨٨٠/١/٥ .
 - (٢) أسبوعية صدر أول عدد منها في ١٨٨٠/١/٨ .
 - (٣) المحروسة ١٨٨٠/١/٥ .
 - (٤) المحروسة ١٨٨٠/١/٩ .
 - (٥) المحروسة ١٨٨٠/١/٢٧ .
 - (٦) المحروسة ١٨٨٠/١/٢٨ .
 - (٧) المحروسة ١٨٨٠/٣/١٥ .
 - (٨) المحروسة ١٨٨٠/٤/٢٨ .

فبأسلوبه الرمزي ، وكذلك كانت خطبه في المحافل . ولعل نقي
أديب اسحاق حين قد دكتاتورية رياض ، وتشريد حسن موسى
العقاد الى السودان حين اعترض على قانون المقابلة ، وطريقته
في تسوية الديون ، وزجه بالألوف من المعارضين له في
السجون ، كان درسا تعلم منه النديم . بل لعل ذلك كله جعله
يعتقد أن دوره سوف يجيء فيطش به رياض وأن مصيره
ومصير جسيته آت لا ريب . ولذلك ما ان واثته الفرصة — مع
سياسة التقرب الى الشعب التي نهجها الخديو من جديد — حتى
استغلها النديم ، ليحتجى به من النهاية المحتومة على يد رياض
فاستزار الخديو مدرسة الجمعية ، وجعلها تحت رئاسة ولى
العهد ورعايته ، وبذلك ضمن النديم بقاءها .

وأغلب الظن أن الخديو من جانبه أراد أن يستغل فكرة
الجمعيات ومدارسها ومحافلها لتخدم سياسته الجديدة ، فاذا
أيدها وساعدها ظهر بمظهر الحريص على مصلحة المواطنين الداعى
الى تعاونهم ، وبذلك يضمن أن يكون خطابها ألسنة تلهج
بذكره والثناء عليه بين الشعب . فدعا الخديو الوجهاء وأعيان
البلاد الى الانضمام الى جمعية النديم ، والى انشاء المدارس
على غرار مدرستها (١) .

(١) استجاب الموالئان متولى محمود وحسن عبد الله وانشأ مدرسه بكم
التعافه فأنشئت بالجمعية الحريه الاسلاميه وشكرهما الخديو وكتب الى الداخليه
والمعارف لمساعدتهما (الوقائع المصريه ٣/١٠/١٨٨٠) .

ودعا هذا التأييد النديم الى أن يمدح الخديو ويدعو له في خطبه ، « ويتقرب له بما يجب ويلطفه بما يجب » وحين وجد الخديو أن فكرته قد آتت أكلها وحقت ما ربه ، خاطب النديم في أن ينشئ جمعية أخرى بالقاهرة ^(١) ، فأنشئت في سبتمبر ١٨٨٠ تحت اسم « جمعية المقاصد الخيرية » ^(٢) .

استغل النديم هو الآخر تأييد الخديو له واتخذة ركيزة يعتمد عليها في نشر دعوته التي تهدف الى انشاء الجمعيات التعاونية الخيرية ، وهى في اعتقاده نقطة البداية فى نهضة الأمة بالتعليم وتوجيه « الرأى العام » وتوجيهه ، متخذاً من الصحافة والخطابة وسائل اعلام واعلان لدعوته .

واتجه بمشروعه الى القرى والمدن ، فأخذ يطوف بها ويخطب الناس فى المساجد والمجتمعات ، يدعوهم الى التعاون والاتحاد والتعليم ، وذلك بانشاء الجمعيات . فتألفت على يديه جمعيات بدمهور وميت غمر ودمياط والمنصورة وشبراخيت وغيرها فى أنحاء البلاد ، « وقويت هذه العصبة وتعددت محافل الخطابة وانتشرت الدعوة فى البقاع ، حتى ملأت القلوب والأسماع . وافتتح باب الجمعيات ودخلها الناس أفواجا وزرافات » .

(١) على لسان محمد بك زكى امين التشريعات الخديوية : تاريخ مصر ص ٥٠ .

(٢) تحت رئاسة محمود باشا سامى البازوى وزير الاوقاف وقتذاك ، وعين

الشيخ محمد عبده خطيباً رسمياً لها : العصر الجديد ١٤/١٠/١٨٨٠ .

غير أن النديم كان يحس تيارا من المؤامرات الخفية يهب عليه وهو يسعى في مشروعه فيقف به عن الانطلاق الذي ينشده ويمنع كثيرا من العظماء والكبراء من الانضمام الى جمعياته . وكان هذا التيار يأتيه من أنصار رياض ومن رجال الأمن والادارة . وكان ذلك صدى للصراع المستمر بين الخديو ورئيس وزرائه .

وهنت النديم بصيرته الى أن يستعمل سياسة الملاينة مع رياض ليكسب مودته وتأييده . وفي ذلك يقول النديم :

« وأخذت أنتقل في البلاد تنقل السائح ، وأخطب أهلها بالشارد والسائح ، ومع هذه الشهرة وانتشار الأفكار الحرة ، كنت أجد في أغلب الطبائع جبنا ، وعند الأمراء والوجهاء غبنا ، فاحتلت لميل ضميرهم بجذب وزيرهم . واجتمعت برياض باشا في أوتيل أوربا بالاسكندرية ، وعرضت عليه آثار الجمعية : فأعجب بهذا الأثر ، ومدحني وشكر ، ومد للمشاركة يديه ، وتبرع بخمسة وعشرين من الجنيه ، وملأت الجرائد بذكره وملحه وشكره ، فتقاطرت على الناس من كل رفيع وسافل ، وامتلات بهم المخاطب والمحافل . ثم قدمت اليه قانون الجمعية ليقرر بأوامر رسمية ، فقرره باتحاد زائد ، ونشره في الجريدة الرسمية ^(١) وباقي الجرائد ^(٢) ثم قدمت طلبا بمساعدة ديوان

(١) الوقائع المصرية ١٨٨٠/١٠/١٦

(٢) المعر الجديد ١٨٨٠/١٠/١٨

المدارس لمدرسة الجمعية ، فحسن هذا الطلب لديه ، وقرر لها في كل سنة مائتى جنيه ^(١) . فزالت طباع الجبن المذمومة ، اذ صارت الجمعية فرعاً من الحكومة ^(٢) » .

وصارت جمعيات النديم ودعوته مجالا من مجالات الصراع بين الخديو ورئيس وزرائه يحاول كل منهما أن يتخذها وسيلة من وسائل الدعاية له ، والنديم من جافبه يتخذ من تأييدها وسيلة لنشر دعوته ، فقد أصبحت المعاني السياسية التى تدل عليها خطب النديم غير خافية ، فقد فهمتها النفوس ، وأصبحت حديث الناس ، « وبهذه المناهل غرق العالم والجاهل وعام كل فى بحر الأفكار على سفن الأنكار ، فتظاهر الخطباء بالأداب وحشوها بما ينبه الألباب ... وقامت الأفكار الخامدة ، واتجهت الى جهة واحدة ، هى الحرية » ^(٣) .

وأوعز رجال القصر الى النديم أن يعيد تمثيل رواية « الوطن وطالع التوفيق » ، فقام فريق التمثيل بالمدرسة تحت اشرافه بعرضها على أكبر مسارح الاسكندرية « زيزينيا » فى حضور الخديو ووزرائه ^(٤) وكبار رجال الدولة . ونجحت الرواية

(١) مبلغ الامانة ٢٥٠ جنيهها . ولعل ذلك سهو منه ، أو لعل السجع حكم عليه بذلك : الوقائع المصرية ١٨٨٠/١٠/١٦ .

(٢) تاريخ مصر من ٥١ - ٥٢ .

(٣) تاريخ مصر : من ٥٥ .

(٤) حضر من الوزراء رياض رئيس المجلس ، وعلى مبارك وزير الاشغال ، وحسين قخرى وزير الحقانية ، وعلى ابراهيم وزير المعارف .

نجاحا منقطع النظير بالنسبة لهدفها الحقيقي « فقد كان لها في نفوس الشعب تأثير كبير بعد أن نهت الأفكار وفتحت الأنظار ، فقد تعد فيها العيوب الاجتماعية والسياسية » (١) ووصف ما كانت عليه البلاد من فوضى واضطراب ، وما كان فيه المصريون من الذل والاهانة . وما تحملوه من الظلم والمغارم وصور للنظارة صور أجدادهم ، وما كانوا فيه من تقدم ورفعة وأوجب النظر في سر تقدم الأمم ، والبحث فيما يحرك الهمم . والفكر فيما كان للآباء من مفاخر ، وما تركه الأجداد من الآثار ، وقابل فيها بين السيادة السابقة والعبودية اللاحقة ، وعلوم الأولين ، وجهالة الآخرين ، ومدنية المتقدمين ، وهمجية المتأخرين ، وقوة نفوذ الأول ، وخضوعنا الآن لأضعف الدول . وبين فيها ما يلزم من التجارة حتى تخرج من هذه الوهدة (٢) . وعلى الرغم من أن النديم مدح فيها الحديو مداراة له إلا أنها كانت تحارب الظلم والتعسف والدكتاتورية في الحكم ، وحوادثها « تشف عن أسف شديد على تهقر مصر وما يحدث فيها من خلل وسوء تدبير ، وفيها دعوة الى مقاومة الاستسلام للرقابة الأجنبية المسيطرة على أجهزة الحكومة » (٣) .

وسر الحديو بالتمثيلية سرورا كبيرا ، فقد عقد النديم في

(١) انظر جورجي زيدان تاريخ الاداب العربية ج ٤ ص ٨٧ .

(٢) تاريخ مصر : ص ٥٠ .

(٣) جورجي زيدان : تاريخ الاداب العربية : ج ٤ ص ٨٠ .

ختامها الأمل في الإصلاح على يديه . ولكن أكثر سروره كان تعرضها بخصمه رياض وطريقة حكمه والتسديد بسياسته والهجوم على حكومته .

أما رياض فقد أحس خطر النديم وانتشار أفكاره عليه وعلى حكمه ، فأسرهما في نفسه ، وعزم على هدم جمعيته . ولكنه لم يلجأ الى أسلوب العنف والنفي والسجن كما هي عادته مع من اجتروا على نفسه . فقد كسرت شوكة طغيانه وهدهلت من استبداده حركة الجيش المعروفة « بجادث قصر النيل » التي قامت في فبراير ١٨٨١ اثر اعتقال ثلاثة من كبار ضباطه المصريين : أحمد عرابي ، وعلى فهمي ، وعبد العال حلمي ، لاجترائهم على تقديم مذكرة تطالب باصلاح الجيش والحد من طغيان وزير الحربية الجركسي وعدائه للضباط الفلاحين وأجبر الجيش رياضاً على أن يقيل عثمان رفقي وزير الحربية الشرکسي ويعين بدلاً منه محمود سامي البارودي ، وفقدت الحكومة هيبتها حين فقدت السيطرة على الجيش ، وكانت ضربة قاسية ترنح لها رياض . ومن ثم لجأ الى أسلوب المؤامرات في محاربة معارضيه وأعدائه . وأخذ يحيكها للنديم ويحاول القضاء على جمعياته .

وفي ذلك يقول النديم :

« وقد أوجس رياض خيفة مني ، بما بلغه من أحد الذوات عنى . فعزم على فض الجمعية وتشتيت العصية ، ووسوس الى بعض الذوات من الأعضاء وجعلهم لى أعداء ، يعارضوننى في

كل موضوع ، ويتظاهرون على بغير المشروع ، لأضيق برجال أنسى ، وأترك الجمعية بنفسى » (١) .

واشتدت حملة رياض على النديم . وكان يتولاها داخل مجلس الادارة — فيذيع الاشاعات المغرضة والأراجيف الباطلة حوله — اثنان من أعضاء المجلس : أحمد رأفت محافظ الاسكندرية ورئيس المجلس ، وحسين فهمى . وهما من أتباع رياض وأعوانه المخلصين .

وحين ظهرت رائحة الخلاف ، وعلم الناس أن رياضاً سلط على النديم أعوانه ليخرجوه من الجمعية ، تشيعوا للنديم ، وبدأت موجة من التحمس تجتاح المركز الرئيسى للجمعية بالاسكندرية وفروعها بالأقاليم . وتبارى الخطباء فى ملحه والثناء عليه ، ونظموا القصائد فى وصفه ، وأطلقوا عليه اسم « مؤسس الجمعيات » و « رائد الدعوة الى الإصلاح بالتعليم والتعاون والاتحاد » (٢) .

وأراد الحديو من جانبه أن يتقرب الى أعضاء الجمعية وجمهورها بتأييده للنديم فى محنته ، فاتهز فرصة تأدية الامتحانات بمدرسة الجمعية وزارها بصحبة النظار والكبراء ، وأبدى للنديم إعجابه وسروره بنظام المدرسة وحسن سير العمل

(١) انظر تاريخ مصر من ٥٥ .

(٢) المطلب كاملة فى مجلة « التنكيت والتبكيث » الأعداد ١٠ و ١٧ يوايه

١٨٨١ .

فيها (١). ولكن ذلك لم يغن من الأمر شيئاً ولم يثن رياضا عما اعتزمه ، فقد أخذ أعوانه يضمون اليهم بقية أعضاء مجلس الادارة بالتهديد مرة والوعيد أخرى ، وبإثارة الحسد والحقده على النديم وشهرته . ليأخذوا قرارا بفصله وطرده .

ولكن النديم فوت عليهم ما قصدوا اليه ، وقدم اليهم استقالته قبل أن يقلوه (٢) .

ويحكى ما حدث في اجتماع مجلس الادارة شاهد عيان ، فيقول (٣) :

« ظن جماعة من سفهاء الأحلام أن في شهرة النديم ضياعا لصيتهم ، وحظا من كرامتهم ، فأجمعوا أمرهم واثثمروا على الايقاع به ، شئمة كل ختال فخور مناع للخير معتد أثيم . وقد ساعدتهم بعض كبار الحكام في ذلك الوقت ، وكان هو الرئيس العامل للجمعية (٤) . فدعا الأعضاء الى الاجتماع في ليلة كثر فيها المناققون ، وهمس بعضهم في آذان بعض . وظهر ذلك الكبير بمظهر عدو أليم للنديم ، فطلب من الجمعية تقرير فصله من ادارة المدرسة وعضوية الجمعية جميعا . وكان النديم قد أحس بالمكيدة قبيل ذلك بأيام ، فكتب الى الجمعية كتابا

(١) الوقائع المصرية ١٤ يوليه ١٨٨١ .

(٢) نص كتاب الاستقالة انظر التنكيث والتبكيث ١٨٨١/٧/٢٤ .

(٣) أحمد سمير عضو مجلس ادارة الجمعية والمدرس بلمرستها .

(٤) أحمد باشا رافت محافظ الاسكندرية : التنكيث ١٨٨١/٧/١٧ ص ١١٨

يستغنى به من الادارة والعضوية بعبارة ترقص الألباب طربا
ببلاغتها وقوة حجتها ، فأبرزه الرئيس وتلاه على الجمعية ،
واتخذته من ضمن الأسباب التي ينتقم بها من النديم .
« وكان الحاضرون في تلك الليلة مرغمين على الخضوع
لأمر الرئيس ، اذ أنه كان من أذئاب دولة الاستبداد ، فأمر
بإغلاق الأبواب ، وكتب — وافضيحتاه — كتابا كله هذر
وهذيان وضلال واقتراء مبين وتطويل بارد ، وخلصته أن
النديم لا يليق أن يكون عضوا بالجمعية أو مديرا لمدرستها ،
مع أنها غرس يديه ، مصنوعة على عينيه . وكتبوا منه صورا ،
ودارت به الزبانية على الحاضرين ، تطلب التوقيع على ذلك
الكتاب الذي سموه منشورا . ثم انقض الحفل . فمضيت الى
النديم وحديثه بكل ما جرى ، فلم يتأثر ، بل قال : لكل نبا
مستقر وسوف تعلمون » (١) .

(١) سلافة النديم ج ١ ص ٦ .

التكيت والتبكيت

قبل أن يستفحل الخلاف بين النديم ورياض ، أدرك بتجربته أن رياضاً لن يدعه يمضى فى طريقه الاصلاحى ، ولن يبقى على نشاطه فى الجمعية اذا ما تعرض فى محافلها الخطائية لنظام الحكم أو اتقد ما تئن منه البلاد من استبداد وتعسف وخضوع لقنصلى انجلترا وفرنسا اللذين استنزفا دم البلاد بسياستهما المالية .

وما أحس بيوادر العاصفة تهب عليه وعلى جمعيته حتى عزم على اصدار مجلة تحمل الى الناس رسالته وتصله بجمهوره اذا ما منع من محافل الخطابة وعن ذلك يحكى النديم :

« فطنت لهذه الدسيسة ، ولايت الجمع ورئيسه ، حتى اجتمعت برياض باشا فى مصر ، وقد أضمر لى الأضرء . فناقته ، وناقنى ، وجاذبته الحديث وجاذبنى ، حتى أخذت منه اذا بجريدة التكيت ، وما أردت الا التبكيت ، وقصدت أن تكون لسانى اذا تركت الجمعية ليكون لى فى كل بلد محافل خطائية ^(١) » .

• وصدر أول عدد من المجلة فى ٦ يونيه ١٨٨١ تحت عنوان

(١) تاريخ مصر : ص ٥٥ .

« التنكيت والتبكيت »^(١) . وهي صحيفة أسبوعية أدبية هزلية . وفي اسمها دلالة على غرضه منها وأسلوبه فيها ، فهو يرمى الى تأنيب المصريين على ما وصلوا اليه في أسلوب لاذع أحيانا ومضحك أحيانا أخرى ، وقد صدر النديم العدد الأول بخطة المجلة ومنهجها فقال :

« هي صحيفة أدبية تهذيوية ، تلو عليك حكما وآدابا ومواعظ وفوائد ومضحكات بعبارة سهلة ، وتصور الحوادث والوقائع في صور ترتاح اليها النفس ويميل اليها القلب . ويخبرك ظاهرها المستهجن أن باطنها له معان مألوفة ، وينبهك قباها الخلق بأن تحته جمالا يعشق . هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيت . ولا تنكر عليها ما تحدثك به قبل أن تطبقه على أحوالنا ، ولا تظن مضحكاتها هزوا بنا ولا سخرية بأعمالنا . فما هي الا نقشات صدور وزفرات يصعدها مقابلة حاضرتنا عاضينا»^(٢) .

وخرجت « التنكيت والتبكيت » الى عالم الصحافة العربية بطابع جديد لم يسبق اليه ، فقد أرادها النديم أن تكون صحيفة الخاصة والعامة من أبناء الأمة ، يقرأها المثقفون وذوو المكانة في أنديتهم وداوينهم ، وتقرأ للعامة في مقاهيهم

(١) طبعت في مطبعة حريدة « الحروسة والمهد الجديد » بالاسكندرية ، وكانت في حجم الكتاب العادي ومن ١٦ صفحة ومن العدد (ربيع فرك) .

(٢) التنكيت والتبكيت ١٨٨١/٦/٦ .

ومجتمعاتهم وحقولهم . يكتب للخاصة فيعالج مشكلات السياسة بأسلوبه الأدبي الرمزي المرسل ، يجدون فيه حسن التعبير وذوق الأداء ، في لغة بسيطة سهلة ، عن تفكير وروية ، لأنه كما قال في فاتحتها ، لا يريد منها أن تكون منقحة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ، ولا مشعربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، ولكن أحاديث تعودناها ، ولغة ألفنا المسامرة بها ، لا تلجئ الى قاموس الفيروزابادى ، ولا تلزم مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطر لترجمان يعبر عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر معانيها . وانما هي في مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفي بيتك كخادم يطلب منك ما تهدر عليه ، و « نديم » يسامرك بما تحب وتهوى « (١) .

ويكتب للعامة بلغتهم في حذق ومهارة ، فيعالج العيوب الاجتماعية ، المنتشرة بينهم ، وهو في اللغة العامية خبير فطن ، يعرف أمثالهم وأنواع كلامهم ، ويضع على لسان الخادم والسيد ، والمرأة والرجل ، والفقير والغنى ، والفلاح والمرابى ، والمالِك والمغفل ، ما يليق به في دقة واحكام وظرف .

وفي العدد الأول ، تحت عنوان : « مجلس طبى لمصاب بالأفرنجى » . صور النديم أكبر المشكلات التى كانت تعانها مصر في ذلك العصر في قصة شاب صيح الجسم قوى الأعصاب

(١) التنكيت ١٨٨١/٦/٦ .

جميل الصورة ، رقيق اللفظ ، عذب الحديث ، في عزة ومنعة
لا يشاركه فيها مشارك ، يحبه أهله ويؤازرونه ، ويلتفون حوله
حتى لا تمتد اليه يد عدو ولا حيل محتال . وبينما هو في ذلك
تسلل اليه أحد الماكرين ، متظاهرا بالصلاح والتقوى ، مضرا
الخل والغدر ، فخدع أهله مظهره ، وأسلموه اليه ، فعرضه هذا
الماكر على الأسواق ، يريه من الغواني من تعارض الشس
بحسنها ، وتكسف البدر بجمالها ، فمانع حيناً ، ولكنه رأى
أهل بيته وقد وقعوا في مثل هذه الغواية وانغمسوا في مثل هذه
الضلالة ، فسار سيرهم ، وترك النقاد والأدباء ، وسار في الطريق
الذي رسمه المنافق المخادع ، فما سار فيه حتى أصيب بالداء
الأفرنجي (الزهري) ، فاصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ،
وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت
محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع . وتمكن الداء منه ، وسرى في
دمه وعروقه ، فصار يقلب طرفه لعله يجد في قومه من ينقذه من
مرضه . واجتمع الأطباء من قومه يفحصون الجسم ويشخصون
المرض ، ويركبون الدواء ليقف سرياء الداء . وتعلق بهم أهل
المرض يسألونهم الاسراع في معالجته ، فطمأنهم الأطباء
ونصحوهم بالهدوء والتحرز ممن كانوا السبب في المرض حتى
لا يفسد العلاج .

قصد النديم بهذه القصة الرمز الى الديون التي تراكت
على مصر ، وصور شعور الناس في هذه الفترة بعدما كان من
الاسراف ، ووقوع مصر في الديون الباهظة وتدخل الدول

الأجنبية في شؤون مصر الداخلية ، كما صور بها ألم الناس من هذا المرض الأفرنجي ، وأملهم في النجاة منه بسعى عقلائهم وتفكير أولى الرأي منهم ، وكان النديم بارعا في التورية بكلمة « الداء الأفرنجي » ، دقيقا في تصويره المشكلة الكبرى في مصر ، ووصف العلاج لها .

ثم تناول الفرّنجية « وتقليد الأجانب التي أصيب بها فريق من المصريين فكتب مقالا في « عربى تفرنج » يصور شابا من أعماق الريف المصرى اسمه « زعيط » ذهب الى أوروبا ليتعلم ثم عاد الى بلاده ، فتنكر لما يفعله أبوه « معيط » حين يقابله على المحطة ولامه لأنه قبّله ، كيف يقبله ، ويطلبه بأن يكتفى بالسلام عليه باليد فقط ، ويقول له « بَن اَرَبْقِيه » وينسى لغته حتى اسم البصل لا يتذكره ويسميه « أو نيون » ، وتحاول أمه « معيكة » أن تفهم ما يعنيه فلا تستطيع ، ويختم هذا بالمغزى من القصة وهو أن لا أمل في مثل هؤلاء الا اذا حافظوا على لغة قومهم وعاداتهم ، وصرفوا علومهم في تقدم بلادهم .

ثم تحدث عن أدواء المصريين الاجتماعية ، ومنها تناول المخدرات ، وتحت عنوان « سهرة الأنطاع » ، قص قصة موسرين اجتمعوا في بيت أحدهم ، دخل عليهم فوجدهم ساهمين شاردين لا يتحركون ولا ينطقون ، فحسبهم يفكرون في أمر خطير شغل أذهانهم ، وعقد ألسنتهم كتفكيرهم فيما يزيد الثروة ، أو فيما يضمن التقدم في عملهم ، أو تقدم الصنائع الأوربية ، وكيف يقومون بذلك في مصر . ولكنه تبين بعد ذلك أنهم انما اجتمعوا

لتعاطى « الكيف » وقالوا : مالنا وللدنيا وما جرى فيها ، ومالنا
وللصحف والتلغرافات نحن كلنا والحمد لله فى غنى عظيم ،
عندنا الخدم الذين يقومون بأعمالنا ، وقد خلف لنا آباؤنا من
المال ما لاتفنيه الأيام — فلا نخرج من بيوتنا الا للمسامرات
بالمضحكات والنكات اللطيفات .

وعلى هذا النمط كتب النديم بقية المقالات .

ودعا النديم الكتاب الى أن يوافوه بمقالاتهم وتتاح قرائتهم
على النهج الذى رسمه للمجلة « كونوا معى فى المشرب الذى
التزمته ، والمذهب الذى اتحلته ، أفكار تخيلية ، وفوائد
تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيك ينادى بقبح الجهالة ، وذم
الخرافات ، لتتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مثقلة فى
الوجود ، من ركوب متن الغواية ، واتباع الهوى ، اللذين
أضلانا سواء السبيل ^(١) » .

طبع النديم من العدد الأول ٣ آلاف نسخة لم يرتد اليه
منها سوى خمس فقط ^(٢) ، وكان قد أعلن فى العدد الأول
تأخير صدور العدد الثانى حتى تتجمع لديه أسماء المشتركين .
ولكن الاقبال الشديد على المجلة وتلهف الجمهور على قراءة
مثل هذا النوع من الصحافة الوطنية والحاح أنصاره ومؤيديه
جعله يصدر العدد الثانى فى موعده ^(٣) . وكانت أعداد المجلة

(١) التبكيت والتبكيك ١٨٨١/٦/٦ .

(٢) التبكيت ١٨٨١/٦/١٣ .

(٣) ١٣ يونيه ١٨٨١ .

تنفذ ساعة صدورها ، ويتخطفها الناس في المدن والقرى ، وخاصة رجل الشارع الذي وجد لأول مرة مجلة تهتم به وتصور له مشكلاته ^(١) ، ذلك لأن النديم فطن - وهو الذي لم يتعلم البيداغوجيا - لشيء جليل القدر خطير الأثر وهو التعليم عن طريق القصص ، فكان يسوق النصيحة في صورة قصة ، والعبرة في شكل نكتة ، ويحكى العيوب الاجتماعية على ألسنة أبطال القصص وأفرادها ، وعرف أن ذلك أجذب للنفس ، وأفعل للنقد ، وأحرى أن تتقبله العقول ، فأكثر منه وكاد يلتزمه .

واستطاع أن يصل الى قلوب العامة عن طريق لغتهم وأمثالهم ، وجعل علاجه لأدوائهم الاجتماعية على ألسنة شخصيات منهم تتحدث اليهم بحديثهم تارة وعن طريق الرجل المحجب اليهم تارة أخرى .

فتحت عنوان « هف طلع النهار » يتحدث عن اسراف أولاد الذوات وانصرافهم عن التعليم وعدم رقابة أهليهم ، ومن ثم ما ان تصل الثروة الى أيديهم حتى تذوب في كؤوس الخمر وفي أيادي الغانيات وفي دخان الكيف . وتأخذ شخصية دعموم ومعيط وست الدار ومسعودة أدوارها في مقالاته الإصلاحية

(١) لم يصدر العدد الثاني الا للمجلة وكلامه في القاهرة وزفتى ورشيد والاسماعيلية والمنصورة ودمهور وكفر الدوار . التنكيت ١٨٨١/١٣ .

للعمامة التى تبحث عن عيوب المجتمع الرفي وما
أمراض اجتماعية .

ومن أزجاله الاجتماعية التى نشرت « بالتنكيت » ،
شهرة واسعة فى ذلك الوقت ما قاله فى الفرنجة والتقليد
ونبذ التقاليد المصرية والتعليم مما جلب الحراب لكثير
الأسر التى غالت فى هذا السبيل :

أهل البنوكا والأطيان
صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان
منعاه ولا حق الدخان
شرم برم حالى غلبان

يا ما نصحتك يا بنجر
وقلت لك أوعا بعنجر
فضلت تسكر وتفنجر
لما صبح بيتك خربان
شرم برم حالى غلبان

الحق عندك يا خويه
ياللى طليت وشك بويه

ولبست سروال أبو أويه
ومشيت تقلد لي النسوان
شرم برم حالي غلبان

بعنا العمايم بالطربوش
والعري بالتوب المنقوش
صبحت بلادنا للمغشوش
مورود وصانعها ظمان
شرم برم حالي غلبان

ان كان يدك تسار
خليك نضيف حالق داير
وطف على الناس بالداير
يعظموك كل الجدعان
شرم برم حالي غلبان

أوعا تقوت دي الكار يا هباب
وتمشي ماسك لك في كتاب
يستهلوك كل الأجباب
وبعد عزك دا تنهان
شرم برم حالي غلبان

أحسن دا فن بتاع مساكين
مهروا ليالى فيه ومنين
وحصلوا منه التمددين
لكن رماهم فى الحرمان
شرم برم حالى غلبان

وان كنت شاعر أو مثنشى
قالوا يا شيخ فضك وامشى
دا احنا كلامنا فى المحشى
والا طيىخ البدنجان
شرم برم حالى غلبان

وان كنت صرفى أو نحوى
والعلم فى ذهنك محوى
قالوا أأتانا بيوز ملوى
يقول لنا عمرو وزيدان
شرم برم حالى غلبان

وان كنت صانع متفنن
قالوا أخينا دا اجتنن

وبعد ما كان يـدندن
صبح يقول شغلى ألوان
شرم برم حالى غلبان

شوف الجهالة يا سيدنا
اللى جلبناها بأيدينا
حتى صبحنا يوم عيدنا
نسمع بلادنا تتشـدنا
شرم برم حالى غلبان^(١)

لذلك كله نجحت المجلة ، ووصل نداؤها الى أكبر عدد من
المواطنين فى المدن والقرى ، فمن كان قارئاً قرأ ، ومن كان أمياً
سمع وفهم .

وكما حارب النديم موجة « الفرنجة » فى العادات والملابس
والتقاليد كذلك حاربها فى اللغة فقد شاع فى عصره الحديث بين
الطبقة المثقفة باللغات الأجنبية أو اقحام ألفاظ أجنبية كثيرة فى
الكلام العادى مباهاة وافتخارا وادعاء للمدنية فكتب تحت
عنوان « اضاعة اللغة تسليم للذات » مقالا دافع فيه عن اللغة
العربية وحمل على المصريين الذين يناون عن العربية فى أحاديثهم

(١) التكتيت ص ١٤٩ - ١٥١ .

ويقرر أن من سلم في لغته سلم وطنه ونفسه ، وينجى باللائمة
على الأدباء النازحين من البلاد العربية ويدعون لهذه الفريجة
في اللغة ويروجون لها . ومما قاله في هذا المقال :

« أيها الناطق بالضاد .. بم تستبدل لغتك وما لها من مثيل
والى من تركها وأنت لها كفييل ... ناشدتك الله هل وجدت في
اللغات الحديثة العهد ما اشتملت عليه لغتك القديمة أم رأيت
حسنا في اللغات التي تنقح كل يوم بقلم المتحدثين لم تره في
لغتك القبطية الخلق المجموعة في زمن الهمجية كما يزعم
الجاهلون ...

« ليك أيها الأخ الشقيق وإن لم نحمل في بطن واحد ، اللغة
سر الحياة والحد الفاصل بين الانسان والبهيم ... فهي أنت ان
كنت لا تدري من أنت وهى وطنك ان لم تعرف ما الوطن
وأما كونها وطنك فانه انما يعمر ويسمى وطننا برجال يتعاونون
على احيائه واظهاره في الوجود محلا للسكنى ودارا للإقامة ،
وقد علمت أنك بمفردك لا تهتدى لشيء ولا تقوى على أى أمر
كان ومن فقد المواطن فقد الوطن .

« أسمعك تقول اذا فقدت لغتى اعتضت عنها بأخرى .
أجل انك اعتضت عنها ولكن بما أضاع منك الوطنية والمعتقدات
الدينية فانك لاتخاطب بها الا أجنبيا من البلاد مغايرا في الجنسية
بوأنت تعلم أن لمعانى الألفاظ صورا لا يقوم بها مقابلها في

غيرها ... ومن أضع وطنيته ومعتقداته وأفكاره فقد أضع نفسه فاضاعة اللغة تسليم للذات (١) .

وعلى أثر هذا المقال قامت معركة حامية الوطيس بين النديم والأدباء المصريين من جهة وأمين شميل (٢) والأدباء النازحين من البلاد العربية من جهة أخرى الذين يدافعون عن الرأي القائل بأن اللغة أداة التعبير والمرء لا يقيد بلغة خاصة اذا ما استطاع أن يصل الى الهدف وهو التعبير نفسه (٣) .

ومن العدد الثالث بدأت تفوح رائحة الحرب السرية التي أعلنها المتآمرون على النديم من أعوان رياض .

وأخذ يرد على تقولات المهاجمين له وأراجيفهم أول الأمر في لين ويسروفي أسلوب غير مكشوف لا يفهمه الا أعضاء الجمعية وجمهورها ، محاولا رآب الصدع وردع المغرضين بالحسنى ، ولكن ذلك لم يضع حدا لخصومتهم ، وازدادوا امعانا في هجومهم .

وحين أخرج النديم من الجمعية لم يكن من السهل أن يهضم الجمهور فصله منها وهو بانيتها ومؤسستها ، ولذلك أطلق أنصار رياض خلفه الاشاعات المغرضة والالتهامات التي تشوه سمعته وتسيء اليه حتى يبرروا عملهم .

(١) التنكيث من ١٩ - ٢١ .

(٢) التنكيث من ٦٨ - ٧٠ .

(٣) خلاصة المعركة نشرت في التنكيث من ٢٠٣ - ٢٠٧ .

أشاعوا عنه أنه يحذّر من القبيح ويأتيه ، ويأمر بالجميل ولا يتبعه ، وادعوا أنه ضال مضل غير مثقف في الدين ، وزعموا أنه يسعى الى الشهرة من وراء أعماله لينال رتبة عالية أو وظيفة كبيرة . ثم كشفوا أغراضه المحجوبة في خطابه ذات المعنيين ، فقالوا انه يسعى بخطبه الى هدم النظام القائم ، وانه يريد من توحيد الرأي العام أن يقف ضد الحكومة (١) .

ولم يسع النديم ازاء ذلك كله الا أن يكشف لهم القناع ويهجر أسلوب المسالمة والمهادنة ، ويسترد طبيعته الحادة ، فيرد عليهم في عنف وقسوة ، مينا للجمهور حقيقة الحملة المغرضة التي شنّها أعوان رياض عليه .

خرج النديم على الجمهور في العدد السابع من « التنكيت والتبكيث » بثلاث مقالات تعتبر من خير ما كتب في حياته الأولى :

صوّر في أولها حالة مصر في الزمن القديم وتسلسل بها الى الزمن الحاضر ، موضحا كيف انحدرت من العز والمجد والحرية الى الذل والمهانة والاستعباد ، في أسلوب رمزي مستعملا فيه قصص الحيوان تحت عنوان : « الذئاب حول الأسد » (٢) .

وحلّل في الثانية موقف خصومه بأسلوب ساخر متهمك ،

(١) التنكيت ١٨٨١/٧/٢٤ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) التنكيت ١٨٨١/٧/٢٤ ص ١٠٩ .

ثم هاجمهم هجوما لازعا قاسيا تحت عنوان : « اتبع الحق وان.
عز عليك ظهوره » ^(١).

أما الثالثة فكانت تحت عنوان : « اياك أغنى يا نفس
فاسمعي وعي » ^(٢). وقد جعله على شكل حوار بينه وبين
نفسه فضح فيه خصومه وكشف مؤامراتهم ، ثم قهض اتهاماتهم
واحدا واحدا بكلمات يخرج منها اللهب ومنطق يرد كل شبهة :
رد على من ادعى أنه يحذر من القبيح ويأتيه ويأمر بالجميل.
ولا يتبعه بأن حياته كلها ملك للجميع يعلمون ظاهرها وباطنها
ليس فيها من سر يخفيه أو لغز يتستر فيه ، وهناك من يلزمونه
ليل نهار ، فليسالوا ان كان هناك تناقض بين أقواله وأعماله أو
بين سره وعلايته .

ورد على دعواهم أنه ضال مضل غير مثقف في الدين بأن.
خطبه ومقالاته وأحاديثه خير حكم وفيصل ان كان فيها جهل أو
ما يناقض الشرع أو العلم أو المنطق ، وليسأل العلماء الذين
يحضرون اجتماعاته ويسمعون خطبه ويقرأون مقالاته .

وقال للذين ادعوا أنه يسعى الى الشهرة من وراء أعماله
لينال رتبة عالية أو وظيفة كبيرة : « ان الانسان قلب ولسان ،
وهما منى بين يدي كل انسان يقلبهما كيف يشاء ، فما وجدتم

(١) التنكيث ١٨٨١/٧/٢٤ ص ١١١ .

(٢) التنكيث ١٨٨١/٧/٢٤ ص ١٠٧ .

تقيهما حكم على به . أما اللذة المقصودة بالشهرة فانها ظاهرة في سرير نومي الحديدي الحشن ومسترى الوحيدة القديعة ، وأنعم بها من لذة لو دامت ، فما النعمة الا ما يحفظك من شرب ما اللئيم وأكل عيش المجرم » ^(١) .

وبلغ النديم الغاية حين قبل التحدى واستخف بعقاب العهد الحاضر الذى هدد به جزاء سعيه لهدمه ، ورحب بالخطر الذى يوشك أن ينزل به ، وقدم نفسه قربانا لوطنه ، واستعد للتضحية على مذبح رسالته . فقال يخاطب نفسه :

« ألم تحفظى من أخبار الأولين قتل الخطباء وشنق الدعاة للإصلاح وضرب المؤدبين وطرد المهذبن ؟ ولا يسعك الكار ما تأتينه من الأعمال والأقوال وأنت تنادين بلسان ذاتك بصوت شرقى ^(٢) صداه في الغرب .. وإن قيل أنك تسعين خلف مقصد ربما أغضب عليك ولأمة أمرك ان لم تعدمك فهل أنت راضية ؟ »

فترد عليه نفسه :

« راضية بقيت أو عدمت ، فسأكون سيرة يرويها الحاضر للآتى ، ولن تلبث خفايا الأمور حتى تظهر ، فيكون سوء مكافأتى على اجتهادى غرة في تاريخ حياتى » ^(٣)

تحول النديم فجأة عن سياسة المهادنة وتورية الحقائق والرمز

(١) التنكيث ١٨٨١/٧/٢٤ من ١-٨

(٢) كانت كلمة الشرق في ذلك الوقت تعادل كلمة البلاد العربية ، والشرقى - معناها العربى .

(٣) التنكيث ١٨٨١/٧/٢٤ من ١٠٧ .

فى الأسلوب ومداراة رياض الى هجوم سافر على نظام الحكم الذى يسوده الظلم والاستبداد ، وعلى النظام الاجتماعى للأمة الذى تحكم فيه الرأسمالية والطبقية التركية فتخلق من المجتمع سادة وعبيدا .

ولم يجعل مقالاته الوسيلة الوحيدة فى هذا الهجوم ، ولم يكتف بالاسكندرية ميدانا للمعركة ، بل أخذ يتنقل فى البلاد ، وجاهر بالتضاد ، ولبس ثوب الجلد ، وتابع الخطب فى كل بلد ، وحرك الأنظار حركة لا سكون لها ، ونشر مظالم الحكام وأعمالها ، ونادى بهدم دعامة الاستبداد ، وكسر قيود الاستعباد (١) .

أخذ النديم يطوف بالبلاد ويرتقى منابر المساجد ويجلس الى الفلاحين فى مجتمعاتهم يبذر فى قلوبهم بذور الثورة ويشعل نارها فى قلوبهم ويحرضهم عليها بلسانه الذرب ومنطقه الموهوب ، يحدثهم فى دمياط والرحمانية ودسوق وزفتى والمنصورة وميت غمر (٢) عن حياة البذخ التى يحياها الأغنياء والحكام ، يرفلون فى ثياب العز ويتمتعون بأسباب المدلية وينعمون بالمرقص والغانيات والمغنيات ، وينفقون الأموال عن اليمين وعن الشمال ، وما هى فى الحقيقة الا أموالهم هم ، أموال الفلاحين البؤساء . فهم أساس النعمة وأسبابها ، يجمعونها

(١) انظر تاريخ مصر من ٥٦ .

(٢) التنكيت من ١٥٧ و ١٥٩ و ٢٠٢ و ٢٠٨ .

بعرقهم ودمائهم من فلاحه الأرض وتربية الماشية ، ليأخذها الأغنياء ويبعثوها على ملاذهم ومتعهم^(١) .

ثم يكتب الى الرأسماليين والأغنياء فيقول :

« تعال فانظر الى سلم رفعتك ومعدن حياتك ونبع ثروتك ، أخيك - أستغفر الله - خادمك الفلاح . انظر الى ثوبه المهلهل ولبدته التي لا تستر يافوخه ورغيفه الذي لا تكسره قوتك ومشه الذي تعاف النظر اليه ، وارقبه وهو يسقى الزرع والطين الى فخذه والشمس تشوى وجهه وجسمه ، يقطع يومه في عذاب وعمل ... وهو صاحب الفضل عليك ، وأنت لا تنظره الا بعين المقت ولا تعامله الا بيد الاهانة ولسان السب ، مستقبحا صورة عثوننت بفلاح^(٢) .

ولم يشأ أن يكون هو الداعية الى كسر الاستعباد والذلة وحده بل أراد أن يكون في كل بلد على الأقل داعية يخطب الناس كل أسبوع في الاصلاح السياسى والاجتماعى ، فكتب مقالا قويا في قيمة الخطابة وأثرها في تاريخ الاسلام وكيف كانت تثير النفوس فتدفعها الى الحرية ، وجعل من أهم أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة فيه واقتصارها على خطب المساجد ، وهى خطب تقليدية في عبارات دينية محفوظة ، ومعان متكررة مألوفة ، لا تمس الحياة الواقعة بحال ، ولا تحرك عاطفة ولا تضيء حياة ،

(١) انظر التنكيث ١٥/٨/١٨٨١ .

(٢) المصدر السابق .

ومن ثم دعا النديم الى أن يعد خطب المساجد أعرف الناس
يشؤون الحياة ، وأقدرهم على التأثير ، وأن تشرح هذه الخطب
الموقف الحاضر في وضوح ، وتبين الأخطار المحيطة بالأمة في
جلاء ، وطلب من ديوان الأوقاف أن يسمح بالقاء هذه الخطب
في المساجد ، وأن تطبع وتنتشر في أنحاء البلاد ليصل صداها الى
كل قرية وبلدة ، وأعلن استعدادده للاشتراك في اعدادها ،
ووضع خطبة نموذجاً توضح غرضه . تتضمن المحافظة على
حقوق البلاد ، والنهي عن الظلم والبغى ، والدعوة الى الائتلاف
لمواجهة الأخطار التي تظهر دلائلها في الأفق ، والاتحاد مع
المواطنين من غير نظر الى اختلاف في الدين ، والتذكير بمجد
حصر السابق ، والتحذير من تمكين الأجنبي من وضع يده على
سياسة البلاد ، والتحرز من اتيان عمل يتخذ وسيلة لتدخله ،
ومعاملة النزلاء الأجانب بالحسنى ، من حفظ حقوق تجارتهم
وعدم الاساءة اليهم .

مثل هذه المعانى يريد النديم أن يطرق بها الخطباء آذان
الأمة كل أسبوع ، ولو تم ما دعا اليه - وهو ما لم يتم الا من
عهد قريب - لتبدل الحال غير الحال ، ولاستيقظ « الرأي
العام » المصرى في أنحاء البلاد ولتعجل الأحداث عشرات
السنين .

ولم يكن النديم من الغفلة بحيث يجهل سياسة رياض في
عقاب من يجترى على لقد حكمه ، فالنفي الى السودان أخف
أنواع عقوباته . وكان يدرك طرق الأتراك - وهم أغلب طبقة

الرأسمالين - في تأديب من ينال منهم ، وخاصة اذا كان من الفلاحين (المصريين) ، فالاعتقال بالخنق أو الخازوق أو الطعن بالخنجر أو الاغراق أو دس السم وسائلهم المعروفة في الانتقام ممن عيس قدسيتهم . كان النديم يعرف كل ذلك ، ويحس الخطر الذى يتهدده فى كل لحظة ، ومع ذلك فقد استمر فى الهجوم عليهم جميعا ، لم يبال بشئ ، ولعله كان قد وصل الى مرحلة التصميم فى أن يقدم نفسه قربانا لوطنه على مذبح الجهاد فى سبيلها ، وهى مرحلة لا يصل اليها الا ذوو العزم ممن وصلوا الى مرتبة البطولة الوطنية .

أغلب الظن أن محادثات سرية دارت بين النديم وهو يطوف بالبلاد وبين رسل زعماء الحركة الثورية فى الجيش ليكون لسانا ينشر بين الناس دعوتهم ، ويهيئ أذهان الشعب ، وخاصة الفلاحين ، للثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية ، وليؤيد رأى العام الحركة التى كانوا يعدون لها فى حذر وكتمان .
والذى يدعوننا الى هذا الظن أمران :

أولهما : أن خطب النديم ومقالاته فى هذه الآونة كانت توحى بأن ثمة تغييرا فى الأوضاع سوف يقع قريبا ، ومن ذلك ، ما يقوله لنفسه :

« فأنظرينى أسبوعا أو أسبوعين ، فان أنا صرت فى ثانى العالمين ^(١) فقد أرحتك من الاتعاب ، وان ظهرت فى طور جديد

(١) بفشل حركة الجيش وانتقام خصومه منه .

حملتك على أخطار وأتعب يكون لك بهما عند الله الحسنى
وزيادة ، ودعيتى من الخلق فالسمى اليوم والجزاء غدا
عند الله » (١) .

وفى مكان آخر يقول :

« ان لى سنوات ثلاثا أبارز الجهالة بسلاح الحث على
افتتاح المدارس وعينت الشهود من الجمعيات وجريدة التنكيت
.... وعما قريب سننتصر على أعداء الوطن » (٢) .

وكأنه كان يعرف ما ينتوى الجيش عمله من ثورة قريية .

وثانيهما : أن رياضاً حين جاءته عيونه وأرصاده بخبر اتصال
النديم بمنظمة الجيش ودعوته لها فى البلاد ليجمع القلوب عليها
كتب قراراً فى مجلس الوزراء بنفيه من الديار . وكان محمود
سامى البارودى وزير الحرية مندوباً سرياً للمنظمة فى مجلس
الوزراء ينذرهم بكل ما يدبر ضدهم فى الخفاء فأنبأهم بالأمر ،
ولما عرض رياض قرار النفي على الحديوى فى الديوان ليصدق
عليه تصدى له على فهمى قائد الحرس الحديوى ، وقال : « ان
ندبنا منا معشر العسكريين ، وان لم يحمل سلاح العسكرية
ولئن أخذتموه بغتة من البلاد حافظنا عليه بالأرواح والأجناد » (٣)
وألقى القرار ، وقصرت يد رياض أن تنال النديم .

(١) التنكيت ١٨٨١/٧/٢٤ من ١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) التنكيت ١٨٨١/٨/٢١ من ١٧٠ .

(٣) تاريخ مصر ص ٥٦ .

وسارع على فهمى الى ميت غمر ، حيث كان النديم يواصل
جولته فى البلاد ، وأخبره بما حدث بينه وبين رياض ، ثم عرض
عليه أن يدعو علانية لحركة الجيش بقلمه ولسانه ، وبسط
له الخطة الكاملة التى يعدها الجيش لتصل بالبلاد الى ما تريده
من حرية ومساواة بين المصريين والأتراك ، ومن حكومة
دستورية تظلها الشورى تخلص الأمة من الطغيان ومن النفوذ
الأجنبى .

لسان الثورة ومستشارها

ولاقَت الحُطّة استجابة كاملة وتأييدا تاما من النديم ، وبدأ يعلن على الأشهاد في البلاد التي يطوف بها — انضمامه الى منظمة الجيش ، وينادى في الناس بالاجتماع حولها حتى تخلصهم من حياة العبودية والظلام .

« وأعلنت حب العسكر والتعويل عليهم ، وناديت بانضمام الجموع اليهم ، وأوغلت في البلاد ونددت بالاستبداد ، وتوسعت في الكلام ، وبينت مثالب الحكام الظلام ، لا أعرفهم الا بالجهلة الأسافل ، ولا أبالي بهم وهم ملء المحافل » ^(١) .

ولم يلبث النديم حتى سافر الى القاهرة ليلقى قائد حركة الجيش . وأحله أحمد عرابي منزلة قريبة من نفسه وأصبح من أنصاره ، واتخذة مستشارا يستنير برأيه في كثير من الأمور « وقويت الحركة الوطنية بانضمامه اليها » ^(٢) ورأى الضباط في قلمه ولسانه وليمانه بوطنه أكبر عضد لهم ^(٣) .

وصار النديم بذلك أول عضو مدني ينضم الى منظمة الجيش وهي في دور التكوين وعلى أول طريق الاندفاع

(١) تاريخ مصر ص ٥٦ .

(٢) تراجم اميان ص ١٧ .

(٣) الثورة العربية ص ٥٣٢ .

الثورى ، وأصبح فيما بعد خطيبها الرسمى ، وداعيتها الأكبر ،
والتحدث بلسانها . وعاصر النديم الحركة الثورية من مبدئها
بعد أن اشترك فى التمهيد لها بين الجمهور بخطبه ومقالاته
وجمعياته ، وبذلك بدأت أخطر مرحلة فى حياته هى المرحلة
السياسية الايجابية .

وعن هذه الفترة يقول النديم :

« وبهذه المقدمات تمت المعدات ، ودارت رحى الأفكار
واتجهت الى الغاية الأنظار . وجرى خلفنا فى هذا الطريق رجال
واصطك ركايبهم يركابنا فى هذا المجال . ولم يدر ما قصدنا الا
العقلاء وقليل ما هم ، ولكنهم جموع دعوناهم فنبهناهم ، بهم
اتسع نطاق هذه العصاية وتعددت محافل الخطابة ، ومشى العقلاء
بين الظلمة بالموافقة ، وأظهروا لهم الصلبة والمرافقة ، فاذا خلوا
باخوانهم زجروا ووعظوا ، ونهوا وأيقظوا وحركوا الهمم
الساكنة ، وبينوا الأسرار الباطنة ، وحشوا على الاتحاد وترك
التضامن والأحقاد ، وتوحيد الكلمة لآبادة الظلمة ، والتذرع
باليقين لحفظ الوطن والدين . والوشاة تدور حولنا ، والعيون
تنقل قولنا ، والأعداء ترقبنا ، والجهلة تغاضبنا ، والظلمة
ينتظرون غلطتنا ، والأجانب تلاحظ حركاتنا ، ونحن كالسحاب
فى لطف السير ، والسحرة فى جذب الغير ، فوقع رياض فى تيار
الأوهام ، وتنبه لسوء فعله العوام ، وانفتح أمامه باب الارتياح ،

وأغلق دونه باب الصواب اذ جعل الحزب العسكرى مطمح
الأنظاره ، ومعاكسة أمرائه مجال أفكاره ^(١) .

ولكن المد الثورى كان قد وصل الى القرى والكفور بعد
أن أعلنت الحركة سعيها فى مطالب الأمة وتأييدها للنضال
الشعبى وأصبحت النذر كلها تعلن عن مطلع فجر جديد .

وخرجت التنكيت ^(٢) تحرك الأمة من جمودها وتنهى اليها
أن الجمود يقتل الفكر ويعدم الذكر ، وتطلب أن تنبّه الى
ما يدور حولها من أحداث .. وأن تتحرك لتطلب الحرية وتخلع
عنها ثوب العبودية .. لكنها توصى أن يكون طريقها فى ذلك هو
الاعتدال اذ أن الاعتدال طريق النجاح ^(٣) .

(١) تاريخ مصر من ٥٧ - ٥٨ .

(٢) شملت الاحداث النديم فلم يصدر العدد ١٢ من المجلة فى موعده

١٨٨١/٨/٢٨ بل صدر فى ١٨٨١/٩/٤ .

(٣) التنكيت والتبكيك ١٨٨١/٩/٤ من ١٨٧ .

ضرورة الثورة

لقد أثبتت التجربة ، وهى ما زالت تؤكد كل يوم ، أن الثورة هى الطريق الوحيد الذى يستطيع النضال المصرى أن يعبر عنه من الماضى الى المستقبل . فالثورة هى الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها مصر أن تخلص نفسها من الأغلال التى كبلتها ومن الرواسب التى أثقلت كاهلها ، فإن عوامل القهر والاستغلال التى تحكمت فيها طويلا ونهبت ثرواتها لا تستسلم بالرضا ، وكان لا بد للقوى الوطنية أن تصرعها وأن تحقق عليها انتصارا حاسما كلما أمكنها ذلك .

والثورة هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على التفرقة العنصرية التى كانت تسيطر على العقلية التركية المتحكمة فى مصر ، وهى الطريق الوحيد للقضاء على الدخيل سواء فى ذلك الأسرة الحاكمة التى اتخذت من مصر مزرعة لها ، ولأصهارها ومحاسبيها ، أو النفوذ الأجنبى الذى توارى خلف الأسرة الحاكمة يحميها من الشعب بقدرته ونفوذه فى سبيل استنزاف ثروة البلاد .

وقد يقال ان رأس الأسرة الحاكمة التى نعددها دخيلة هو الذى أسس الدولة الحديثة فى مصر ، ولكن المأساة فى هذا العهد هى أن محمد على لم يؤمن بالشعب الذى مهد له حكم مصر الا بوصفه جسرا يعبر به الى مطامعه . ولم تكن النهضة بالشعب مقصودة لذاتها بل بطاقة والى درجة تحقق هذه المطامع

يومع ذلك فقد استطاع الشعب المصرى - والحضارات القديمة
تسرى فى دمه - أن يحول هذه النهضة الخاصة الى يقظة مصرية
وما ان بدأت تحقق وجودها حتى أصابتها النكسة على يد
الأسرة الحاكمة نفسها . تلك النكسة التى فتحت الباب للتدخل
الأجنبى فى مصر على مصراعيه بينما كان الشعب قبلها قد رد
بتصميم ونجاح محاولات غزو متوالية لأراضيه .

وعاشت مصر فى هذه الفترة تجربة مروعة استنزفت فيها
كل امكانيات الثروة الوطنية لصالح القوى الأجنبية ، ولمصلحة
عدد من المغامرين الأجانب الذين تمكنوا من السيطرة على أمراء
الأسرة الحاكمة وساعدهم على ذلك فداحة النكسة التى أصيبت
بها حركة اليقظة المصرية .

على أن روح هذا الشعب لم تستسلم ، وانما استطاعت ،
تحت للحن العvisية فى هذه الفترة ، أن تخرزن طاقات تحفز
لإطلاقها فى اللحظة المناسبة . وكانت الطاقة الكبرى التى انطلقت
كرد فعل ضد النكسة هى ثورة الجيش .

ولكن لماذا هو الجيش دائماً يبدأ الحركات الوطنية الثورية
فى الشرق ؟

ان تدخل الجيش المصرى كقوة سياسية فى مصر عام ١٨٧٩
كان بدء مرحلة جديدة فى تاريخ مصر الحديث فقد بدأ التفكير
فى هذا التدخل اثر هزيمته فى الحبشة تلك الهزيمة التى لم يكن
مرددا الجبن أو التقصير من الجنود ، ولكن الى قلة الذخيرة

وسوء الادارة وقيادة المعركة الدائرة في قلب القارة السوداء
من القاهرة والتاريخ يعيد نفسه ، وما أشبه الليلة بالبارحة !

وكانت موجات من التندر والاستخفاف بالقواد الكبار
الذين برهنوا على عدم كفاءة في الحرب تسرى في قلوب
الضباط الصغار العائدين من المعركة ، وكلهم من المصريين
الفلاحين . وزاد من الاستياء والسخط استئثار أولئك الضباط
الكبار غير الأكفاء — وكلهم من الجراكسة — بالمناصب الرئيسية
في الجيش ، وحرمان الضباط المصريين منها . واشتد الشعور
بالكراهية من القسوة والمهانة والظلم التي كان يعامل بها
الشعب المصرى على اختلاف طبقاته — والضباط منهم — في
جمع الأموال لسداد الديون الأجنبية وصيانة مصالح حصة
القراطيس المالية من الأوربيين . وحتى يتوفر المال اللازم لسداد
الأقساط حرم الضباط المصريون من مرتباتهم وفصل منهم ٢٥٠٠
عام ١٨٧٩ في الوقت الذي كان الضباط الكبار يستولون فيه
على مرتباتهم الضخمة كاملة غير منقوصة . وعاد الضباط من
أولاد الفلاحين الى بلادهم فوجدوا أهلهم يئنون من الفقر
والمسغبة والظلم بعد أن ساءلهم الحكام سوء العذاب وبيعت
دوابهم واتزعت ممتلكاتهم وفاء لهذه الأقساط .

واندلعت الشرارة الأولى من المدرسة الحربية في ١٨/٢/١٨٧٩
حين خرج طلبتها في مظاهرة يجوبون شوارع القاهرة ،
وفي مقدمتهم الضباط المفصولون يطالبون بإسقاط الوزارة

الأوربية^(١) . وانضمت اليهم جماهير الشعب تعلن عن سحقها وغضبها من السياسة العامة للأمة .

وسقطت الوزارة الأوربية . وكان هذا العمل الجريء بمثابة شرارة كهربائية في جو مفعم بالسخط والنذر . فهاج هائج النفوس ، وبدأت مظاهرات المدنيين واجتماعات المشايخ والأعيان والعلماء وألفوا منهم وفودا قابلت الحديو ليضع حدا للأساسة التي يعيش فيها الشعب المصري ، وطلبت اليه أن يكون للأمة نصيب في حكم البلاد .

هذا الحادث ان دل على شيء فانما يدل على أن الجيش المصري يتدخل في اللحظة التي يبلغ فيها الفساد مداه ونهايته ، ويطفح فيها كيل اليأس من الاصلاح .

واذا كان الجنود يتدخلون في اللحظة الحرجة ليعبروا عما يضطرم به قلب الأمة من ثورة ولينقذوها مما تعانيه فلأنهم — ولا يزالون — العامل الأكبر في الحركات السياسية ، لهم وحدهم من القوة والاتحاد ما يمكنهم من تحقيق أغراضهم . ويجب ألا يغيب عن الأذهان أن كل مصالح الدولة ومرافقها وقتذاك كانت قد تغلغت فيها الرقابة الثنائية وسيطرت عليها وحوورتها . ولم يكن هناك هيئة وطنية تملكها مصر دون تدخل الأجانب غير الجيش . ومن هنا نرى أن الجيش كان مقدرًا له أن

(١) وزارة نوبار باشا ، وكان فيها وريران أودبيان : وزير انجليزى للعالية ، حوزير فرنسى للاشغال : وكان بيدهما الامر . وبقية الوزراء المصريين لعبه في ايديهما ، ومن ثم اطلق عليها اسم « الوزارة الأوربية » .

يلعب دورا مهما في السياسة الوطنية التي لم يكن هناك بد من ظهورها ، وبوصفه الهيئة الوحيدة التي كانت وقتذاك بعيدة عن المراقبة ، وكانت على شئ من النظام والقوة أصبح نقطة الارتكاز الطبيعية التي تجمع حولها السخط القومي الذي لم يكن هناك مفر من ظهوره عاجلا أو آجلا .

ولو أن الحديو والأوربيين الذين كانوا يديرون دفة الشؤون المصرية أوتوا شيئا من الحكمة وحسن السياسة ، ووافقوا على مطالب الأمة من تنظيم الضرائب والاستعانة بنواب الأمة في تسيير دفة البلاد ، لعادت الأمور الى نصابها ، ولعاد الجيش الى ثكناته وحياته العادية .



وكانت القداحة التي أورت الشرارة الثانية هي الفروق الطبقة التي أخذت تظهر بشكل واضح في المناصب والمعاملة في صفوف الجيش بين المصريين والجراكسة ، وتسخير الجنود بأداء مهمات غير واجباتهم الرسمية من حفر الترع ومباشرة الأعمال الزراعية في أراضي الحديو ، كان هذا وذاك فرصة أظهر فيها الجيش تذمره مرة أخرى فكانت حركة أول فبراير ١٨٨١ تعبيرا عن هذا التذمر ونجح الجيش في تغيير وزير الحربية . ومن خلف حركة الجيش وقفت الأمة تساندها .

والحق الذي لا مراء فيه أن حركة الجيش في فبراير ١٨٨١ كانت لها عوامل أخرى غير استياء الضباط المصريين من إيثار زملائهم من الجراكسة بالمناصب الرئيسية في الجيش . فالاستياء

وحده ما كان كافيا لأن يحدث اضطرابا ، ولا لأن يؤدي الى ثورة . فلو أن الأمر اقتصر عليه وثار الضباط من أجله لبقيت حركتهم محلية ، ولوجدت الحكومة من الأمة سندا يساعدها على اخماد هذه الحركة بانصاف المستأئين أو معاقبة المذنبين ، ولكنها لم تجد ذلك السند ، بل وجدت الأمة على بكرة أبيها مؤيدة للتأثرين عليها ، متحفزة للوثوب أمامهم الى الثورة ، فقصرت يدها عن أن تنالهم ، واتسعت حركة الضباط .

وقد أيد الشعب ثورة الضباط في فبراير ١٨٨١ لأنه رأى فيها انتقاضا على هيئة يعتبرها مصدر آلامه ، وكان يتهم رئيسها الأعلى توفيق بحرماته من أملة المرتقب في الإصلاح بعد أن كان منه قاب قوسين أو أدنى وقض عهده الذي جهر به قبل توليته عرش الخديوية ، وكان يبغض رئيس وزرائه رياضاً لكتاتوريته ويتعسف .

وكانت هذه الحركة ذات أثر كبير في ماجريات الأحداث ، فقد أصبح عرابي وزملاؤه بفضل عملهم الجريء الفعال موضع إعجاب الأمة وتقديرها ، واكتسب قائد الحركة شهرة واسعة ، وصار اسمه يتردد على الأفواه ، تذكره الأمة بالاعجاب كأول مصري فلاح استطاع أن يتحدى الطغيان ويقف ضد الطبقة . واعتبرت الأمة ما قام به عرابي عملا وطنيا مجيدا مع أنه عمل عسكري بحت الا أنه يبعث الأمل في أن تتبعه أعمال أخرى تؤدي الى حياة أفضل وتنقذ الأمة من الهاوية التي تتردى فيها . ولم تمض عدة أسابيع حتى صار عرابي قوة شعبية في البلاد

وهطلت عليه من جميع الأنحاء عرائض الفلاحين يشكون اليه
ظلاماتهم ، وأصبح بيته كعبة يحج اليها المواطنون من أصحاب
المصالح الحقيقية .

وأحست الطبقات المتعلمة المتطلعة الى الحياة الدستورية
أنها ليست قليلة الحيلة كما كانت تتوهم ، فان لديها في الجيش
قوة مادية متجمعة ، ولو أنها انضمت اليه ووحدت المسعى الى
الهدف لوضعت حدا عاجلا لشقاء البلاد .

وأصبح عرابي « زعيم الأمة الأواحد » ، وانضم اليه الزعماء
السياسيون ، وتلاقى الأهداف . ووجد أهالي البلاد كلمتهم
مع كلمة الزعماء العسكريين ، وكونوا حزبا واحدا أطلق عليه
اسم « الحزب الوطني » ^(١) تارة ، و « الحزب المصرى » تارة
أخرى ، وكثيرا ما أطلق عليه اسم « حزب الفلاحين » .

وأحسن الخديو ، ورياض رئيس وزرائه والنفوذ الأجنبى
خطر هذا الاتفاق . فبدأ كل منهم يفكر في طريقة للخلاص من
عرابي ورفاقه ، ليقضى على الحركة الوطنية التى أخذت تنتشر بين
أبناء البلاد . ولكن المؤامرات أخذت تكشف واحدة تلو
الأخرى ، فكانت تزيد من غضب الشعب ولجند معا .

وكان التطور الطبيعى للأمور أن تعلن المطالبة بالحياة
الدستورية ، غير أن عرابي لم يكن ليطمئن الى كثير من الزعماء
السياسيين الذين انضموا اليه ، فقد كان أكثرهم من الطبقة

(١) اندمج الحزب الوطنى الذى يرأسه شريف : فى الحزب الوطنى الجديد .

الرأسمالية الحاكمة المعارضة لحرية الفلاح ، وانما انضموا اليه ليتخذوا منه مخلب القط الذى تتحقق به أغراضهم ، وهى متباينة مختلفة ، فمنهم من يسعى لعودة سلطانه فى الريف ، ومنهم من يود عودة الحديو المنفى . وفريق آخر كانت فكرة الدستور عندهم تنحصر فى تخليص السلطة من الحديو ورياض ووضعتها فى يدهم لأنهم من الفئة التركية التى خلقت لتحكم .

وأشار النديم على عرابى أنه لكى يكون موقفه سليما أمام هذه التيارات يجب أن يكون ممثلا للأمة بكامل هيئاتها ، وخاصة الفلاحين من أبنائها . وأن ينيه الشعب عنه فى المطالبة بحقوقه والتحدث باسمه ومن ثم طبع منشورا يقول فيه :

« ان الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم ، ولم يكن مقصدها مؤديا الا الى اضمحلال البلاد وتلاشيها ، بما هو جار من بيع أراض كثيرة للأجانب ، ووجود كثير منهم فى ادارات الحكومة ومصالحها بالرواتب الفادحة ، والسعى فى رفع الأحجار الطبيعية الموجودة فى بوغاز الاسكندرية . وان سكوتنا واضرابنا عن ذلك يعد من العجز والجبن والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا . فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم المنتظمين فى سلك الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى ، ، وعزموا على منع كل ما من شأنه الاجحاف بحقوقكم . وذلك لا يتم الا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ، ليحصل الوطن على الحرية المبتغاة . فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة اليكم

في ضمن هذه النشرة . والكتابة المقصودة بها أن أكون نائبا
عنكم في كل ما يتعلق بأحوال البلاد أحمد عرابي ^(١) .

ووكل عرابي الى النديم مهمة توزيع هذا المنشور في
البلاد وجمع التوقعات من الأهالي . « فأخذ يجوب الأقاليم
القبيلية والبحرية ، ويدعو الناس الى نصرة زعماء العصاة ،
وكان عبد الله (النديم) هذا قوى الحجة ، فصيح اللسان ،
قولا ، سهل العبارات ، عذب المنطق ، مقلقا مهيجا بذلاقة
لسانه وقوة حجته وبيانه . وقد عرف عادات البلاد وأميال
أهلها ، فطفق يجوب المدن والقرى ويخطب في الناس ويقص
عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم ، ويصعد على منابر الجوامع
ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع ، فافتتن الناس ، ومال اليه
خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وحلب .

وعاد النديم الى القاهرة وهو يحمل في حقيته عرائض
موقعا عليها من أعيان البلاد يؤيدون فيها عرابي ومطالبه ...
وأطلق على هذه العرائض « المحضر الوطني » واتخذ عرابي
دليلا على اناة الأمة له ^(٢) .

وجاءت الى القاهرة من كل ناحية في اثر النديم وفود
الأعيان والمشايخ والفلاحين ليبياعوا هذا الزعيم الفلاح الذي
ظهر على مسرح السياسة ، وصدر نفسه للقيام بعمل بطولى لم

(١) سليم خليل النقاش : مصر للمصريين ج ٤ ص ٩٠ .

(٢) الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث المطبوع سنة ١٨٩٨ ص ٢٠٤ .

يقم به أحد خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، كي يخلصهم من الظلم الذي يفسد عليهم حياتهم^(١) .

وكان عرابى يستقبلهم فى منزله ، فيقف النديم فى كل وفد « يخطب الخطب المهيجة ، وينظم القصائد الحماسية ، ويندب الوطن ويرثيه ، ويحض على الاجتماع والتكاتف ونبد أذليل الأفرنج . فأثرت قائلته فى النفوس وأشربت القلوب »^(٢) . وأصبح المصريون مستعدين لبذل أرواحهم وأموالهم فى سبيل وطنهم وحررتهم .

(١) انظر مصر للمصريين ج ٤ ص ٩٠ .

(٢) لراجم اعيان ص ١٧ ، انظر ايضا تاريخ مصر ص ٥٧ .

الزحف المقدس

يوم ٩/٩/١٨٨١

بعد أن اطمأن عرابى الى أن الأمة قد استيقظت مشاعرها .
وأثبتته عنها في مطالبها زحف على رأس وحدات من آليات
الجيش في مظاهرة عسكرية الى ميدان عابدين في ٩/٩/١٨٨١
ليقدم الى الحديو باسم الأمة مطالبها « ولما وصل عرابى الى
عابدين حاصر الحديو والظلمين ، فنزل اليه الحديو وناداه
فسعى اليه عرابى ولباه ، فقال له ... لم جمعت حولى هؤلاء
العساكر ؟ فقال : نطلب سقوط الوزارة جالبة الغمة ، وفتح
مجلس شورى للأمة ، ووضع حدود للحاكم والرعية ، وسن
قانون لمعاش الجهادية ، فقال الحديو : هذا الطلب ليس من
وظيفتك ، فلم تظاهرت بشيعتك ؟ فقال عرابى : لست أطلبه وأنا
عسكرى الصفة ؛ بل أنا نائب هذه الأمة الواقعة ^(١) . ومن
هذا القول نستطيع أن نحكم أن القوات العسكرية لم تكن هي
صانعة الثورة بل كانت أداة شعبية لها . لقد كانت المهمة الكبرى
لهذه المظاهرة العسكرية في ذلك اليوم الخالد أن تصحح
الأوضاع ، وأن تعلن أنها اختارت جانب النضال الشعبى . ان
هذه الطليعة من الثوار قد خلدت عملها حين انضمت الى مكائنها
الطبيعى ، الى النضال الشعبى .

(١) تلويح مصر ص ٥٩ - ٦٠ .

وكان للنديم دور كبير في هذا الحدث التاريخي العظيم
تقد كان المدني الوحيد الذي اشترك مع العسكريين في الزحف
المقدس الى قصر عابدين ، و وكل اليه عرابي أن يحمي المؤخرة
من أن يصيبها الضعف أو يتسرب اليها الخذلان .

وترك القول في هذا الحدث التاريخي لعرابي نفسه اذ يقول
مخاطبا أبناء الشرقية في حفل أقيم له عقب يوم النصر :

« ... تحركت فينا الحمية والغيرة الوطنية ، فتعاقد أولادكم
في الجهادية على حفظ البلاد ووقاية أميرنا من كل سوء . وسرت
بهذا الجيش ، ووقفت بساحة عابدين . واشتدت شوكة جيش
البغى وقويت معارضته . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا
زلزالا شديدا . فجال صديقي الأعز الهمام صاحب الغيرة والعزم
القوى السيد عبد الله نديم بين الصفوف ينادى : « وان طائفتان
من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احدهما على
الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء الى أمر الله » . فكان معي
ثاني اثنين في حفظ قلوب الرجال من الزيف والارتجاف ، وأخذ
الكل يردد هذه الآية الكريمة ، كأنهم لم يسمعوها الا من فمه
في تلك الساعة » (١) .

وثبتت النفوس وقويت العزائم ، ووقف عرابي على مفرق
جبين الزمن وقفته التاريخية ، وقدم للخديو مطالب البلاد باسم

(١) أحمد عرابي : كشف الستار عن سر الاسرار : ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، انظر
أيضا التنكيث والتبكيث ص ٣١٦ .

الشعب ، وانتصرت الأمة بواسطة جيشها ، ونالت مطالبها ،
ف عزلت رياض المستبد ، وأعلنت الحياة الدستورية .
واستيقظ الناس من حلمهم الطويل فاذا الجيش قد حقق
لهم آمالهم وأمانهم .
ويصف الكاتب الأجنبى « بلنت » الذى عاصر الحوادث
فرحة الشعب فيقول :

« يسرنى أئنى حظيت بمشاهدتها بعينى رأسى ، ولو أئنى
كنت سمعت بها سماعا لشككت فيها . وعندى أئنها لم يكن لها
شبيه فى الأيام التى رأيتها فى مصر . وأخشى أن تكون مقطوعة
النظير فى الأيام التى يمكن أن أراها فيها ... تصاعدت من أنحاء
مصر صيحة فرح وسرور لم يسمع مثلها على جوانب النيل منذ
مئات السنين . وقد حدث فعلا أن الناس كان يستوقف بعضهم
بعضا فى شوارع مصر ويتعاقون على غير تعارف سابق ،
ويتهجون معا لعهد الحرية العظيم الذى بدا لهم فجأة كما يبدو
الفجر بعد ليل مخيف طويل » .



حدد القدر خطوات النديم باشتراكه فى المظاهرة العسكرية
التي صنعت تاريخ مصر الحديث . ودخل بذلك من نافذة
التاريخ الكبرى رائدا من رواد الحركة الوطنية ، وعضوا مشترك
بعمله الايجابى فى دفع الزحف القومى الذى انطلق من عقاله بعد
أن اشترك فى التمهيد له من قبل بخطبه ومقالاته وجمعياته .
وتولى النديم مهمة الاعلام للحركة الوطنية والدعاية لها ،

وإرشاد الشعب الى الطريق الصحيح اليها . وكانت خطبه وصحيفته وسيلته في كشف الحجب التي أسدلت على عيون المصريين من مئات السنين ، فلم يعودوا يعرفون من أمور أنفسهم ووطنهم شيئا . وأخذ يوجه الشعب الوجهة الوطنية الصحيحة في عهده الجديد .

ومع أن النديم اتخذ القاهرة مقرا له حتى يكون قريبا من تطورات الأحداث بقيت صحيفته تصدر من الاسكندرية ^(١) عدها بمقالاته الوطنية الرائعة التي تتناول مشكلات الساعة ، فيكتب في الاتحاد ، وفي حقوق الحاكم وحقوق الشعب ^(٢) ، وفي الحكومات المستبدة وقتلها للنفوس وفسادها للأخلاق ^(٣) . ويكتب عن الأتراك الذين أذلوا البلاد ، وعن اسماعيل الذي غرق في شهواته وجلب الدين والخراب على البلاد بتمليك الأجانب ثروة الأمة ، وعن رياض واستبداده ، ثم عن الحرية التي نالها الشعب بفضل أبنائه الفرسان ^(٤) . ثم يكتب عن التحكم الأجنبي في اقتصاديات البلاد ، ويطالب بانتهاء الصناعات وتشجيع الوطنى منها ومحاربة المنتجات الأجنبية .

وحين ظهرت في الأفق اشاعات التدخل الأجنبي من أوروبا وتركيا في شؤون البلاد الداخلية وانتظار الفرصة لهذا التدخل ،

(١) يشرف عليها هناك صديقه أحمد سمير .

(٢) التنكيث ١٨ سبتمبر ١٨٨١ .

(٣) التنكيث ٢ أكتوبر ١٨٨١ .

(٤) التنكيث ٩ أكتوبر ١٨٨١ .

كتب النديم يحذر المواطنين من عمل طائش تنذ
ذريعة لمآربها ، وشرح حقوق الانسان التي يجب أن
الأجانب المقيمون في بلادنا ، وحذر الشعب من الله
الأجانب ، ودعاهم الى عدم تصديق الاشاعات والدم
حذر الأمة من الدول الأوروبية والتركية جميعا ، « فم
كبرى تريد الفتك بمن ضعفت قوته وتعددت كل
لخذلان ، والعامل من يقف على بواطن الدول وما
السياسية فلا يغتر بقول جريدة ليس لنا تدخل في مصر
أنها تصدر عن لسان أمة لها مائتا عام تحاول حل عر
لتختل بلادنا ^(١) ، ولا يركن لقول أخرى ان الباب اله
أن يتدخل في هذه المسألة ، فانها تريد وقوع ال
المصريين وغيرهم لينشب الفشل بين المسلمين ... عار
اشتغل بنا السياسيون ووقفنا نلعب ونساعدهم عا
بخذلانا وعدم اتحاد قلوبنا ... هلا جعلتم المجالس
في العواقب بدل جعلها نادي شراب ومغان ؟ » .

ثم فضح الامتيازات التي منحها اسماعيل للأفاقيز
التي « قدمت الأجني على الوطنى فى كل أموره :
التعرض له بشيء من الجزاء وان أساء ، وجعلته يعاقب
وان كان محقا ، فترى الأجني يشتم ويضرب ،
لا يتحرك ولا يتكلم بغير قوله « معلش يا خواجه » :

(١) يريد بذلك « التيمس » ، فقد كتب عدة مقالات في سبتمبر
فيها أن انجلترا لن تتدخل في شؤون مصر الداخلية .

الناس أن مجلس المخالفات عادل ينصف الوطني من الأجنبي
ويأخذ له بحقوقه ما سكت على الاهانات ، ولكن النتيجة
معروفة له قبل الشكوى ... » (١).

وهذأت الأمور بعد اضطراب ، وبدأت مصر تشعر بنوع
من الاستقرار في عهد الوزارة الدستورية ، وتنحى العسكريون
عن مسرح السياسة ، وعادوا الى معسكراتهم يرقبون الأمور
بعين حذرة ويتبعون الاصلاح المنشود من الوزارة الجديدة .
وبعد أن صدر المرسوم باجراء الانتخابات اطمأن رجال
الجيش ، وحتى لا يظن أنهم يتدخلون في السياسة أو يؤثرون في
سيرها استجاب زعمائهم الى الأوامر التي صدرت اليهم للابتعاد
عن العاصمة ، فخرج عبد العال حلمي على رأس الآلى
السوداني في أول أكتوبر ليعسكر في دمياط .

وكانت مظاهرة كبرى خرج فيها الشعب والجيش ليودعا:
بطلا من الأبطال الفرسان الذين ألقوا بالبلا من حياة الذلة ،
وفتحوا لها باب الحرية .

وكان يوما من أيام خطيب الثورة ، فقد وقف في الجموع
المحتشدة في المحطة وألقى خطابا موجها الى الضباط والجنود
بدأه بقوله : « حماة البلاد وفرسانها » .

« من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث
والنوازل عرف مقدار ما وصلتم اليه من الشرف وما كتب لكم

(١) التنكيث ١٠/٩/١٨٨١ .

في صفحات التاريخ من الحسنيات فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم اليها سابق . ولا يلحقكم في ادراكها لاحق ، ألا وهي حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنهما ، فلكم الذكر الجميل والمجد المخلد ، يباهى بكم الحاضرين من أهلنا ويفخر بأثركم الآتي من أبنائنا ، فقد حيى الوطن حياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقي فان الأمة جسد والجند روحه ولا حياة للجسم بلا روح ...

« ولقد ذكرت باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تغيب سيدنا عثمان في أهل مكة من مبايعته أهل الشجرة على استخلاص صاحبهم فصاروا يعنونون بالعشرة المبشرين بلجنة ، وأتمم قد تعاهدتم على حفظ الأوطان ... وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم ، من كل ما يذهب بالثروة أو يضعف القوة أو يخذش الشرف فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ...

حماة البلاد :

« هذا أخوكم الحر يودعكم ويسير باخوانكم الى دمياط فاجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم الأتس في احكامه ، فقد زالت موانعنا التى كانت تجر الى الفساد ، والأنس دار رحيقه بين الجيوش أولى الرشاد . ولا تَعمر الدنيا اذا لم يترك الخلق العناد . فالأرض تنبت زرعها لحياتنا بالاتحاد ...

وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهاد عند النوازل أن يقال : مات شهيد الأوطان .

فنادى الجميع : رضينا بالموت في حفظ الأوطان ، ووقاية أميرنا من كل ما يمس سلطته ^(١) .

وصحب النديم الآلاى الى دمياط « فلما وصل اليها ألقى خطابا حماسيا في الجماهير المحتشدة هناك ، مدح فيه عرابي وحزبه ، ولقبه بمحرر البلاد » ^(٢) .

وكان يوم ٦ أكتوبر يوما مشهودا من أيام القاهرة أخذت فيه زيتها وخرجت على بكرة أبيها تودع ابنها الثائر وتحيي عرابي بطل التحرير وهو خارج بالاية ليعسكر في رأس الوادي . وتجمعت الحشود في ميدان المحطة ، ودخل عرابي منهاها ويده في يد النديم ، يشقان طريقهما وسط الجموع الغفيرة من المستقبلين في جهد وعناء ^(٣) ، وبعد أن خطب عرابي في الجمع يحييهم ويشرح لهم دوافع الثورة طلبت الجماهير « خطيب الثورة » فوقف النديم على مرتفع وخطب يقول :

« سادتي واخواني وآبائي ...

أروى أمة بلغت مناهي بغير العلم أو حد اليماي
« قضت علينا الشقوة بوجودنا في زمن الحسف ومدة .

(١) التنكيث ١٨٨١/١٠/٦ .

(٢) مصر للمصريين : ج ٤ ص ٦٤ - ٦٥ .

(٣) وصف الوكب وما قيل فيه من خطب : انظر التنكيث والتبكيث .

١٨٨١/١٠/٦ ص ٢٢٥ - ٢٨٠ .

الاستعباد فرأينا المشنوق من أهلنا ، والمصلوب والمذبوح
والحريق والموضوع على الخازوق والمشرد والمغرب والمنفى
والمسجون والمنهوب والسلوب ولا ذنب لنا في هذا كله الا عدم
المحافظة على البلاد .

« ثم رأينا الدور الثاني فشهدنا جنازة المسموم والمخنوق ،
وودعنا المنفى ، ولا جناية لنا الا المطالبة بحقوق الأمة .

« ثم وصلنا الى الدور الثالث فرأينا مساعدة الأجنبي اكرامه
وتكثير العطية وتسليمه أزمّة الكثير من أشغالنا ، واذلال
الوطني وضياع حقه وتركه في زوايا الالهمل . فوقفنا عند هذا
الحد وسعينا في طريق الاتحاد وجمع القلوب . وكنا لا ننطق
بمثل هذه الأصوات الا في خلوة بصوت الهمس ، ثم رفعنا بها
الصوت الى حيث يسمع من يضع أذنه على فهم المتكلم ، ومازلنا
مجددين في هذا الطريق الخطر حتى أعربت الجيوش عن ضمائنا ،
وترجمت الحمية عبارتنا ، ونادى الجند المظفر المنصور بحقوق
الأمة ... فنحن الآن ننادى بألستنا بصوت يسمعه القاصي
والداني : يموت الاستبداد وتعيش الحرية ، يعدم المستبد
ويبقى جيش الحمية .

« ولكن قد قال قبلي شاعرنا العربي :

الرأى قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهى المحل الثاني

« وقد أخذتم بالحزم وتمسكتم بحبل الاتحاد حتى رفعتم الى
المقام الأعلى .. وليست الحرية تتبع الشهوات البهيمية والأغراض

لذاتية ، وانما هي معرفة الحقوق والواجبات والسير نحت لواء
الإنسانية بالتؤدة والسكينة

« وقد كفاكم من الفخر أنكم ملكتم زمام الحرية مع حفظ
الأرواح والأعراض بعد أن علمتم أن فرنسا أهلكت في حرب
الباستيل عشرات الألوف من الأرواح ...

« هذا أخوكم الجليل السيف المجرد لحماية بلاده يودعكم
ويسافر الى رأس الوادي لا باكره ولا ارغام ، انما يتبع
أفكار رئيسه لجليل ويسافر طوعا للأوامر لتقطع ألس الأعداء ،
وتسكن الأراجيف ، ويعلم المحب والمبغض أن الوطن في هدوء
عظيم وأهله في طاعة لا يشوبها عصيان فاسألوا الله له ولاخوانه
السلامة ... وكونوا على سيرهم من الألفة واحياء كلمة الوطنية
فكلكم وطني وان اختلفت المقاصد وتباينت الذوات ... »
وما ان انتهى النديم من خطابه حتى عاقه عرابي وقبل
ما بين عينيه (١) .

ورافق النديم عرابي في سفره ، وكان يخطب الجماهير التي
تجمعت في كل محطة على طول الطريق لاستقبال بطل الثورة .
وفي الزقازيق - كما يقول النديم - « كانت الجماهير الكثيرة
في انتظار الركب ، وبعد أن خطبهم عرابي نادى الجميع باسمي
فخطبتهم ، ثم استعادوني بعد الفراغ ، فعدت وخطبت بحفظ
الوحدة والتمسك بالحرية » (٢) .

(١) انظر التنكيك والتبكيك ١٠/١٠/١٨٨١ .

(٢) الرجوع السابق .

وخرجت « التنكيت والتبكيت » في عددها التالى لسفر رجال الجيش تصف للذين لم يكونوا فى القاهرة مواكبهم والخطب التى قيلت فى وداعهم مصدرة بمقال وطنى تحت عنوان : « زفاف الحرية فى مصر » يناجى النديم فيه أمه مصر مباحيا بما فعل الأسود من ابنائها .

وحين أخذت البلاد تتأهب لانتخابات مجلس النواب أخذ يصير الشعب بالحكم الديمقراطى السليم . ويحارب الاحتكارية فى السياسة وحكم الأقلية من الأغنياء والسياسيين المحترفين فكتب مقالا رائعا تحت عنوان « درس تهذيبى » جعله على هيئة محاوره بينه وبين تلميذ له وكتبه بطريقته الرمزية ورمز للوطن بالمدرسة وللشعب بالتلاميذ وللخديو بالناظر ولرئيس الوزراء بالضابط . هذا المقال يضع النديم فى صفوف الرواد للحكم الديمقراطى فى مصر ، وفى مقدمة الذين نادوا بانصاف الطبقة الفقيرة العاملة واشراكها فى حكم البلاد .

لقد سبق النديم زمنه بقرن كامل ولو أنه بيننا اليوم وردد ما كتبه لما وجدناه غريبا علينا ولا بعيدا عن واقعنا الذى نعيشه . كان يرى أن التخلف والاستبداد هما المفجر الحقيقى للثورة وكان يرى أن التقدم هو الغاية الكبرى منها .

كان يؤمن بأن يسود المجتمع العدل والمساواة . وهو ما نعبّر عنه بالاشتراكية فى واحدة من صورها . وكان يرى أن توضع السلطة فى يد الشعب لا فى يد طبقة الرأسمالية أو الأتراك المستغلين للدخلاء وهو ما يمكن أن نعبر عنه اليوم بالديمقراطية .

ولو أننا جردنا مقاله عن الرمز لاستخلصنا منه قيما سياسية واجتماعية تحتفظ بجوهرها حتى اليوم في مجتمعا .

يقول النديم في محاوره بينه وبين تلميذه :

« الشورى هى غرس الأفكار فى أرض التبادل : وسقيها بماء الحرية وخدمتها بيد الاعتدال لتثبت العدل وتزهر الحق. وتثمر العمران ... ولا يقوم بها الا عاقل عالم بأحوال الدول الأخرى واتجاهاتها ، خبير بأحوال أمته وحاجاتها ... حر فى فكره لا يرى الا منفعة وطنه بحيث لا ترهبه الظواهر ولا تخيفه الهيئات .

التلميذ : وهل يوجد فى وطننا من فيه أهلية لذلك أو جامع لهذه الحصال غير الأغنياء والوزراء ؟

النديم : لا يخفاك أن الوطن فيه الذكى والبلید ، والغنى ، والنبیه ، والغنى والفقير ، والأمير والحقير ، فان كان الانتخاب قاصرا على الأغنياء دون الأذكياء كان مجلس النواب وبالا على الشعب والوطن .

التلميذ : من أين يأتى الوبال وهم من أهل الوطن الحائزين للرتب العالية وهم أدرى بحال الوطن وصالح المواطنين .

النديم : لا يخفاك أن ابن الغنى مولع بالاستبداد والاستعباد فهو يميل الى استخدام الفقراء بلا مقابل ، وضرب الضعفاء من غير أن يعارض أو يحاكم. وهذا بعينه هو الاستبداد المضرب الشعب :

على أن أباه اذا كان من حكام البلاد فانه أدرك
الثروة بنهب الفلاح وظلمه فان أغلب الحكام
متسلطون على المحكومين تسليط الهواء على
النار يضربون ويحبسون وينهبون ... ومن كانت
هذه أفعال أبيه كان بعيدا عن الحق . أجنبيا من
الانصاف . لا يميل للمساواة ولا يعترف للفقير
بحق معه في الوجود . فوجود مثله في مجلس
النواب علة لزيادة هلاك الشعب فيشرعون من
القوانين ما يضمن مصالحهم ليضعفوا بذلك حدة
أذهان الفقراء ويحبسوا الثروة لأنفسهم ..

التلميذ : وان كان من أولاد الأتراك الذين تولوا مناصب
الرئاسات في الدولة .

النديم : اعلم أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره . ولا
نحكم على الرؤساء الأتراك الا بعد معرفة أسباب
ثروتهم ، فان كانت بجدهم واجتهادهم كانوا
أحرص الناس على حفظ الهيئة الاجتماعية . وان
كانت بطريق الظلم والنهب والرشوة كانوا أشد
ضررا لحبهم الظلم الذي صيرهم في هذه الثروة
بعد أن كانوا لا يملكون قوت يومهم ... ومن
هذا القسم من لم ير الريف ولا يعرفه فكيف
يكون نائبا عنه .

وقد يكون فيهم كثير من أهل الخبرة

والدراية ... ولكن حبهم لذاتهم يعطل كثيرا من
المنفعة ويجلب كثيرا من الضرر . فاذا وجدوا في
مجلس النواب ولم يكن معهم أحد من النبهاء
الأذكياء من أهل البلاد كان نواب هذا المجلس
عبارة عن لعبة يديرونها كيف شاءوا . فاذا
تشكل المجلس من هذين القسمين : (الرأسمالين
المصريين والرؤساء الأتراك) جعلتكم الدول
رواية تياترية يشخصونها في المحافل ليضحكوا
على أهلها .

كل هذا اذا كان المجلس مطلق الحرية في
أفكاره لا يتعارض في المصلحة ولا يتلزم بشيء
لم يقر عليه ، أما اذا كان مقيدا بما يصدر اليه من
الوزراء فلا تسأل عن أعضائه وأهله فانهم
صورة وهمية لا حقيقة لها ولا أثر ...

التلميذ : وهل يحتل الشعب اطلاق حرية الأفكار قبل
أن يتدربوا على أعمال المجلس واستخدام هذه
الحرية ؟

الشيخ : نعم يحملونها ويحفظونها ويسرون بها في طريق
يعز على غيرهم الوصول اليها . ولكن بعدم
تسلط الطبقة على المجلس بل تشكيله من جميع
الطبقات : نبهاء ومتقنين وأتراك وأغنياء وعلماء
وعمال وأعيان .

التلميذ : نخشى أن بقية الدول تمثّل بنا وتقول عادوا الى
جهالتهم والتوحش القديم .

النديم : اعلم يا ولدى أن الشيء في أوله لا يجيء على
صورته الحسنة في سائر الجهات ، بل لا بد من
التقص والابرام والخطأ والتصويب ، والتغير
والتبديل حتى تتقدم الأفكار وتحسن الأعمال .
ولا تنظر لجهل كثير من أهل بلادك فانهم وان
جهلوا — أحسن في أخلاقهم ومبادئهم وحكم
بلادهم من المتمدنين ... (١) » .

وخاب تقدير شريف باشا رئيس الوزراء وأعوانه الأتراك ،
فقد ظنوا أنهم يفقدون عرابى شعبيته باخراجه من القاهرة وعزله
في معسكر رأس الوادى ، ولكنهم بذلك قربوه من الفلاحين
الذين يقدرون فيه مصريته ، وبطولته ، ويرون فيه الأمل لحريتهم
وانصافهم الذى طال انتظارهم له .

وتسابق أعيان الشرقية وهرع فلاحوها للاجتماع به
والاحتفاء بمقدمه وأصبحت مواكب مظاهرات وطنية كبيرة ،
وأصبحت الشرقية مجالا لخطب النديم في الحفلات التى تسابق
أعيان الشرقية والأعضاء المرشحون على مبادئ الثورة لمجلس
شورى النواب في اقامتها تكريما لرعيم البلاد . وفى الحفل الذى

(١) التنكيث ١٨/١/١٨٨١ .

أقامه أمين بك الشمسى ، سر تجار الرقازيق ، جلس النديم الى جانب عرابى فى صدر السراقق يحيط بهما الباشوات وأعيان البلاد ، وحين تكلم عرابى فى هذا الحفل تحدث عن دور « صديقه الأعز الهمام صاحب الغيرة والعزم القوى السيد عبد الله النديم يوم مظاهرة عابدين ^(١) » .

ثم طلب المحتفلون خطيب الثورة ومثبت قلوب رجالها عبد الله النديم ، « فقام وخطب خطبة غراء كثر فى أثناءها الهتاف استحسانا من الحاضرين . حث فيها على الاتحاد وتفهم الحرية ^(٢) » .

وبدأت حقيقة شريف باشا تظهرها الأحداث فقد كان يمثل الكتلة الدستورية المعارضة لحكم رياض الدكتاتورى ، غير أنه تبين أن فكرة الدستور عنده وعند أتباعه من وجهاء الأتراك كانت تنحصر فى انتزاع السلطة من يد الخديو ورياض ووضعها فى يد طبقة الحكام الجراكسة ، وهى الطبقة التى يعتبرها شريف صالحة لحكم البلاد .

وكان شريف كما يصفه أحد الأجانب الذين عاصروه « تركيا متفرنجا لم يخل من شئ من الغطرسة واحتقار الفلاحين ، وهما الوصفان اللذان كالآ من مميزات طبقته فى القاهرة ، وكان ماليت ^(٣) »

(١) كشف الستار ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

(٢) التنكيث والتبكيث ١٨٨١/١٠/٩ .

(٣) القنصل البريطانى .

يقدره لاجادته اللغة الفرنسية وعلومها وسهولة التعامل معه ،
لا سيما في الشؤون السياسية العادية ، ولكن تفرسه هذا لم
يكن يروقنى كلما وازنت بينه وبين الرجال المصلحين ذوى
الفكرة السامية الذين كانوا نواة الحركة الوطنية الحقيقية
والذين لم يكن ينظر اليهم الا مثل ما ينظر اليهم رجل فرنسى ،
نظرة استهانة واحتقار . وقد كان واثقا من كفاءته لحكمهم وقلة
خبرتهم وضعف كفاءتهم^(١) . »

ومن ثم لم يكذب يسمع بالاستقبالات الشعبية التى يلقاها
عرايى فى كل مكان بذهب اليه فى الشرقية ويعرف أن الناس
يهرعون اليه ويهتفون له ويلقبونه بالواحد^(٢) ، ويقرأ فى
الصحف خطابات النديم تدعو لعرايى بين الشعب وتبايعه
بالزعامة ، لأنه المصرى الذى نشأ بينهم وخلصهم من ذل
الاستعباد ، وذكى فى قلوب الفلاحين الحمية والوطنية والاعتزاز
بمصريتهم ، حتى حنق على عرايى شهرته وشعبيته ، فاستدعاه
الى القاهرة لبيعده عن الفلاحين ، وغضب على النديم ، وبدأ
يترصد له ليغلق صحيفته وينتقم منه .

وكشف النديم المؤامرة فى « التنكيت والتبكيك » ، فيقول .
تحت عنوان « تقرير الأغنياء »^(٣) :

(١) بلينت : التاريخ السرى للاحتلال البريطانى ص ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ١٨٨١/١٠/٩ ص ٢٨٧ .

« اجتمع رهط من أهل الاستبداد وتذاكروا فيما أخطب فيه من المحافل والجحافل ، ثم اختلفت أفكارهم الفاسدة ، ولم يهتدوا في حيرتهم لباب يخرجون منه لفضاء التعقل والادراك ، فرحمة بهؤلاء المساكين .

« أقول لهم ان خطابات المحافل للحث على فعل الخير وتوسيع دائرة المعارف والآداب والصنائع ، وخطابات الجحافل فلحكمة تغيب عن مثل هؤلاء الأغبياء وهي أن الجند اذا قويت حذتهم واشتدت حميتهم لزمهم الواعظ العارف بفنون السياسة الخبير بأحوال البلاد ليسيّر معهم في طريق يحفظ النظام ويسكن الغضب ويخمد ثورة النفوس . وأنا أخطب باسم الوطنية ...

« لقد مات زمن تحرير التذاكر السرية لابعاد زيد ونفى عمرو ، وجاء زمن القوانين والأحكام الحققة قتل لمن غاظه الحق وغلبه الصدق ، وخاب سعيه في اهلاك أخيه موتوا بغيظكم ان الله عليهم بذات الصدور » .

ولم يستطع شريف أن يضرب على عرابي سياج العزلة في القاهرة ، فقد وفد اليه الناس من أنحاء البلاد يبائعونه بالزعامة وكان منزله في حى عابدين يغص كل ليلة بأمشاج من الفلاحين والأعيان .

وكان النديم ملازما لعرابي ، يخطب في الوفود التي تأتي اليه ، ويناقش الأعيان والوجهاء الذين يجتمعون كل مساء في

منزل الزعيم ، ويكتب في مجلته يذكر المصريين ^(١) بما لاقوه في الماضي من قتل وصلب ، وجلد ونفى وسجن ، ويحذرهم من الدول الطامعة فيهم والتي لا تحب لهم التقدم ولا العلم أو العدل ، ويشجعهم ويثبت قلوبهم ، ويدعوهم الى عدم الخوف من المدرعات التي وصلت الى الاسكندرية لتهديد مصر ^(٢).

ويحدثهم عن الاستبداد الذي أفسد الأخلاق ، وعن الممالك التي نالت حريتها بالجهاد والدماء ، وعن الصلة بين مصر والخلافة العثمانية ، وانتظام مصر في الهيئة الاسلامية الجامعة لكلمة الدين لكنه انتظام لا يمس استقلالها أو ينقصها ميزاتها ، ويحذرهم من دعاة الفتنة وأذئاب رياض واسماعيل ، ويدعوهم الى الهدوء والسكينة التي هي طريق السلامة ، ثم يعدمهم « بأني لن أغفل عن هذا السعى ولن أبخل بكلمات أسطرها وخطابات أسيرها في البلاد ، حتى تبعث في الألوف منا روح الادراك السياسي ^(٣) » .

(١) التنكيث ١٦/١٠/١٨٨١ تحت عنوان « وصية وطنية » .

(٢) يشير الى المدرعتين الانجليزية والفرنسية اللتين جاءتا الى الاسكندرية بعد مظاهرة عابدين لتهديد مصر .

(٣) التنكيث ١٦/١٠/١٨٨١ .

« الطائف » .. جريدة الثورة

أصبح معروفا في طول البلاد وعرضها أن النديم هو المتحدث بلسان ثورة الجيش ، وأن جريدته تعبر عن سياسة هذه الحركة . ولذلك طلب اليه الزعيم أحمد عرابي أن يطلق على جريدته اسما جديدا هو « لسان الأمة » لينطبق مفهومه على الوظيفة التي تؤديها ، وأن يعلن رسميا أنها جريدة الحركة الثورية الجديدة . وجرى بينهما مفاوضات في هذا الشأن انتهت بأن أرسل عرابي الى ادارة المطبوعات المصرية في ١٧ أكتوبر ١٨٨١ الخطاب التالي :

« لدخولنا في عصر جديد وفوت زمن التنكيت اقتضى تبديل جريدة « التنكيت والتبكيت » الأدبية التهذيبية ، كما استقر عليه الرأي بالممارسة مع حضرة الفاضل عبد الله افندي نديم محررها ومدير ادارتها باسم « لسان الأمة » ، وأن يكون موضوعها سياسيا تهذيبيا للذب عن حقوق الأمة والمدافعة عن حقوق حكومتها التوفيقية .

« فلذا اقتضى ترقيمه لسعادتكم الأمل اعتبارا ومعرفتها بهذا العنوان الشريف والمشرّب المنيف اعتبارا من عددها انتاسع عشر . أفندم في ٢٤ ذا سنة ١٢٩٨ - مير بيادة ٤ .

وكتب النديم معلقا على كتاب عرابي يقول :
« بحمد الله تعالى تخلصنا من زمن « التنكيت والتبكيت »

وأصبحنا في زمن الحرية ومعرفة الحقوق ، وهذا الذي قضى علينا بتغيير اسم الجريدة ومشرها ، فقد صيرناها سياسية سياسة ظاهرة بعد أن كنا ندسجها في محاورات ودروس تهذيبية وجعلناها تطالب بحقوق الأمة ، وتدافع عن حقوق الحكومة بمعنى أنها تقوم بخدمة الأمة من حيث الذب عنها ونشر أفعال الظلمة المخالفين لسير حكومتنا الحرة العادلة ، وتدافع عن الحكومة من يرميها بسوء من الجرائد الأفرنجية والعربية .

« وحيث ان الأمة صار لها مجلس نواب تعرف به حقوقها ، كذلك صار لها جريدة تنشر فضائلها وتدفع السنة الإعداء عنها .. (١) » .

ولعل الاسم الجديد الذي اقترحه أحمد عرابي للصحيفة لم يرق النديم ، وهو — كما لقيه الأستاذ عباس العقاد — ملك العنوانات (٢) ، فأصدرها باسم « الطائف » (٣) . ولم تصدر في الموعد الذي حدد لها ، فقد ظل العدد التاسع عشر يحمل اسم « التنكيت والتبكيت » في ٢٣/١٠/١٨٨١ . ويغلب على الظن أن تغيير شكل الجريدة وتبويبها وتحريرها بعد أن أصبحت صريحة في السياسة وقد كانت تدسجها في محاورات ودروس

(١) التنكيت من ٣٠٦ .

(٢) مجلة آخر ساعة ١٩٠٧/٨/٢١ .

(٣) يعلل أحمد تيمور باشا هذه التسمية بأنه فعل ذلك تيمنا بالطائف (بلدة بالحجاز) ، وتقارولا بأنها تطوف البلاد كما جابتها « الجوائب » لآحمد فارس الشدياق ، وكانت تصدر في استامبول : تراجم أعيان من ١٧ .

تهذيبية اقتضى تأخيرها عن الصدور في موعدها المحدد لها ^(١) ،
وظهر أول عدد منها في ثوبها الجديد في ١٨٨١/١١/٢٠ .

ولم يعتبر النديم « الطائف » جريدة جديدة منفصلة عن
« التنكيت والتبكيت » ، بل اعتبرها امتدادا لها . وأكثر من
ذلك أنه قال : « ان الطائف ظهرت أول أمرها تحت عنوان
« التنكيت والتبكيت » ^(٢) » .

ولكننا نجد « الطائف » مغايرة تماما « للتنكيت » في الشكل
والموضوع ، فقد أصبحت في حجم الصحف اليومية مكونة من
أربع صفحات ، وصارت تكتب باللغة العربية الفصحى وحدها
وليس للعامية مكان فيها ، واتبعت السياسة الجديدة التي
رسمها لها النديم بالاتفاق مع عرابي لتكون جريدة الحركة
الثورية .

ومن المؤسف حقا أن أكثر أعداد الجريدة ، وخاصة الأعداد
الأولى منها ، لا أثر لها في المكتبات العامة أو الخاصة ، والموجود
منها في دار الكتب المصرية ٢٠ عددا غير متتابعة تبدأ من العدد
٤١ وتنتهي بالعدد ٨٠ ، وحتى هذه أخذت تتآكل ويمزقها
التداول .

ولذلك فإن الحكم على الجريدة في فترتها الأولى إنما يعتمد
أكثر ما يعتمد على ما كتبه عنها المؤرخون المعاصرون لها ، وما

(١) ظلت تطبع بالإسكندرية حتى العدد ٢٢ ، ثم نقلت طبعا ومقرا الى
القاهرة (انظر تاريخ الصحافة لطرأى ج ٣ ص ٦٢) .
(٢) الطائف ١٨٨٢/٦/٢١ .

قلته الصحف الوطنية أو ترجمته الصحف الأجنبية عنها . على أن هناك حقيقة لا يمتد إليها شك أو يحجبها شيء ، وهى أن « الطائف » احتلت المكافة الأولى من الصحف المصرية فى ذلك الوقت ^(١) ، وقالت من الرواج والشهرة ما لم تنله صحيفة قبلها . من التأثير على الأفكار ، وبلغت منزلة فاقت فيها الصحف المعاصرة لها ، « فهى جميعها لا تبلغ فى مكائتها ولا فى خطرها ولا انشائها وتحريرها ما بلغته جريدة « الطائف » التى يحررها الكاتب النابغ فى انشائه عبد الله النديم خطيب الثورة وكاتبها غير منازع . وكانت الصحف المعاصرة تنقل عنها مقالاتها الاجتماعية والسياسية » ^(٢) .

وبدأت الصحف الوطنية والأجنبية تعتبرها مصدرا موثوقا به ، وأخذت « تنقل عنها الأخبار وتعيد طبع كثير من تصريحات النديم ومقالاته » ^(٣) .

وكانت جريدة الطائف — كما يقول مستر بلنت — التى يحررها رجل حاد نابغ هو عبد الله النديم تحمل حملة شديدة على التراخيص بإدارة المواخير والحانات والمراقص والمغانى التى هجمت على القاهرة تحت حماية الامتيازات الأجنبية ، فاستاء منها كل مسلم ، وكان فى مصر صدى قوى لاعتداء فرنسا على

(١) كانت تصدر فى ذلك الوقت صحف : الاهرام ، المقيد ، الفسطاط ، السفير ، النجاح ، المحروسة ، العصر الجديد ، الوقائع المصرية ، البرهان .

(٢) ابراهيم عبده : تطور الصحافة من ١٢٦ — ١٢٧ .

(٣) انظر الوقائع المصرية ، والمحروسة خلال عام ١٨٨٢ واليمس : ٢/٤ ،

١٨٨٢/١/٥ ، ٥/١٧ ، ٤/٢٤ ، ١٨٦٥ ، ١٨٦٢/١٤

تونس . وزادت ثورة المصريين حين علموا أن الفرنسيين استباحوا حرم المساجد واعتدوا على النساء العربيات . وشنت مع زميلاتها من الصحف الوطنية حملة شعواء نددت فيها بما حدث من المساوىء فى العهد الماضى كالجور فى تقرير الضرائب ومحابة الأوربيين على حساب الأهالى فى عهد المراقبة المالية الأجنبية ، كما أنها فضحت كثرة تعيين الفرنسيين والانجليز فى الوظائف الكبرى التى أنشئت لهم فى غير ما ضرورة ، وسيطرة هؤلاء على إدارة السكة الحديد ومصلحة الدين اللتين أصبحتا فى أيدي وكلاء آل روتشيلد . وهاجمت فضيحة اعانة دار الأوبرا الأوربية بمبلغ ٩ آلاف جنيه فى العام ، على حين أن البلاد كانت فى حالة فقر مدقع (١) .

وقد عاصرت « الطائف » فى أعدادها الأولى فترة اجراء الانتخابات لمجلس شورى النواب . وعلى هدى كتابات النديم فى « التنكيث والتبكيث » — وهى لم تكن رسميا لسان الحركة الثورية — يمكن أن يقال ان « الطائف » كانت مجالا لحملة دعائية لأنصار الحركة الوطنية من المرشحين ، وكانت وسيلة اعلام ، تعرف الجمهور الحياة الدستورية وترشدهم الى انتخاب الأكفء من المواطنين . فاذا ما تم انتخاب المجلس وقفت الى جانبه تسانده وهو يواجه الأزمات التى هبت عليه من أول يوم افتتح فيه . فالنديم يؤمن بأن الحكم الدستورى أساس كل اصلاح سياسى واجتماعى .

(١) انظر بلنت التاريخ السرى ص ١٦٤ .

تحرش الاستعمار

سارت الأمور سيرا طبيعيا في الشهور الثلاثة الأخيرة من عام ١٨٨١ . وساد الوفاق الى حد ما جميع الأحزاب المصرية . وانصرف الناس ورجال الحكومة الى أعمالهم وعم الهدوء البلاد . غير أن انجلترا وفرنسا ساءهما أن ينتهى الأمر فى مصر الى أيدي المواطنين . وهم مهما حسنت نياتهم وتأكد اعتدالهم ، لا بد أن يعموا مصالحهما المتعددة التى تمثلها المراقبة الأوربية وسياستها التى جعلت مصر مرعى يستغله الأوروبيون .

وكانت الدولتان على يقين من أن مصالحهما المزعومة فى مصر قائمة على مجرد النهب والسلب ، وأن مصر متى أصبحت مستقلة عزيزة الجانب لا بد أن تعيد النظر فى هذه المصالح والامتيازات . وقد أشارت الى ذلك الصحف البريطانية ، فقالت : « ان من العبث اخفاء هذه الحقيقة ، فان القائمين بالحركة لا غرض لهم سوى هدم التدخل الأجنبى فى الادارة المصرية ، واذا جاز القول بأن تلك النية كانت منذ أسبوعين مقصورة على لفيق من الضباط فانها ليست كذلك اليوم . ان سكان الاسكندرية والقاهرة — وهم معروفون عادة بعدم اهتمامهم بما يحدث من الأمور — يؤيدون عمل الجيش كل التأييد . وهم الآن أشد جرأة من غيرهم فى الجهر بأغراضهم ^(١) » .

(١) التيمس ١٨٨١/١/٢٧ .

وأصبحت الدولتان بالذعر وقررتا التدخل بالقوة لحماية مصالحهما . ومن ناحية أخرى كان يتعجل هذا التدخل ويستحثه « غمبتا » رئيس وزراء فرنسا الجديد ، فقد جاء الى الحكم في ١٥ نوفمبر ١٨٨١ فوجد أمامه ثورة على فرنسا في تونس والجزائر ، وكان يرى في الحركة الثورية في مصر امتدادا للثورة في شمال افريقيا . وخيل له منطق الاستعمارى أن هذه الثورات بما دامت من دول اسلامية ضد دول مسيحية فهي مظهر من مظاهر التعصب الاسلامى ، دون أن يلقي بالا الى السبب الرئيسى في الثورة ، وهو الاستعمار . وكان أصله الاسرائيلى قد جعله مرتبطا بالمصالح المالية في مصر ، فعقد النية على أن يضيف الى الاعتداء على تونس تدخلا بالقوة في مصر . وقد أراد أن تتضمن له بريطانيا لتقوم الدولتان بحرب صليبية جديدة في افريقيا تحت ستار الدفاع عن المدنية وتنظيم المالية في مصر .

وأخذت الصحافة في لندن وباريس تمهد لهذا التدخل ، فهاجمت الثورة الوطنية واتهمت المصريين بالتعصب الدينى . ثم بدأت الدولتان التحرش بالحكومة الوطنية باقتعال سلسلة من الأزمات التى تضع العراقيل في طريق تقدم سير الأمور . فلم يكده مجلس شورى النواب يجتمع في ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ حتى طلب المراقبان الانجليزيان عدم تعرضه للميزانية لأنها من اختصاصهما .

وكان هذا الطلب بمثابة طلب تنازل الأمة عن حكم نفسها

بنفسها . وكيف تحكم أمة نفسها اذا حرمت كل سيطرة على
ماليتها !

ثم لم تلبث الحكومتان الانجليزية والفرنسية أن أرسلتا -
دون مناسبة - في ١٨٨٢/١/٨ مذكرة تعلنان فيها تأييدهما
للخديو حين يستعمل سلطته المطلقة واستعدادهما لهذا التأييد.
بشتى المظاهر .

وكان من الواضح أن هذا الاستفزاز الذي لا سبيل الى
احتماله انما أريد به تحريض الخديو ليحاول قلب الحكومة ،
فيحل مجلس النواب ، ويعيد أتوقراطية آبيه اسماعيل ، ويكون.
ضربا من ضروب الحرب على طالبي الاصلاحات الدستورية.
الحقيقية التي تضع حدا للنفوذ الأجنبي في البلاد .

وقوبلت المذكرة من جميع طبقات الأمة بثورة عارمة يمثلها،
ما قاله عرابي : « هذا تحد للحرياتنا ، وليس لاعلان اتحاد فرنسا.
وانجلترا معنى الا أن انجلترا ستغزوا مصر كما غزت فرنسا.
تونس ... دعهم يأتون ، فكل رجل وطفل في مصر سيقاتلهم .
ليس من مبادئنا أن نضرب الضربة الأولى ، ولكننا سنعرف.
كيف نردها » .

ولم يكن ذلك آخر سهم في كنانة الدولتين ، بل أرسلتا في
١٨٨٢/١/٢٠ مذكرة مشتركة تؤيد ما طلبه المراقبان الماليان
من « أن المجلس ليس من حقه الاقتراع على الميزانية » .

واعتبر المجلس أن هذه المذكرة اهانة موجهة اليه . فما ان تقدم اليه شريف باشا بقانون التأسيس الذى يمنح النواب من الاشراف على الميزانية ، استجابة لمطالب المراقبين الماليين ومهادنة للنفوذ الأجنبى ، حتى قرر المجلس بالاجماع رفض هذا القانون ، وقرر أعضاؤه أن يعدوا هم قانونا يحقق لمصر الحياة الديمقراطية الصحيحة والاستقلال الكامل .

وثارت ثائرة شريف باشا ، وفاق غضبه غضب أخلافه الجدد من الأوربيين ، فقد كان يعتقد أن المصرى قد خلق ليحكمه الأتراك ، أما أن يتحكم المصريون فى بلادهم ويتجرأوا فيرفضوا قانونا تقدم به هو فهذا أمر فى نظره غير محتمل . وظهرت شخصيته التركية المتعترسة المستترة فى ثياب المطالبة بالدستور والتي لم تكن تخفى تحتها الا السعى وراء الحكم والسلطان ، حين علق على رفض النواب لمشروعه بقوله : « ان المصريين أطفال ، ويجب أن يعاملوا معاملة الأطفال ، وقد قدمت لهم الدستور الخلق بهم ، فاذا لم يرضهم كان عليهم أن يعملوا بدونه . انى أنا الذى أنشأت الحزب الوطنى ، وسيجدون أنهم لا يستطيعون العمل بدونى . ولا شك أن هؤلاء الفلاحين فى حاجة الى الارشاد » .

ولم يكن رد الفلاحين من أعضاء مجلس النواب الا أنهم طلبوا من الخديو اقالة شريف باشا وتعين من يكون أكثر موافقة لرغبات المجلس . فعين محمود سامى البارودى رئيسا لمجلس الوزراء ، وعرابى باشا وزيرا للحرية .

هزة النصر

ازاء هذه الأحداث ، وعلى ضوء الحملة التى قامت بها الصحف الوطنية المعاصرة على المذكرتين المشتركين وعلى شريف باشا ومهادته التدخل الأجنبى ، يمكن أن تتصور دور النديم وصحيفته « الطائف » لسان الحركة الثورية فى الدفاع عن مجلس النواب ، وفى التنديد بالتدخل الأجنبى فى الشؤون الداخلية للأمة ، وفى اعلان الحرب على شريف باشا لانضمامه الى معسكر الأوربيين ، وفى الرد على الصحف الأجنبية التى حولت الأزمة السياسية الى أزمة دينية ورمت المصريين بتهمة التعصب الدينى لأنهم وطنيون يهدفون الى الاستقلال عن النفوذ الأجنبى . ثم فى التعبير عن فرحة الأمة بانتصار مجلس النواب فى أداء الأمانة التى وضعتها الأمة فى عنقه ، فلم يفرط فى حقوقه ، ورد للأمة كرامتها . فرفض الاعتراف بالتدخل الأجنبى ، وأقال الحكومة المتعاونة مع العناصر الأجنبية .

لم يكن ذلك النصر الوطنى الكبير حين ألقت وزارة من عناصر مصرية وطنية ، وأعلن الدستور الجديد الذى يحقق للأمة استقلالها ، نصرا للحركة الوطنية وحدها ، بل كان انتصارا شخصيا للنديم ومبادئه ، وهو الذى لم يدخر وسعا فى أن يبث فى المواطنين الاحساس بالظلم ، ثم يرعى بذور الحرية التى يفرسها فى قلوب الأمة بخطبه ومقالاته ، وها هى اليوم تؤتى

ثمارها وتصبح مصر للمصريين تحكمها وزارة مصرية ، ويشرع لها برلمان انتخب من أبناء الشعب .. حقا انها ساعة النصر .

عمت البلاد موجة فرح شاملة ، وسرت في النفوس هزة النصر التي لا تقدر ، وأمل الناس أن الحكم النيابي سيصلح مفاسد الماضي ويرسم وسائل السعادة للحاضر والمستقبل ، وتقاطرت الوفود الى العاصمة من أنحاء البلاد تعبر عن شعور الغبطة لهذا الحدث الكبير . وكان النديم يخطب في كل وفد خطبة من خطبه الوطنية الرائعة فيشعل في قلوب المواطنين جذوة الحماس ويضيئها بنور الوطنية ^(١) .

وجاء وفد الاسكندرية ، وفيه جمهور النديم وأنصاره ، وصحبهم الى الحديو ، ثم الى رئيس مجلس الوزراء ، ثم الى رئيس مجلس النواب ^(٢) ، ثم الى عرابي وزير الحرية . « وفي كل مكان يخطب النديم متحدثا عن الحياة الدستورية الجديدة وما يأمله الوطن في ظل الدستور » ^(٣) . وقبل أن يغادر الوفد القاهرة عائدا الى الاسكندرية أهدى أعضاؤه النديم « محامي الوطن » ساعة وسلسلة ذهبية « لامتنانهم من مشرب جريدته الغراء الطائف » وارتياحهم لأسلوب محرراته وانشاءاته البليغة ^(٤) .

(١) مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٢٤ .

(٢) محمد باشا سلطان .

(٣) الوقائع المصرية ١٨٨٢/٢/٧ . انظر أيضا « مصر للمصريين » ج ٤

ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٤) المصدر السابق .

وأقيمت الحفلات الكبرى في أنحاء البلاد تكريما لهذا النصر الدستوري ، وكانت هذه الحفلات صورة صادقة للحياة السياسية والفكرية في ذلك الوقت ، فقد كان يؤمها رجال السياسة والفكر على اختلاف مشاربهم ، وكانت المبادئ السياسية والأفكار الاجتماعية والثقافية تتداعى على ألسنة الخطباء^(١) الذين تباروا فيها يتحدثون في الوطنية والثقافة والدين ، وقد شاق الناس أن يسمعوا الكلام الكثير في هذه الموضوعات .

وكان النديم لسان الثورة وخطيبها نجم هذه الحفلات جميعا وقطب رحاها ، فما هو الا أن يحرك لسانه حتى تتدفق وتنهل عليه المعاني والألفاظ ، يتغنى للناس بآمالهم ويضرب على عواطفهم بالحديث عن الاستقلال والحرية والعدل ، فيشد اليه الأسماع وتتعلق به العيون ، وتنجذب اليه القلوب . بلغ النديم في هذه الفترة أوج مجده الخطابي ، واستحق أن يكون سيد الخطباء دون منازع « وخطيب الشرق » الذي أعاد للخطابة مجدها في عصور العروبة الأولى . كان يسيطر على عواطف المستمعين وأحاسيسهم طول الليل بفصاحته وبيانه وقوة حجته . يترك الموضوعات المختلفة فيشعل الجماهير وطنية وحامسا ويملاها ثقة وقوة ، ويزيدها معرفة وإيمانا . تستمع اليه وكأن على

(١) من هؤلاء الخطباء : محمد عبده ، إبراهيم اللقاني ، ادب اسحاق ،
(وقد عاد من المنفى بعد اقالة رياض) .

رعوسها الطير ، وتعجب به وتود لو لم ينته من الحديث ، وكلما
خطب خطيب غيره وتناول موضوعا طلب الجمهور النديم ليعقب
عليه ويبدى رأيه فيه ، وهو فى نظرهم رأى الحزب الوطنى
الثورى لأنه المتحدث باسمه ، ثم يجره الحديث الى موضوع
جديد . وقد يعتلى منبر الخطابة فى الليلة الواحدة خمس مرات ،
يتكلم فيها ساعات وساعات ، وفى كل مرة يأتى بجديد ، وفى كل
فقرة تدمى له الآكف بالتصفيق ، وتعلو له الحناجر بالتأييد
والاستحسان .

وأقامت الاسكندرية ^(١) احتفالها فى الأسبوع الأول من
فبراير ، وكان النديم — ولجهاذه فيها تاريخ طويل — ضيف
الشرف ، « وسمع الحاضرون من خطابات النديم ما راق فى
أعينهم ورق فى آذانهم حتى حسبوه سحرا حلالا ، وظل يخطب
حتى الصباح » ^(٢) .

وحين أقام الضباط حفلهم فى سراى قصر النيل ^(٣) كان
النديم خطيبه الجلى ، وفى هذه الليلة تناول المشكلات التى
تواجه الوزارة الجديدة ومجلس النواب ، ثم تحدث فى ثمة

(١) أقامت الحفل جمعية الشبان .

(٢) المحرسة ١٨٨٢/٢/٦ . انظر أيضا « مصر للمصريين » ج ٤ ص ٢٢٤ .

(٣) مقر وزارة الحربية وقتذاك ومكانها الآن مبنى الجامعة العربية وفندق

هيلتون ومبنى بلدية القاهرة بجوار كوبرى قصر النيل .

الاتحاد ونتيجة التحالف والتعاون والحرية المعتدلة وحب الوطن حتى الصباح^(١) .

وأقام « الحزب الوطنى » حفلة فى جمعية المقاصد الخيرية^(٢) ، وحضره الوزراء والكبراء ورجال الثورة وعدد كبير من الضباط والنواب والأعيان ، واقتتح النديم الحفل بقصيدة كان لها وقع جميل فى النفوس ، وشكر الجمعية على احتفالها بإعلان الدستور . ثم قدم للجمهور ابراهيم اللقانى^(٣) فبين الفرق بين الاستبداد وعهد الشورى ، وقام النديم فعقب على خطابه مبينا فضل العهد الجديد على العهد الماضى ، ثم دعا الى الخطابة الشاب مصطفى ماهر^(٤) فبين أن النهضة يجب أن يكون أساسها العلوم والفنون وحث الأغنياء على انشاء بنك أهلى يحمى الأهالى من استغلال المرابين .

وقام النديم للمرة الثالثة فتحدث عن التربية الابتدائية ، وأنها أساس التعليم ، وطالب باصلاح طرق التدريس والمناهج فيها ، ثم دعا الشيخ محمد عبده^(٥) فحث على تعميم التعليم وعلى احترام حرية القول والكتابة وسن القوانين المبينة لحقوق

(١) مذكرات عرابى « كشف الستار » ج ١ ص ١٢٢ .

(٢) فى ١٣/٢/١٨٨٢ .

(٣) محام وأديب من تلاميذ جمال الدين .

(٤) أحد تلاميذ النديم . وهو فيما بعد مصطفى ماهر باشا وزير المعارف .

(٥) رئيس تحرير الوقائع المصرية وخطيب الجمعية الرسمى . (يلاحظ أنه

وغم أنه الخطيب الرسمى للجمعية ، فإن النديم كان خطيب الحفل) .

الأفراد وواجباتهم ثم بين مزايا الحكومة النيابية وطالب بوجوب أن تقتصر الانتخابات على المتعلمين ، ثم هاجم طلب الحقوق الوطنية بالثورة أو القوة . ويلخص أحد حواريه^(١) ما جاء في خطبته حول هذا الموضوع قهلا عنه « ان المعهود في سير الأمم وسنن الاجتماع القيام على الحكومات الاستبدادية وتغيير سلطتها والزامها الشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقة الوسطى والدنيا اذا نشأ فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة ، وصار لهم رأى عام ، وأنه لم يعهد في أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس ، وازالة امتيازاتهم واستشارتهم بإلجاء والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك ، فكيف حصل في هذه المرة ، ومن أهل هذا المجتمع ؟ . قال) فهل تغيرت سنة الله في الخلق واقلب سير العالم الانساني ، أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتساووا الصعاليك جبا بالعدالة والانسانية ؟ أم تسيرون الى حيث لا تدرون وتعملون ما لا تعلمون ؟ »^(٢) .

وقام النديم فتحدث عن الحرية كحق لكل فرد وعن الحياة الدستورية وحق الانتخاب والترشيح لكل مواطن ، وعارض

(١) السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ومؤلف كتاب تاريخ الاستاد

الامام وتلميذ الشيخ محمد عبده .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ١٤٨ .

الشيخ محمد عبده في قصر الانتخاب على المتعلمين ، لأن الفلاح هو صاحب المصلحة الحقيقية في البلاد ويكون الأغلبية العظمى من سكانها والفلاحون أدرى بمشكلاتهم من غيرهم ، وهدأ النفوس التي هاجها خطاب الشيخ محمد عبده .

ثم دعا أديب اسحاق الى الخطابة ، فتحدث عن شعور النواب وتضامنهم مع النظار في كل ما يجلب الخير للبلاد . وعقب النديم فتحدث عن الاتحاد وأنه أمل المستقبل . ثم دعا فتح الله افندى صبرى ^(١) فتحدث في الاتحاد والثبات . وظلت الخطب تتوالى حتى الثالثة صباحا ^(٢) .

وفي ١٩ فبراير أقام نائبا البحيرة أحمد محمود ، وابراهيم الوكيل حفل تكريم الجمعية المقاصد الخيرية ردا على احتفائها بالنواب ، ولكن الغرض الحقيقي من الحفل كان لازالة الاثر السيئ الذي تركته خطبة الشيخ محمد عبده في النفوس . وبعد أن خطب النائب أحمد محمود وأديب اسحاق واعتذر الشيخ محمد عبده عما سببته خطبته من تكدير للنفوس ووضح بما يهدئها ما كان يقصده ، قام النديم وتحدث في وجوب التمسك بطلب الحقوق الثابتة ، وحث على رعاية الواجب لكل فرد واجتناب التقصير فيه وملاحظة قيم النفوس وأقدارها ، وانزال الأمور منازلها دون تهاون يشبط الهمة ، ولا تساهل يكسر قلب

(١) فيما بعد فتحي باشا زغلول .

(٢) الوقائع المصرية ١٥ و ١٨٨٢/٢/٢٠ . كشف الاسرار ج ١ ص ١٢٣ .
مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٣٤ .

ذوى الاستحقاق ، وصار يعلق على الخطباء ويعقب على كلماتهم ، حتى بلغ عدد خطاباته ٥ خطابات . تحدث فيها في أمور مختلفة شعرا ونثرا وقرأنا ^(١) .

ثم انتقلت الاحتفالات بعد ذلك الى الأقاليم ^(٢) ، وكان خطيب الثورة هو المجلى في كل حفلة يدعى ليحدث الناس بما يجبون الاستماع اليه .

أحدثت مهرجانات النصر وخطب النديم وعيا فكريا ودستوريا وسياسيا بين الأمة . فقد كانت خطبه تطبع في « الطائف » كاملة وتوزع في جميع أنحاء البلاد وتشر بين الجمهور ، وأصبحت السياسة حديث المجتمع . ولم يعد هناك مكان في البلاد يخلو من اجتماع تناقش فيه ، حتى حديث رجل الشارع دخلت فيه السياسة .

وتصف جريدة « التيمس » الأثر الذي أحدثته هذه الاحتفالات والخطب فيقول مراسلها في القاهرة : « قال لى صديق يعرف اللغة العربية جيدا انه في صباح يوم واحد عد في السوق ٢٧ مجموعة من الناس يتحدثون عن الميزانية أو الوزارة أو التدخل الأجنبي ^(٣) » .

(١) تفصيلات : الوقائع ١٨٨٢/٢/٢١ .

(٢) الوقائع ١٨٨٢/٣/٥ . مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٣٤ وج ٧ ص ١١٥

وج ١ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٣) التيمس ١٨٨٢/٣/١٠ .

وفقدت النصوص الكاملة لخطابات النديم مع ما فقد من أعداد « الطائف » ولا يوجد غير اشارات وفقرات سجلتها الصحف التي عاصرتها معلقة على الحفلات وخطابته فيها . وفقد مع خطبه معظم مقالاته التي دبجها قلبه حربا على أعداء الوطن ، وشدا لأزمة الحركة الوطنية ، وتوجيها للمواطنين في عهدهم الجديد . ومع ذلك فمن المتفق عليه أن « الطائف » كانت زعيمة الصحف الوطنية دون منازع ، وكانت أشهر صحف عصرها تعتبرها الصحف الوطنية والأجنبية صحيفة الثورة الرسمية (١) وكان النديم خطيب الثورة وداعيتها يقود الرأي العام بقلمه ولسانه ، ويعبى صفوف الأمة لتقف وراء حركتها الثورية ، ولم تر مصر في تاريخها العربى الطويل خطيبا بلغ من التأثير في الجمهور ما بلغه النديم .

الطائف لسان مجلس النواب

كان « للطائف » مواقف مجيدة مع مجلس النواب ، فقد هيأت أذهان الأمة للحياة الدستورية بحملاتها الانتخابية ، ثم وقفت الى جواره في الأزمات التي اختلقها النفوذ الأجنبى ودافعت عنه وساندته بما تملك من قوة وتأثير في الرأي العام ، وردت عنه أكاذيب الصحافة الأوربية ومفترياتها . وكان ذلك

(١) اطر « التيمس » ١ - ٥ - ١٨ - ٢٤ ابريل ١٨٨٢ و ٥ سبتمبر ١٨٨٢ -

جديرا بها ، فهي « لسان الأمة » والمدافعة عن حقوقها . ورأى المجلس من جالبه تقديرا للصحيفة واقارارا للواقع أن يتخذها كما اتخذتها الثورة من قبل — لسانه الرسمي المعبر عن أفكار أعضائه والمختصة بنشر مناقشاتهم . فكتب محمد باشا سلطان رئيس المجلس في ٥ مارس ١٨٨٢ الى ناظر الداخلية بذلك . وكتبت ادارة المطبوعات منشورا لجسيع الصحف ^(١) ، وطلبت ادارة المطبوعات من الادارات الحكومية لاشتراك في الجريدة حتى تكون على بينة من أمور البلاد ، وحتى يكون موظفوها متصلين بالأحداث الجارية ^(٢) . واكتب النواب بمبالغ كبيرة للجريدة حتى تؤدي رسالتها . وأصبحت « الطائف » جريدة الثورة ولسان مجلس النواب . وأخذت الصحف تنقل عنها ما تكتبه — حتى « الوقائع المصرية » الرسمية — على أنه الحقائق التي تقطع الاشاعات ، وتعيد نشر مقالات النديم ، على أنه يصدر عن المصادر الرسمية .

وامتقبلت الصحف الخبر بالاستحسان والتأييد ، « فجريدة الطائف جديرة بهذا الاستحسان ، فهي موصوفة بالوطنية ، معروفة بصدق النية ، منتشرة ، نافذة الكلام ، خطيرة ، مرعية المقام » ^(٣) .

(١) خطاب سلطان باشا كاملا في مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٤٨ .

(٢) الطائف ١٨٨٢/٤/٢٩

(٣) مصر في ١٨٨٢/٣/٢٣

الاصلاح الاجتماعى أيضا

رغم أن الأحداث السياسية المتلاحقة والمسئولية التى أُلقيت على عاتق النديم كانت كافية لأن تملأ وقته وتشغل فكره ، الا أنه لم يغفل الاصلاح الاجتماعى ، فقد أولاه اهتمامه حتى يسير جنبا الى جنب مع الاصلاح السياسى ، وكانت الصحف الوطنية والأجنبية تعيد طبع مقالاته فى الاصلاح الاجتماعى لما لها من صدى كبير بين الجمهور (١) .

كان أول من نادى بتنظيم مهنة المحاماة بعد أن رأى فريقا من الأفاقين الأجانب يمتنون هذه المهنة ثم يستغلون سذاجة الفلاحين وجهلهم فيوقعونهم فى جبالئهم ويبتزون أموالهم ، ويغتصبون منهم أراضيهم (٢) .

وحمل النديم على هدايا المدنية ، وهى الدعارة والخمر والقمار ، وبين كيف أنها تضر بالدين وبالوطن والمواطنين ، يستغلها الأجانب لا بتراز الأموال وافقار المواطنين (٣) .

وكتب يهاجم الأغنياء لتشجيعهم الصناعات الأجنبية ذلك

(١) انظر الوقائع المصرية ٢٧ ، ١٨٨٢/٢/٢٨ الحروسة ٢٠ ، ٢٣ ، ١/٢٤ ، ١٨٨٢/٢/١٦ - ١١ و ١٨٨٢/٢/٤ ، التيمس ٢/٤ - ٥ - ٤ - ١٨٨٢ .

(٢) استجابات الحكومة لهذا النداء ونظمت مهنة المحاماة والقضاء انظر المحروسة ١٨٨٢/١/٢٤ الوقائع المصرية ١٨٨٢/١/٢٥ .

(٣) بلنت : التاويخ السرى ص ١٦٤ .

التشجيع الذى أدى الى موت كثير من الصناعات الوطنية ،
وطالب المصريين جميعا بتشجيعها ومحاربة المنتجات الأجنبية
لتحفظ ثروة البلاد « وضرب مثلا بالهند حين حجرت انجلترا
عليها صناعتها وهى النسيج واشترت منها محصولات البلاد
واستغلتها فى بلادها ، وصيرت أهالى الهند كالآلة فى يدها لتتد
الصنعة بينهم واحتياجهم لما يستترون به . وقد ربح انجلترا
الكسب مضاعفا : من المحصول عند شرائه بشمن بخس مرة ، ومن
المصنوع عند بيعه بأعلى الأسعار مرة أخرى » .

وندد بالأغنياء من أهل مصر وميلهم الى المصنوعات الأجنبية
« فأصبح التجار الوطنيون فى غاية الفقر والفاقة ، بل أصبحوا
عملاء للأجانب فى بيع المصنوعات الأجنبية ^(١) » .

ووجد النديم أن الطريق الصحيح لحياء الصناعات الوطنية
هى انشاء الشركات الصناعية المساهمة .

وكتب النديم فى اصلاح حال الموظفين المصريين فى وظائفهم
وفى معاشاتهم والصلة بين الموظف والرئيس والظلم الذى رزح
تحتة الموظف المصرى مئات السنين من سيده التركى ^(٢) » .

وفى حفلات التمثيل بدار الأوبرا يخطب النديم فى فن

(١) المحرسة : ١٨٨٢/١/١٠ .

(٢) اهتم مجلس الوزراء وشكل اللجان وصدر أمر عال بتنظيم المعاشات
وصناديق الادخار . انظر « مصر للمصريين » ج ٤ ص ١٨٠ و ٢١١ - المحرسة
١٨٨٢/٢/١١ .

التشيل وأصالة التياترو المصرى ، وأثره فى ذوق الجمهور
ورسالة الفنون الجميلة فى الشعوب (١) .

وظل النديم يتابع دعوته لانشاء الجمعيات كوسيلة لتعليم
الشعب وتثقيفه وتعريفه بحقوقه ، وكطريق لتكوين الرأى العام
فتكون بفضل دعوته « جمعية التوفيق الحيرى » ، وفى حفلاتها
كان النديم أول الخطباء « يحث على الاتحاد ، ويبين مذاهب
التعاون ورزايا التفرقة والتخاذل ، ويندد بالأغنياء السفهاء
الذين يتفقدون الذهب فيما لا يعود عليهم وعلى الوطن الا
بالفساد ، ثم يسكون أيديهم عن الفقراء ويخطون على وطنهم
بما جنوه من دم أبنائنا (٢) » .

وأعلن الحرب على الرق ، ودعا الرقيق المحررين من
السودانيين المقيمين فى مصر أن يكونوا جمعية تسمى « جمعية
الأحرار السودانيين » لترعى أبناءهم وتحفظ حقوقهم وتساعد
المضطرب منهم . وبين الفرق بين المواطن والمستوطن ، وعد
السودانيين مواطنين من أبناء الوادى يعيشون فى بلادهم ،
« واستقبل السودانيون دعوته بالحماس ، وكونوا جمعية لهم ،
واتخذوه راعيا لهم » (٣) .

(١) المحروسة ١٨٨٢/١/٤ كان الوزراء والكبراء يحضرون هذه الحفلات ،
ويخطب النديم فى بدء الحفل وبين فصول التمثيليات .
(٢) الوقائع المصرية ١٨٨٢/١/١١ - المحروسة ١٨٨٢/١/١٠ .
(٣) المحروسة ١٨٨٢/٣/٢٤ نقلا عن « الطائف » .

وكان لهذه الحملة صداها في الصحف الأوربية ، وعلقت عليها جريدة « التيس » كبرى جرائد إنجلترا فقالت : « نشرت جريدة « الطائف » مقالا حول الرقيق يفهم منه أن الرأي العام قد بدأ يولى المسألة اهتمامه الجدى ، وبدأ السود والبيض معا يكونون جمعية في القاهرة لتوفر للأرقاء الذين تحرروا عملا يرتزقون منه ، وتقدم لهم المعونات كى يعيشوا حياة حرة كريمة . وقد نالت المسألة تأييدا قويا حين تولاهما عبد الله النديم خطيب الثورة الدائع الصيت والرجل الثانى بعد عرابى بك . وقد ختم مقاله بقوله : ندعو الذين يحسون فى أنفسهم الرغبة فى مساعدة هذه الجمعية أن يرسلوا تبرعاتهم إلينا ، وسوف تتخذ الاجراءات لنعد المساكن فى أنحاء الوطن وقرر الاعانات لمن تحرر من العبيد والعاطلين من الخدم السودانين حتى نجد لهم العمل الشريف . وانا نأمل أن نزيل بهذا العمل الأثر البغيض للرق من هذه البلاد ، وأن نضع أنفسنا فى مصاف الدول المتقدمة » (١) .

وقاد النديم حملة شعواء على الموظفين الأجانب الذين يحتلون أكثر المراكز الرئيسية فى جهاز الدولة ويتقاضون مرتبات خيالية لا تتناسب مع ما يؤدون من أعمال ولا يتناسب عملهم مع حاجات الجهاز الحكومى ، وفى أبناء البلاد الذين أرسلوا الى الخارج وتعلموا هناك ثم عادوا ما يكفى ملء هذه المناصب ،

(١) التيس ١٨٨٢/٤/٥ .

بيد أن المراقبين الماليين كانا يتسابقان في ملء الوظائف الكبيرة
بأبناء دولتيهما حتى يخدم كل منهما سياسة دولته وحتى يتغلغل
تقوذهما في عصب الدولة .

وقد نقلت جريدة « التيمس » مقالا كتبه النديم في
« الطائف » حول هذا الموضوع تحت عنوان « الغرب في
وطنه » ^(١) يتحدث فيه الى أولئك المصريين الذين أعدتهم مصر
للمناصب الكبرى بأن أرسلتهم الى الخارج ليتعلموا ، وحين
عادوا وجدوا هذه المناصب قد ملئت بالأجانب ، فيقول : « تخيل
تفسك عائدا الى وطنك بعد غيبة سبع سنوات ، وحين تصل
الى الاسكندرية سوف تجد قائد الميناء بحارا انجليزيا . فاذا
ما وصلت حقائبك الى الجمرک فستجد مديره انجليزيا كان
موظفا سابقا بمصلحة البريد . فاذا أردت أن تسافر الى القاهرة
بالسكة الحديد فسوف تجد هذا المرفق يدار بواسطة موظفين
انجليز وهنود وفرنسيين . فاذا شئت أن ترسل تلغرافا الى
أهلك تنبئهم بوصولك فستجد المشرف على التلغرافات موظفا
انجليزيا أيضا . واذا شئت أن ترسل لأصدقائك خطابات تخبرهم
بقدموك فستجد مصلحة البريد مرعوسة بموظف سابق في
البريد الانجليزى . أما اذا رغبت فى أن تذهب الى الصعيد
فعليك أن تركب البواخر التى احتكرتها شركة انجليزية . فاذا

(١) هذه ترجمة من الانجليزية ، لان الاصل العربى مفقود . انظر « التيمس »

ما ذهبت الى الريف فسوف تجد كثيرا من الأهل والأصدقاء قد ضاعت أموالهم وأرضهم وذهبت الى أيدي المراهقين الانجليز والايطالين واليونانيين . فاذا سألت لماذا بقي المواطنون على جهلهم أجابك واقع الحال أن الدين العام قد أتى على ميزانية الدولة فلم يبق شيء منها لبناء المدارس أو لشق الترع . وأستطيع أن أستمر في ضرب الأمثلة التي لا تحصى ، ولكنى أعطيتك من الأسباب ما يكفيك أيها المصري لتعرف أنك أجنبي في بلادك . فاذا كنت حقا تحب وطنك فيجب أن تؤيد الحركة الوطنية التي قامت لتحصل لك على حقوقك كإنسان ، ومن ثم تحس أن وطنك ملك لك أنت .

مؤامرات الرجعية

انتهت الدورة البرلمانية في ٢٦ مارس ١٨٨٢ ، وكان ال
والهدوء في البلاد كانا على موعد معها ، فذهبا بذهابها و
باتئها . فقد تجمعت في الخفاء عناصر الرجعية التي ها
الثورة وبدأت تعمل لهدم المكاسب التي حصلتها للأمة ،
نقضى على الرءوس الوطنية المفكرة ، فيتآمر الضباط الشرا
على اغتيال زعماء الثورة . غير أن المؤامرة اكتشف أمر
وبعد أن حوكم المتآمرون وقفت العناصر الرجعية الى ج
المدنيين . وأوعز القنصل الانجليزي الى الخديو أن يتمتع
التصديق على الحكم ، ووعده بتأييد السياسة الانجليزية
وباقلاع البوارج الانجليزية والفرنسية الى الاسكندرية لت
عليه حمايتها . وكانت أول فرصة أظهر فيها الخديو عزمه ج
على أن يترامى في أحضان الاستعمار ويطلب حمايته
وزرائه ومن شعبه . وزاد من غضب الوزارة الوطنية
يستمع الخديو الى مشورة القنصل الانجليزي ، وليس
حسب قواعد الدستور حق هذه الاستشارة أو حق الامت
عن التوقيع على أحكام المحكمة العسكرية . ولذلك كتب رء
مجلس الوزراء محمود سامى البارودى خطابا الى أعضاء مجا
البرلمان يدعوهم الى جلسة غير عادية ليعرض الأمر عليهم
واستطاع الخديو أن يحدث الصدع في صفوف الا

واجتماعها ، فأغرى رئيس مجلس النواب محمد سلطان^(١) وستة من النواب الرأسماليين بالانضمام اليه . ومع ذلك فقد اجتمع المجلس وقرر بأكثرية ساحقة أنه اذا استمر الحديو على دسائسه مع القنصلين الفرنسى والانجليزى لم يكن هناك مناص من خلعه ومحاكمته .

وخرجت « الطائف » تكشف عن المؤامرة وعناصر الرجعية التي تجمعت لتطعن الثورة من الظهر ، وتناصر الثورة ومجلس النواب في موقفهما الوطني ، وتلقب عرابي « بحامي الديار » والحديو « بالخانن المخدوع » ، وقد قد فيها النديم القناصل لاغرائهم الحديو باستعادة سلطة أبيه المطلقة وهدم الحياة الدستورية ، ثم هاجم في عنف وقسوة الأسرة المالكة في سلسلة من المقالات بدأها محمد علي ثم ابراهيم .

أما هجومه على اسماعيل فقد جاء تحت عنوان كبير « مصر واسماعيل باشا » قسمه الى فصول أيدها بالوقائع التي رآها ورأى العين . فصل منها بعنوان « سلب الأملاك من الملاك » ، وآخر بعنوان « السخرة واستخدام الأبدان بلا شكر ولا أجر » ، وثالث بعنوان « في الأموال وملحقاتها » ^(٢) . وفيها كتب النديم ما يستثير حفيظة النفوس ويضاعف الكراهية

(١) أغراء بأن الأساطيل الأوروبية آتية لتقمع الثورة وتعيد الطام القديم ،
ووعده بتتعيينه رئيسا للوزراء .

(٢) الفصول بالعدد ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ / ٦ / ٥ / ١٨٨٢ من الطائف ج.

لإسماعيل ويجلب اللعنة والمقت لأسرته ، وجرده فيها هو وأسرته من صفة الآدمية ، ونسبه الى عالم المتوحشين .

ثم يأتى دور توفيق ، فيسفر عن عدائه له ويهاجمه لضعفه ولؤمه وارتمائيه فى أحضان الدول الأجنبية ، وعدائه لأهل البلاد ، ويتهمه بخيائته لوطنه ودينه ، فى أسلوب لاذع وتهكم ساخر . وبلغت الأزمة غايتها بين الحديو ورجال الثورة ، وبدأت النذر تعلن عن اتخاذ عمل حاسم ازاء الحديو . وأراد الحديو أن يكسب الوقت حتى تصل اليه المعونة والسند فى البوارج الحربية . فأوعز الى سلطان باشا وبعض النواب أن يسعوا بالصلح والتوفيق بين الطرفين . وتمت الوساطة فى ١٥/٥/١٨٨٢ ، على ألا يستشير الحديو الأجانب فى أمور الدولة ولا يقطع أمرا الا باذن من الوزارة الدستورية ، واشترط الحديو من جانبه أن تعطّل جريدة « الطائف » ترضية له بسبب الاهانات التى ألحقها به والاشاعات التى أشاعتها عنه . فتقرر تعطيلها شهرا فى ١٧ مايو ١٨٨٢ بعد العدد الثالث والأربعين الصادر فى ١٣ مايو ١٨٨٢ .

وتطورت الأمور فى سرعة حتى كانت فى طورها أسرع من الخيال . فالصلح الذى تم بين الحديو والوزارة وعودة السلام والأمن الى البلاد لم تكن لتحقيق غرض الدولتين من تحين فرصة للتدخل العسكرى . ولذلك فقد انتظرتا حتى وصلت الأساطيل الحربية الى الاسكندرية ، ثم تقدمتا بذاكرة مشتركة فى ٢٥/٥/١٨٨٢ تطلبان فيها سقوط الوزارة البارودية ونفى

عراي خارج البلاد وتحديد اقامة زميله على فهمي ، وعبد العال حلمي في الريف المصري .

وعارضة الأمة كلها هذا الانذار ، وطلب رفضه ، ولكن الخديو تقض شروط الاتفاق وسارع الى قبول المذكرة ^(١) ، فاستقالت الوزارة البارودية في ٢٦ مايو ١٨٨٢ احتجاجا على الخديو .

وهاجت النفوس بسبب استقالة الوزارة الوطنية الدستورية ، وتأججت الثورة في القلوب ضد الخديو وأنصاره لقبوله الانذار ، وانضمت الأمة الى عراي ضد الخديو والقلّة الرجعية من الرأسماليين ومؤيديهم الأوربيين ^(٢) ، وعقدت الاجتماعات الوطنية في أنحاء البلاد تأييدا لعراي واعلانا لرفض الانذار . وسافر النديم الى الاسكندرية التي تهددها الأساطيل ، « وعقد اجتماعا هناك من عشرة آلاف نفس ، فخطبهم ، وطلب رفض طلبات أوروبا ، وهاجم الخديو في وطنيته وكفايته للحكم . وكان يستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وشواهد تاريخية لكي يبرهن على صحة ما يقول ويقنع السامعين بصحة حججه » ^(٣) .

وتقول جريدة « التيمس » وصفا لاجتماع الأمة :

« ... وخرج علماء الأزهر وأعضاء مجلس النواب وأعيان الفلاحين ومندوبو المدارس والمعاهد وفريق كبير من التجار

(١) انضم الى الخديو محمد سلطان وقته من النواب الرأسماليين .

(٢) انظر التيمس ١٨٨٢/٥/٢٩ .

(٣) بليت التاريخ السرى للاحتلال البريطانى ص ٢٢٧ .

وأصحاب الحرف وساروا الى قصر الحديو وطلبوا رفض المذكرة
وعودة عرابى وزيرا للحربية (١) .

وتحت تأثير الحوادث وازاء اجماع الأمة أعيد عرابى الى
منصبه (٢) . ومع ذلك فقد ظل توفيق يلح على فرنسا وانجلترا
كى تتخذا عملا ايجابيا ، وأن تنزلا جنودهما ليحافظوا على
الأمن ويحموه من المصريين (٣) .

وأراد السلطان التركى ازاء الاقسام بين الأمة وواليها من
قبلكه أن ينتهز الفرصة ويستعيد سلطانه المفقود على مصر ،
فأرسل بعثة تحقق فى أمر الخلاف بين الحديو والوزارة برئاسة
درويش باشا . وأرسل عرابى عبد الله النديم الى الاسكندرية
ثانية لكى بهىء الجمهور لاستقبال البعثة والاحتجاج على
المذكرة الثنائية .

وعن هذه المهمة يحدثنا النديم فيقول :

« بلغنا (رؤساء الحركة الوطنية) اتفاق السير ماليت والمستر
كولفن ، على أن يحدثا فتنة فى الاسكندرية بين الكافر والمؤمن ،
ليسوغ للأساطيل أن تخرج العساكر الى البر ، بدعوى أنها
خرجت لقمع الشر . فتوجهت فى الحال الى الاسكندرية ،

(١) التيمس ٢٩/٥/١٨٨٢ .

(٢) أعيد عرابى وحده ولم تكن هناك وزارة وظلت مصر ٢١ يوما دون مجلس
وبراء .

(٣) التيمس ٣٠/٥/١٨٨٢ .

وأعلنت جمعية الشبان القصدية ^(١) بأنى أريد أن أخطب بامر فيه صلاح بلدنا وتقوى عددنا . فاجتسعت مئات غير محصورة ، وخطبت فيهم خطبة الأتقوشى المشهورة ، ونهتهم على لزوم السكون ، اذا كثرت الظنون ، والبعد عن مجالس الأجانب حتى تنتهى تلك المصائب ، وحرضتهم على لزوم الهدوء وعدم التداخل مع العدو ، وبيئت لهم أن عرابى أخذ عهدة الأمن على نفسه والحديو يسعى فى عكسه .. ^(٢) .

وبلغ أمر الاجتساع محافظ الاسكندرية عمر باشا لطفى ، وهو من أنصار توفيق ، فدعا النديم الى دار المحافظة ، ثم هدده وتوعده . ولكن النديم بين له أن الضبطية والمحافظة لا تلقى بالا الى تسليح الأهالى والأجانب ، وأشار له النديم اشارة خفية بأنه — أى المحافظ — يريد الفتنة لمصلحته ومصالحة سيده الحديو . وأراد المحافظ أن يضع النديم فى الحجز ، ولكن الشبان والجماهير الغفيرة التى تبعت النديم الى دار المحافظة هددت باقتحام السجن واخراجه ، فأطلق مرآحه .

ويقول الشيخ محمد عبده عن خطب النديم فى الاسكندرية وقتذاك : « ادعى محافظ الاسكندرية أن خطب النديم كانت تدعو الى الفتنة والشغب . مع أن خطابات النديم فى ذلك الوقت كانت تعتبر من المسكنات ، لأنها كانت تدعو الناس الى عدم

(١) يريد جمعية المقاصد الخيرية للشبان بالاسكندرية .

(٢) تاريخ مصر فى هذا العصر من ٦٥ - ٦٦ .

الامتناع في مشاجرة حتى ولو أسيئت معاملتهم أو ضربوا بواسطة أوباش الأوربيين ، منها إياهم أن تلك هي الغاية التي كان يرمى إليها الخصوم لاعطاء الانجليز حجة يتسكنون بواسطتها من اطلاق النار على الاسكندرية » (١) .

وعندما سار موكب بعثة السلطان في شوارع الاسكندرية كانت التهتافات التي علمها النديم للجماهير تتعالى : « اللايحة ... مرفوضة » .. « ردوا الأسطول ... ردوا الأسطول » (٢) .

وعاد النديم الى القاهرة لتنظيم حملة دعائية بين البلاد لتأييد رجال الثورة والوزارة الوطنية ضد الخديو ، فوزع الخطباء على المديرات تخطب وتطلب الى الناس كتابة العرائض وارسالها الى بعثة السلطان يحتجون على المذكرة ويطلبون عزل الخديو . وجاءت وفود المديرات ووقع ٩٠ ألفا من أعيانهم عرائض قدموها الى درويش باشا يطلبون فيها رفض مذكرة أوربا وابقاء عرابي وعزل الخديو .

وذهب علماء الأزهر يقابلون درويش باشا ، ونصحوه بأن ينزل على ارادة الأمة ويأخذ بمطالبها ، ولكنه اعتبر ذلك جرأة منهم وطردهم من مجلسه . فثارت ثائرة الأزهرين . وعقد اجتماع كبير بالأزهر ، وطلب الى النديم أن يخطب الحاضرين ، وكانوا يزيدون على أربعة آلاف نفس (٣) .

(١) من تقرير الشيخ محمد عبده الذي كتبه وهو متفى بسوريا عام ١٨٨٢

وطبعه بلنت في التاريخ السرى من ٥٠٤ - ٥٠٨ .

(٢) انظر بلنت : التاريخ السرى من ٣٠٦ .

(٣) بلنت . التاريخ السرى ص ٣٣٠ .

ويعصف صحفي^(١) حضر الاجتماع اثر خطاب النديم لصديق له فيقول : « وليس عندي من الوقت ما يسمح لى بوصف التأثير الذى أحدثته خطبة النديم فى العلماء ؛ فقد سمعت أنت النديم وتعرف كيف يشتاق الناس الى سماعه والى أى حد يتأثرون بفصاحته »^(٢) .

« ووقفت الأمة كلها صفا واحدا خلف الثورة ما عدا سلطان باشا وأذنايه ، وأصبح المصريون ينظرون اليه والى الخديو كأنهما خائنان » .

وأكره درويش ازاء هذا الاجتماع من الأمة على أن يرفض مذكرة الدولتين رغم الرشوة^(٣) الضخمة التى قبضها من الخديو ليكون فى صفه ضد عرابى والمصريين .

التحالف غير المقدس

ورأى الخديو وأنصار الرجعية من حوله ومشلا النفوذ الأجنبى أن الأمر يكاد يخرج من أيديهم وأن أعمالهم قد أحبطها اجماع الأمة وقرار درويش برفض المذكرة ، وأنه سوف يثبت للرأى العام العالمى أن عرابى استطاع وحده أن يقر الأمن والسلام فى البلاد كما وعد قناصل الدول . وكان لا بد اذن من

(١) لويس صابونجى جريدة النحلة .

(٢) من خطاب صابونجى لبلنت التاريخ السرى ص ٢٢٠ .

(٣) قدرت الرشوة بمبلغ ٥٠ ألف جنيه .

عمل سريع يضع عرابى فى موقف الضعيف والأمة فى موقف الاضطراب ، وبذلك يتخلص الخديو من عرابى ويستعيد السلطة الفردية ، ويجد درويش باشا منفذا حتى لا يفتضح أمر الرشوة ، ويجد سلطان باشا وعمر لطفى المناصب والرياسة التى وعدا بها ، ونجد أساطيل الدولتين المبرر للتدخل المسلح .

وأرسل الخديو الى عسيلة عمر لطفى محافظ الاسكندرية برقية بالشفرة تقول : « لقد تعهد عرابى بصيانة الأمن العام ونثر هذا التعهد فى الصحف وجعل نفسه مسئولا أمام القناصل عن ذلك ، فان وفق فى تعهده وثقت به الدول ونصبح نحن فى زوايا النسيان . ثم لا يعزب عن بالك أن أساطيل أوروبا لا تزال راسية فى مياه الاسكندرية ، ولا تزال الحواطر متهيجة ، ولذا لا يستبعد حدوث مشاجرات بين الأوربيين وغيرهم . والآن فاخر نفسك هل تخدمنا أم تساعد عرابى على تحقيق تعهده ؟ » (١) .

ووزع مساعد القنصل البريطانى من جانبه الأسلحة على الأجانب واستقدم الخديو الأعراب المأجورين لأحداث الشعب الى الاسكندرية فدخلوها بعصيتهم ونبايتهم وبنادقهم . وأصبحت الأعصاب كلها مشدودة وبقيت الحالة المتوترة على الشرارة الأولى لتنفجر ، وكان أن وقع حادث الاسكندرية فى ١١ يونية ١٨٨٢ بين بعض العامة من المصريين وبعض الأجانب ، قتل فيه عدد من الجانبين .

(١) من تقرير أحمد بك رفعت الذى كتبه وهو فى السجن عام ١٨٨٢ وطبعه بلنت ملحقا لكتابه التاريخ الرى من ٥٠٠ .

وعقب حادث الاسكندرية أقنع القنصل البريطاني توفيقا
بالسفر الى الاسكندرية خوفا على حياته من الثوار في القاهرة ،
وحتى تحميه الأساطيل الأوربية في الاسكندرية من المواطنين .
وقرر السلطان التركي تحت الضغط الانجليزى الفرنسى أن
يتدخل تدخلا مسلحا ، ولكن هذا الخبر قوبل بالسخط والتورة
من المصريين وحول مجرى الشعور المصرى الى كره السلطان نفسه
بعد أن ظهر لهم أنه لم يكن جادا في مساندتهم ضد التدخل
الأوروبى ، بل كان يمهّد الأمر لنفسه كى يلغى الامتيازات التى
حصلت عليها مصر وجعلتها شبه مستقلة ويستعيدها ولاية
تركية . وجهرت الصحافة والخطباء بمعارضة هذا التدخل .

وكان النديم لا يهدأ يخطب الناس ويعبى شعور الأمة ضد
الأعداء الثلاثة : التدخل الأوروبى ، والحديو ، والعدو الجديد
التدخل التركى .

ومع أنه كان ينادى بالتبعية الدينية للسلطان التركى الا أنه
كان يرى فى التدخل المسلح افتئاتا على الدين واشعال حرب
أهلية بين المسلمين .

وتوالت على السلطان التركى العرائض من العلماء من البلاد
العربية والاسلامية ، وأنكروا أن يرفع مسلم سلاحا فى وجه
مسلم آخر . وساندت البلاد العربية مصر فى موقفها . وكانت
من مظاهر هذه المساندة ما فعله الشعب السورى كما ترويه
جريدة « التيمس » لمراسلها فى سوريا : « عسكرت الجنود
التركية فى اللاذقية انتظارا لأوامر الابحار الى الاسكندرية حتى

توقف الهيجان والاخلال بالأمن ، وقاطعهم السوريون وامتنعوا عن التعامل معهم وأظهروا لهم الجفاء والامتهان ونعوا عليهم خروجهم لحرب اخوانهم المسلمين ، وكان أولى لهم أن يحاربوا أعداءهم الثائرين عليهم . وخرج على المقاطعة أحد كبار التجار فباع الجنود الأتراك لحوما وطعاما ، فلم ينته اليوم حتى أحرقت متاجره كلها في المدينة ، وكان الرجل يطلب النجدة كالمجنون من الأهالي فيصقون في وجهه ولا يتحركون لمساعدته ، بل يطلبون اليه أن يسأل سادته الأتراك النجدة »^(١) .

الطائف توأصل الجهاد

وحين أعلن تأليف الوزارة الجديدة برئاسة راغب باشا في الاسكندرية وعين فيها عرابي وزيرا للحرية كى يحافظ على الأمن في البلاد أصدر عرابي أمره بمنع الاجتماعات والخطابة حتى لا تثير النفوس ضد الأجانب المقيمين في البلاد . وكان لابد للحزب الوطنى من صوت يصله بالجمهور ، فأصدر النديم « الطائف » من جديد بعد أن اتهمت مدة الشهر المحكوم بالغلق عليها به وظهر العدد ٤٤ في ٢١ يونية ١٨٨٢ وكتب تحت عنوان « مصر والسياسيون » يفند آراء الدول التى اجتمعت في مؤتمر الآستانة^(٢) لتبحث الموقف في مصر ، ويبين موقف مصر بما لا يدع

(١) التيمس ١٨٨٢/٦/٣٠ -

(٢) هذه الدول هى : إنجلترا ، ألمانيا ، روسيا ، إيطاليا ، النمسا .

مجالاً للشك في أنها لا تقبل التدخل ، وستحارب حتى آخر قطرة من دماء أبنائها كل من تسول له نفسه إرسال جيوش لمصر .
وعالج الأزمة الصحفية التي قامت بين الصحافة الوطنية والصحافة الشامية حول موضوع دس على الصحفيين حتى يشغلهم عن مهتهم الأصلية من تنبيه الأذهان وتهئية الأمة للخطر المهدق بها وللدور الذي تسير فيه ، فقد هاجمت إحدى الصحف الوطنية الصحفيين الشاميين واتهمتهم بمالأة أعداء الأمة ، وهاجمت الصحافة الشامية بدورها الحركة الوطنية والمصريين . وأدرك النديم وهو زعيم الصحافة في ذلك الوقت ولسان الثورة والمتحدث باسمها خطر اقحام الصف العربي ، فكتب مقالا تحت عنوان « المصريون والشاميون » وضع به حدا للخلاف ، ونادى فيه بوحدة الصف العربي ، وذكر خدمات الصحافة الشامية لمصر . وقلت مقاله جميع الصحف ، وأرست مقالته الجميع وانحسم الخلاف ^(١) .

وكتب عن « الحياة الوطنية » وكيف أنها « السر الذي تبعثه الخواطر الى الأفكار فتتوجه بالهمم الى أعالي الأمور على مراقى الحرية ، ولا يقوم بهذا السر في كل أمة الا رجال العزائم وأهل الاقدام على صعاب الحوادث يقطعون العقبات بالصبر على المشاق ويصرفون نفيس العمر في شراء الخالد من الذكر الجميل ،

(١) الطائف ١٨٨٢/٦/٢١ .

وما أعمالهم الا شرارة تتعلق بكبريت طبائع الأمم فيعلو بها
لهيب يشم رائحته الغريب ويرى ضوءه البعيد ... » .

وكتب تحت عنوان « كشف الخبأ » عن الصحافة المتلونة
فيقول : « ظنت بعض الجرائد المحلية أن حالتنا الراهنة فرصة
تمكنها من اظهار مقاصدها ، فتلونت في عباراتها تلونا لم تهتد
فيه الى طريق الصواب ، فأخذت توغر الصدور مرة وتظهر
اختلاف الكلبة أخرى ... ان الجرائد بالنسبة للأمة كالمرشد
الأمين ، ونحن في زمن أنفق فيه المرجفون بضاعتهم الزائفة .
فعلى المحررين أن يحفظوا الأفكار ويدافعوا الرجعية بالأدلة
والبراهين ، لتكون الأمة آمنة مطمئنة بعيدة عن التشيع وتقريظ
الكلبة . فانه معلوم أن كل أمة تعلقت آمالها بالمصريين تبث فيهم
من يشوش أفكارهم ويرهب قلوبهم ويبعثهم على الاختلاف
والتأمر لتسكن منهم عند تمكنها من أفكارهم . وهذا مما يفضى
على الجرائد بالبعد عن الغرض والميل مع الدراهم والمذاهب
والتابعة ، لأن ذلك مناف لوظيفة الجرائد ، مسقط لقدر المحرر ،
ولا يسير في هذا الطريق الا من عسى عن الحق وكان في البلاد
من المفسدين » .

وفي عدد آخر من « الطائف » ^(١) كتب النديم تحت عنوان
« المصريون والأوروبيون » يرد على الصحف الأوروبية وعلى
رأسها « التيس » تهمة التعصب الدينى ، ويبين كيف يعيش

(١) الطائف ١٢ شعبان ١٢٦٩ الموافق ١٨٨٢/٦/٢٩ : يلاحظ أن المجلة في
هذا العدد لم تصدر في يومها الأسبوعى الاربعاء ، بل صدرت يوم الخميس .

لأقباط والمسلمون واليهود في مصر معا في أمان وتعاون وسلام،
يعلمون لوطنهم يدا واحدة لا يعكر صفوهم الا تدخل الأجبي .
وحتى الأجانب الذين هاجروا الى مصر يعيشون في القرى
والمدن دون أن يزعمهم أحد أو يلهم بهم لامة ، مع أن الكيرين
منهم خدعوا المصريين واغتصبوا أموالهم واحتلوا أراضيهم ،
ومع ذلك فهم في مأمن من كل تعصب ديني .

ثم رد أسباب حادث الاسكندرية وهجرة الأجانب من البلاد
الى حضور الأساطيل وتهديد الدول الأوربية مصر ، والى
الدعايات المفرضة التي تنشرها الصحف الأجنبية لتحديث القلق
في نفوس الأجانب والمصريين على سواء ، ومضى يهول :

« وعلى ذكر التعصب الديني أذكر للقراء ما سمعته من
مولانا الفاضل العالم العامل الأستاذ الانبأى شيخ الاسلام
الحضرة صاحب السعادة أحمد باشا عرابى وكثير من أمراء
الجهادية وبعض سكان انجلترا ، اذ سأله سعادة عرابى باشا عن
الأحوال الحاضرة فقال : ان لى جاراً أوروبياً أراد أن يضع أثاثه
أمانة عندى ويسافر ، فقلت له : لا تخف من شيء ولا تسافر ،
فان الدين الاسلامى يقضى علينا بحفظ المستأمن وصيانة ماله
وروحه من كل العوارض ، وان المعتدى على مستأمن كالمعتدى
على المسلم سواء بسواء ، وهذا أمر معلوم لكل مسلم ، فهم
لا يعتدون على أحد ولا يهتكون حرمة نزيل ، فان الشرع
الشريف حرم ذلك عليهم . وبهذا سكن روعه واطمأن قلبه »^(١)

(١) الطائف ١٨٨٢/٦/٢٩ .

وذكر تحت عنوان « اسماعيل باشا ومكاتب الفيجارو » مقتطفات من حديث جرى بين اسماعيل باشا الخديو المعزول في منفاه بنابولي ومراسل جريدة الفيجارو ، وهاجم فيه اسماعيل الحركة الوطنية وسمى المصريين بالفلاحين الجهلة . وكان الديق يعلق على كل فقرة من الحديث مهاجبا اسماعيل في سخرية لاذعة ، وختم الحديث بقوله :

« وما نشرنا هذه المحاوره وشرحنا عباراتها الا ليظهر للتشدين باسماعيل سوء ضميره بالمصريين واصراره على الفتك والظلم كوسيلة لمعاملتهم ، وأراهم (دعاة اسماعيل) يقرأون اليوم جريدتى ونفوسهم منقبضة وأفكارهم ذاهلة وألستهم منطلقة بالسب والشتم . ولا حرج عليهم فى هذا كله ، فقد تربوا على قتل المسكّم عليهم ونهب من يستأمنهم ، فاذا شتموا من ينصحهم ويظهر للناس سوء أعمالهم فقد نزلوا من درجة الانسانية وكلما تقدمت البلاد فى ضبط النظام تهقر هؤلاء الجاهلون بحقائق الانسان ، الغافلون عن حقوق الخلق وعقاب الخالق ، ولو قدروا النعمة حق قدرها ما كفروا نعمة هذه الأيام ولشكروا الساعين فى تأسيس الحكومة على نظام يحفظ لكل ساكن فى هذه الديار حقه ، ولكنهم عن هذا التصور بعيدون وبعلاذاتهم مقيدون » (١) .

كان من الطبيعى أن يفكر الخديو وأنصاره فى التخلص من

(١) الطائف ١٨٨٢/٦/٢٩ .

النديم عدوهم اللدود باحدى وسائلهم التركية ، ليسكتوا لسانه عن الهجوم عليهم وليهدموا ركنا مهما من أركان الدعاية للحركة الثورية ، وكانت أولى المحاولات هى استدعاء النديم الى الاسكندرية بواسطة راجب باشا رئيس الوزراء ثم التخلص منه هناك . ولما استدعاه محافظ القاهرة وأبلغه هذه الرغبة أدرك الأمر واكتشف المؤامرة .

وكانت المحاولة الثانية أن دسوا له ميجارة مسمومة ، وبعد أن دخن جزءا منها وقع مغشيا عليه ، وفقد بصره لمدة خمس وثلاثين ساعة ^(١) .

يريدونها جمهورية حيادية

أصبحت الاسكندرية مقرا للخديو وأنصار الرجعية يحميهم أسطول أوروبا ، وظل عرابى ورجال الثورة فى القاهرة ، وكان زعماء الحركة الثورية يجتمعون كل يوم ، ومن أبرزهم النديم ومحمد عبده والشيخ محمد الهجرسى والشريعى وحسن العقاد وكبار رجال الجيش مثل البارودى ، وعبد العال حلمى وعلى فهمى ، وكان حديث هؤلاء لا ينقطع حول موقف توفيق من الأجانب وبخاصة منذ سفره الى الاسكندرية وعن نيات درويش الذى كان يكرهه النديم أشد الكراهية ويوجس منه خيفة وطالما أعلن لأصحابه أنه لا يأمن الأتراك بوجه عام

(١) انظر خطاب لويس صابونجى لبلنت : التاريخ السرى ص ٥٤٦ .

ولا يدري هل جاء درويش للقضاء على عرابي أم للقضاء على توفيق أم عليهما معا .

وفي هذه الاجتماعات كان زعماء الحركة الثورية يناقشون مستقبل مصر وأنواع الحكومات التي تصلح للبلاد ، « وكان النوع الجمهوري هو المفضل بين الزعماء ، وكان محمود سامي يتكلم عن فوائد الحكومة الجمهورية لبلاد مثل مصر . ومما قاله : لقد كنا نرمي منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية محايدة مثل سويسرا . وعندئذ كانت تنضم اليها سوريا ، ويليهما الحجاز ، ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم متأخرون عن زمنهم ، ومع ذلك سنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت » .

كانت هذه الفكرة تدرس بينهم في مجالهم الخاص ، ولم تكن تعلن على الملأ حتى لا يستعدوا السلطان التركي عليهم ، وخاصة بعد أن سحب قرار التدخل المسلح تحت الضغط العربي الاسلامي ، بل انهم كانوا يظهرون له الولاء الديني ليستفيدوا من تأييده .

وكانوا ينتظرون حتى يروا الوقت ملائماً لاعلان الجمهورية المستقلة . وقد كان هذا أساس عقيدتهم منذ البداية ، ولكنهم تبصروا العواقب فقرأوا أن يسيروا سيرا ويبدأ في هذا

الموضوع ، والتديم يوجه جهوده نحو هذه الغاية يبذر بذورها
في أذهان الجيل الجديد ^(١) .



عاد الأمن مرة أخرى الى البلاد واستتب النظام في الأيام
الأولى لوزارة راجب باشا ، ولم يؤد حادث الاسكندرية غرضه
المنشود لمديره ، ولم يتعد الاضطراب بعض أحياء المدينة وفانت
فرصة التدخل المسلح على راجبيه .

التعلات الواهية للاعتداء العاشم

كان لا بد من خلق تعلات وأسباب جديدة ينفذ منها
الاحتلال . وكان أولها منشورا أصدره الحديو فجأة ودون
سبب ظاهر في ١٨٨٢/٧/٢١ يبدى فيه خوفه على أرواح
الأجانب المقيمين في مصر في هذه الظروف التي لا يستتب فيها
الأمن في البلاد ، ويندد بما لاقوه من اضطهاد المصريين في حادث
الاسكندرية ، ويلقى التبعة من طرف خفي على التهاون في حفظ
الأمن ومن ثم فهو يتهم عرابي بالتقصير لأنه كان مكلفا بحفظ
الأمن وقت وقوع الحادث .

وأثار هذا الموضوع نائرة زعماء الحركة الثورية . وكان
رأى التديم والبارودي أن يلتزم الحديو الشروط التي أخذها
على نفسه بالألا يصدر منشورا الا عن طريق الوزراء ، الطريق

(١) انظر بلنت ص ٣٤٤ ، ٣٤٧ .

الدمستورى للحكم وحتى يأمن رجال الثورة بألا يكون لعبة
فى أيدى القنصل البريطانى .

واعتر النديم هذا المنشور دليلا على سوء نية الحديو
ومحاولته القاء تبعة حادث الاسكندرية على عرابى والمصريين
حتى يتألب عليهم الرأى العام العالمى . وكان من رأيه أن يخلع
توفيق وأن يولى ابنه عباس تحت وصاية عرابى أو محمود
سامى^(١) .

أما ثانية التعلات والأخيرة فى سلسلة الاختلاقات فكانت
طلب قائد الأسطول البريطانى وقف تحصين الجيش المصرى
للحصون القائمة برأس التين ، ثم طلب قائد الأسطول الم رابط
أمام الاسكندرية تسليم بطاريات الحصون !

لسنا الآن بصدد الحديث حول قانونية هذا الطلب أو
وصمه بأنه تلمس ذريعة لما وراءه من أمر كان قد تقرر بالأمس
البعيد . ولكن الذى يعنينا هنا أن الأمة لم تبحث على قدميها
ذليلة تطلب الرحمة من العدو وهى تعلم مدى قوتها الصغيرة
أمام قوته الضخمة ، ولم تفرط فى كرامتها بالاستسلام ، بل
آثرت أن تخوض معركة يائسة تبيجتها معروفة فتهمز وهى
تحمل شرفها فوق هامات قتلاها على أن تحقن دماء أبنائها
بامستسلام ذليل !!

(١) انظر خطاب سابونجى لبلنت : التاريخ السرى ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .

ورفض الانذار . وضربت الاسكندرية في ١١ يولية ١٨٨٢
بقنابل الأسطول الانجليزى !!

وقالت طوابى الاسكندرية وأدت مدفعية الساحل واجبها
كاملا ، وظلت تضرب العدو حتى أسكتتها قنابل الانجليز التى
كانت أبعد مرمى ، وتقانى أهل الاسكندرية فى الدفاع عن
مدينتهم رغم أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج
وبذلوا ما استطاعوا من تضحية واقدام .

ويقول الشيخ محمد عبده « كان الرجال والنساء تحت
مطر الكلل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض
بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وهم يغنون ^(١) » .

ويقول محمود فهمى باشا « رأيت فى ذلك الوقت بعينى
ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كيبية وطوابى
باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم
المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات ، هم ونسأؤهم
وبنائهم وأولادهم ، والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع
ويضربها على الأسطول ^(٢) » .

وبعد قتال مرير تغلبت القوة والمعدات على الشجاعة ،
ونزلت الجنود الانجليزية الى قصر عميلها أمير البلاد الذى
سارع ليهنتها وليضع نفسه تحت حمايتها !!

(١) تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٢٠ .

وصلت الأخبار الى القاهرة ، فسارع النديم ومن كان في العاصمة من رجال الثورة الى الاسكندرية . ورأى النديم بلده الحبيب وقد دكته القنابل وذهبت بعماله ، وتهاوت مراتع الصبا وأماكن الذكريات . لم يستقبله - كعادته - أنصاره ومريدوه ، فقد أفرزهم الخطب وأخلوا المدينة . فصارت قاعا صنفصفا لا يرى فيها الا آثار الطمع البشري : تخريب وتدمير ، دماء وأشلاء وضحايا من الأبرياء . وسار النديم بين شوارعها حزينا كئيبا يضغط على شفتيه حتى تظلا مطبقتين - ولم تكونا تعرفان السكوت - كي لا تحرقهما كلسات كالحمم تخرج من بينهما يدفعها البركان الثائر في قلبه . ومن لكلماته الآن ، وأين الآذان التي تصل قلبه بالقلوب وتلهب بثورته العواطف والشعور ؟ لقد هربت وهي العزلاء قبل أن تقترسها ذئاب البشرية أو تنهشها الضباع الآدمية المسلحة .

وقابل في تجواله زميله محمود سامي البارودي يبكي في شعر صامت الدمن والأطلال ، ولكنها ليست دمن سَعْدَى ولا أطلال هند ، بل أطلال البشر ودمن المواطنين . وقضيا الليل في منزل والد النديم . وفي الصباح توجهوا الى عرابي الذي اتخذ مكان قيادته في ثكنات الجيش « باب شرق » .

ورأى عرابي ومجلس قيادته أنها الحرب بينه وبين الانجليز لا مفر منها في سبيل الشرف والكرامة ، ورأى أن الاسكندرية بعد تحطيم حصون شواطئها أصبحت لا تصلح جبهة للدفاع ، فاستقر الرأي على الانسحاب من المدينة الى منطقة كفر الدوار

وكان لابد اذن من تعبئة الشعور القومى فى البلاد حتى
ينفر الناس للقتال . وذلك ميدان النديم .

إلى الحرب المقدسة

عاد النديم الى القاهرة فى ١٣ يولية لينظم الدعاية للحرب
المقدسة التى تخوضها البلاد . واذا كان النديم قد وقف خطابه
وقلمه وحساسة ووطنيته على خدمة الأمة والنهضة بها وقت
السلم ، فالأمة اليوم وهى فى محتتها تخوض حربا ضد المحتل
وضد عميلته الرجعية هى اليه أحوج . وحمل النديم المسؤولية
كاملة وضاعف من جهده ونظم حملة الدعاية ، فأرسل
الخطباء ^(١) والعلماء الى البلاد يطوفون القرى والمدن
ويحرضون الأهالى على الحرب وامداد الجيش بالجنود والمؤن
والعتاد .

وحين أبرق الخديو لعرابى يأمره بالتسليم للانجليز أبى ذلك
فى خطاب شديد رد به عليه ونعى فيه على الخديو انضمامه للعدو .
ثم أرسل الى يعقوب باشا سامى — وكيل الحرية ورئيس
المجلس العرفى — خطابا ^(٢) يتهم فيه الخديو بخيانة البلاد ،
ويطلب اليه عقد جمعية وطنية من الموظفين والأعيان والمثليين
لجميع الطوائف والهيئات حتى ترى رأيها فى الخديو ومطالبه .

(١) أسماء الخطباء وبعض خطبهم وقصائدهم : انظر كشف الستار وسر الاسرار

ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٥ ، انظر أيضا جريدة المقطم ١٨٩٢/٥/٢٧ .

(٢) نص الخطاب : الوقائع المصرية ١٨٨٢/٧/٢٠ .

وحين عقدت الجمعية مساء ١٧/٧/١٨٨٢ وقف الشيخ محمد عبده يتلو الخطابات المتبادلة بين عرابي والحديو ، ودارت مناقشات بين الأعضاء حين تشكك بعضهم فى خبر ضرب الاسكندرية وحرقتها . فوقف النديم ليحسم النقاش ، وبين للجبسعين حقيقة الحال .

ويحكى شاهد عيان ^(١) مافعله النديم فيقول :

« حضرت له (النديم) يوما فى دار وزارة الداخلية نكاد السوات ينفطرون منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، اذ اجتمع فى بهرة تلك الدار بعد اقطاع المواصلات بين القاهرة والاسكندرية عدد عظيم من سرة المدينة وعظماؤها وعلماؤها ، وفيهم رؤساء الملل الاسلامية والمسيحية والاسرائيلية للشاوره فى امر الحرب ، فلما دار الأخذ والرد بينهم قال المرحوم على مبارك باشا : ما الذى يمنع من أن يكون كل ما بلغنا من أخبار الاسكندرية كذبا وزورا . وكأنه كان يقصد بذلك التهمك والمغالطة . فلم يكذب يتم عبارته حتى ابتدره النديم بصوت أجش وقال : اذا كان لا يكفيك شهادة ٣٠٠ ألف نسمة من الرجال والنساء والأطفال خرجوا من ذلك الثغر مهاجرين لا يملكون الا أنفسهم هائمين على وجوههم فى البلدان والقرى لا يلوى الوالد منهم على ولده ولا الأخ على أخيه كأنهم فى المحشر يساقون ، فما الذى يكفيك ؟ ثم استمر فى خطابه والقوم سكوت كأن على رؤوسهم الطير » .

(١) أحمد سمير سلاقة النديم ج ١ ص ١٩ - ٢٠ .

وبعد خطاب النديم لم يعد هناك مكان لمناقشة . واتخذ المجلس قراراته بالاجماع ، ومن أهمها الاستمرار في حرب العدو الغاصب ، وارسال وفد الى الاسكندرية ليدعو الخديو ووزرائه للعودة الى العاصمة ليديروا الحرب منها .

وفي ٢٠ يولية أعلن الخديو عصيان عرابي ، وعزله ، في منشور طبع وعلق في شوارع الاسكندرية . ودعيت « الجمعية الوطنية » في القاهرة فعقدت اجتماعها الثاني في ٢٢/٧ ، وقررت ابقاء عرابي في منصبه وتوقيف أوامر الخديو ونظاره وعدم طاعتها أو تنفيذها ^(١) .

وأفتى شيوخ الأزهر وعلمائهم بمروق الخديو من الدين لانحيازه الى الجيش المحارب للبلاد والمعتدى عليها . بعد أن اطمأن النديم الى قرارات الجمعية الوطنية خرج يجوب البلاد يستنهض الهمم لقتال الانجليز المحتلين ، ويذكرى نار الحماس في قلوب الشعب ليدافع عن كرامته وشرفه وعرضه ودينه ، يخطب الناس في المساجد والطرقات ، وفي الحقول والمجتمعات ، يتلو عليهم القرآن وينشدهم الشعر ، ليث فيهم روح النخوة والحمية . وفي احدى خطبه ^(٢) يقول :

« يا بنى مصر .. هذه أيام النزال ، هذه أيام النضال ، هذه أيام الذود عن الحياض ، هذه أيام الذب عن الأعراض ، هذه أيام يمتطى فيها بنو مصر صهوات الحماسة وغوارب الشجاعة

(١) تفصيلات : انظر الوقائع المصرية ١٨٨٢/٧/٢١ .

(٢) سجلها فيما بعد بجريدة « الطائف » ١٨٨٢/٧/٢٨ .

ومتون الاقدام لمحاربة عدو مصر ، بل عدو العرب ، لا بل عدو الاسلام ، الدولة الانجليزية خذلها الله ورد كيدها في نحرها ..
« يا أهل مصر ... انما آجال الناس محدودة .. فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فاخرجوا للحرب عدوكم ولا تخشوا الموت فلكل أجل كتاب .
ومن لم يمت بالسيف مات بغيره

تعددت الأسباب والموت واحد

« يا أهل مصر .. ليس من قعد عن نصر الله كمن جاهد في سبيل الله . لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله ، أولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا والله عنده أجر عظيم » .

« يا أهل مصر .. انما الانجليز نجس ، فلا يقربوا البلاد بعد علمهم هذا . وان خفتم ضعفا فتآزروا وتعاونوا ينصركم الله عليهم ، والله قوى عزيز . لستم القائمين بالواجبات ولا حاملين لأراضيكم وبلادكم ان تقاعدتم عن حرب الانجليز الخائنين . كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » .

« يا أهل مصر .. ان الانجليز يقولون مصر هي حصن البلاد العربية ، من فتحها فقد أخذ بلاد المسلمين ، فهبوا للدفاع عن وطنكم ، وثقوا واحفظوا حصن البلاد الاسلامية ، وجاهدوا

فى الله حق جهاده ، لتحفظوا هذا الدين العظيم وتدفخوا عداوا
يريد أن يدخل بالخلل والرجل فى بلد الله يريد أن يدخل الكعبة
المشرفة ، عن طريق بلادكم ، وقد استعان على أغراضه
بخدويكم الذى باع الأمة ارضاء للانجليز وجعل بلاد الاسلام
مقابل حماية الانجليز له ... » .

وسرت خطابات النديم بين الناس مسرى الكهرياء ، تناقلها
الناس فيما بينهم ، فى بيوتهم وحقولهم ومساجدهم ومنتدياتهم ،
وحققت الغرض الذى كانت تهدف اليه .

هيات الحملة التى قام بها النديم وزملاؤه من الخطباء الأمة
للحرب ، وأشعلت فى قلوبهم الغيرة والحماس للوطن والدين ،
وملاأت النفوس رغبة فى الاستشهاد فى سبيل الله والوطنية .
وأشربت قلوب الأمة كلها بحب عرابى ، ولقب بحامى حصى
الديار والمدافع عن الاسلام . « وامتد ذلك الشعور الى رجل
الشارع والأطفال الصغار والكبار » ، وكان الكل يهتف : « الله
ينصرك يا عرابى » ^(١) . ووجهت المصريين الى رفض منشورات
الخدو وخلع الطاعة له « فلم تنجح منشورات الخديو فى أهل
البلاد ، بل لم يكن لها أقل تأثير » ^(٢) .



واستطاع النديم أن يجنب صفوف الأمة الشقاق ، ففى

(١) من خطاب احمد رفعت لبرودلى كيف دافعنا عن عرابى من ٥٠٢-٥٠٣ .

(٢) مصر للمصريين ج ٥ ص ١٢٥ .

دعايته للحرب المقدسة لم يكن يفسرها على أنها حرب بين المسلم والمسيحي ، بل بين المصري والأجنبي ، بين المؤمن والكافر . فقد أعلن بطريرك الأقباط أن الانجليز خرجوا عن تعاليم المسيحية الحقّة التي تدعو الى السلام وعدم الاعتداء . ومن ثم كان الانجليز في نظر النديم والمسيحيين المصريين — فوق أنهم غزاة مغتصبون — كفرة خارجون على دينهم يجب حربهم . ولذلك كانت صفوف الأمة متراسّة في حربها الوطنية الكبرى .

ولم تعب طويلا ثمرة الحملة الدعائية التي نظّمها النديم فقد قامت الأمة كلها كرجل واحد تدافع عن شرفها وتحارب عدوها وعدو الدين . وتوالى الامدادات من المصريين على اختلاف طبقاتهم وامكانياتهم . وكانت النساء تتبرع عن طيب خاطر بحليها لتكون ثمنا للعتاد ، وكان الرجال ينضّسون الى معسكرات التدريب ليخوضوا المعركة ، ويهبون للجيش ما ادخروه من طعام لأنفسهم ولأمرهم ، وهرع الشيوخ الى المساجد والكنائس يدعون الله أن ينصر جيش الوطن^(١) .

ولم يدخر المواطنون وسعا في تقديم المعونة للحرب المقدسة ضد المعتدى الغاصب فقدموا أنفسهم وأموالهم قربانا لبلادهم على مذبح الوطنية ، وتساوى في ذلك الرجال والنساء والأطفال والشيوخ ، ووقف في صفوف المحاربين المسلم الى جوار المسيحي الى جانب اليهودى يلبى الجميع نداء الوطنية .

(١) انظر برودلى ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

ويقول الشيخ محمد عبده : « لقد رأيت المواطنين جميعهم ينفرون الى الحرب في شوق وحمية لقتال المعتدين لا فرق بين فلاح وبدوى ومدنى ، وكانت الغيرة الوطنية تملأ قلوب الجميع ... وكانت شوارع القاهرة تغص في المساء بالاستعراضات العسكرية من الشبان يجولون شوارعها وهم يشدون الأناشيد الوطنية التي تشيد ببطل الحرية ، ويهتفون للزعيم الناصر أحمد عرابي ... وفي كل اجتماع أينما كان وفي أى وقت حين يرد اسم البطل أو تذكر الحرب يتجه الناس بالدعاء له بالنصر على الأعداء ^(١) » .

ولم تكن مصر معزولة عن العالم العربى والاسلامى في محتتها ، فقد أثار ضرب الاسكندرية بقنايل الانجليز ثائرة العرب والمسلمين جميعا .

فقد اعتلى العلاء المنابر في تركي واخذوا يستنفرون المسلمين كي يحصلوا أسلحتهم ويتطوعوا في الحرب المقدسة التي أثارها المعتدى ضد اخوانهم في الدين ، ولكي يحموا أرض الاسلام من أن يطأها مغتصب ^(٢) .

وفي الهند ثار المسلمون في الامبراطورية المستعمرة على حكامهم البريطانيين فأسرعوا وحددوا اقامة جمال الدين الأفغانى — وكان بالهند — واستدعوه من حيدرآباد الى كلكتا وسجنوه

(١) كما نقله عنه يرودلى ص ٢٢٣ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أحداث مصر الداخلية والخارجية من عام

١٨٦٧ الى ١٨٨٢ . رسالة دكتوراه من جامعة لندن . ص ٥٢٨ - ٥٢٩ .

بها حتى انتهت الحرب ، واضطروا لكى تهدأ النفوس أن يستصدروا فتوى من أحد صنائعهم من العلماء بأن « عرايا » مخالف للدين الاسلامى لأنه خالف أوامر الخديو وهو ولى الأمر وطاعته من طاعة الله .

وفى الشام حبل الرجال السلاح وأعدوا الكتائب من المجاهدين ، ولكن جنود السلطان التركى منعتهم من الابحار الى مصر .

« وفى تونس أخذت الصحافة العربية تشيد بعرايى وتلقبه بحامى الاسلام والعرب ، وهرع الناس الى المساجد ، وصلوا فى مسجد القيروان يدعون الله أن ينصر أحمد عرابى ، وأن يخذل الانجليز .

وكان العربى فى تونس يهمس فى أذن الآخر ، لقد ظهر أخيرا منقذ للاسلام ومخلص لبلاد العروبة من الاستعمار^(١) .

لقد عمت الكراهية وأخذت موجات البغض تسرى بين البلاد العربية من الخليج الى المحيط ضد الأوربيين المعتدين ، وأثار اعتداء الانجليز على مصر ذكرى اعتداء فرنسا على المغرب ، وتمثل العرب جميعا عرايا كبطل للحق أمام الباطل وبطل للحرية أمام المستعمرين .



شغلت الأحداث الأخيرة النديم عن أن يصدر « الطائف »

(١) برودلى ص ١٧ - ١٨ .

في موعدها الأسبوعي ، فلم تدع حملة التعبئة للحرب وقتاً
لتحرير الجريدة .

وبعد أن أتم رسالته داخل البلاد لحق بعرايى في مقر قيادته
« بكنج عثمان » ولازمه كمراسل حربي لصحيفة « الطائف »
التي أعاد إصدارها في ٢٨/٧/١٨٨٢^(١) ، وأصبحت تصدر في
صفحة واحدة كل يوم تقريباً .

وتظهر الأحداث أن النديم لم يكن مراسلاً لجريدته فقط ؛
بل كانت مهمته أكبر من ذلك ، فقد كان مستشاراً لعرايى يدلى
برأيه في كثير من مهام الأمور ، وألقيت تبعة الدعاية كلها على
عاتقه ، فكان عليه أن يعمل ليل نهار بعقله وقلبه ولسانه في
ميادين مختلفة .

كان عليه أن يحارب جيش الاحتلال الذي جاء ليستعر
بلده فيعبيء شعور الأمة لتبغض الغاصب وتنضم الى الجيش
الذي سماه بالجيش الاسلامى ، ولتقدم المعونة له في حربه
المقدسة .

ويحارب الخديو الذى خدع المصريين وخان وطنه وانضم
الى أعدائهم . وكان مما قاله فيه^(٢) :

« تأملوا يا أهل مصر أفعال الخديو ، كيف ملك الانجليز
أمره وجعلهم حكاماً يأمرون بالقتل ويحكمون في قضايا المصريين

(١) صدر العدد ٤٦ في ٦ يولييه ١٨٨٢ .

(٢) تعليفاً على نداء الخديو لاهل الاسكندرية بالعودة اليها .

بما برونه ، ثم أخذ يشيع أنه اصطلاح مع الانجليز ليتسكن صرف
العساكر ودخول الانجليز البلاد بصفة حكام كسيمور^(١) . هذا
هو الحديد الذى طالما رأيتوه يتردد على المساجد يقسم أنه
لمصر والمصريين ، أراد أن يرد أهل الاسكندرية ليذبهم سيمور
الانجليزى ويروى الأرض بدمائهم انتقاما منهم لواقعة ٦/١١
(مذبحة الاسكندرية) التى أسسها الحديد باتفاقه مع كولفن
وكوكسون ليظهر لأوربا أن المصريين متوحشون . ولكن قد علم
أهل القطر جميعا أغراضه وأفكاره السيئة فصرفوا النظر عنه
وعن أفكاره ، واتجهوا لحفظ بلادهم من يد الغاصب ومساعدة
الجيش المصرى بالنفس والنفيس ، فهم باهتمامهم بالتجهيزات
والاستعدادات فى شغل عن الحديد وأعماله بعد أن يؤس كل
مصرى من عودته لحظيرة الوطنية بعد أن اعتز بالانجليز وخلع
طاعة السلطان وباع الأمة لأعدائها^(٢) .

وكان عليه أن يحارب أنصار الحديد الذين يحاولون
بدسائسهم أن يثبطوا همة الشعب ليقعد عن حرب الانجليز .
ويحارب الدعايات المغرضة التى تنشرها الصحف الأجنبية
المعادية ضد المصريين .

ويحارب الدعايات المعادية التى تنشرها الصحف
المحلية بالاسكندرية ، تلك الصحف التى استأهلها أو أنشأها

(١) قائد المعركة الانجليزى الذى احتل الاسكندرية وسار حاكما لها من قبل
الحديد .

(٢) الطائف ٢٨ يوليو ١٨٨٢ .

الحديث لتأييده في موقفه المهين ، وتعارض عرابي (العاصي في نظرهم) وتحاول أن تؤثر على الشعب بخداعها . حصل عليها حيلة شعواء ، فأخرج ملحقا خاصا عنوانه « سليم وبشارة تقلا وتوفيق باشا » هجا فيه الصحافة المأجورة المتقلبة والحديث المخلوع بأسلوب مقذع صارخ ^(١).

وحين صدرت « الاعتدال » ^(٢) يحررها الشيخ حنزة فتح الله هاجمه النديم في قسوة رغم الصداقة الطويلة بينها أبام الشباب ، فقال من العدد الأول الذي صدر منها : « انه يذم المصريين ويتسبح بالانجليز وأعمالهم ، كما يتمدح بأشقى الخلق (أى الحديث) ... فنحن نحذر اخوانا المصريين من مطالعة تلك الوريقة التي تطبع في مطبعة الاجبشيان جازيت في المركب ، ويعرض ما يكتب فيها على سيمور قبل طبعه ... » ^(٣)

وكان عليه أن يثير الشعوب الاسلامية والعربية ضد انجلترا! لمناصرة مصر في حريها المقدسة ، وعلى رأسها تركيا والهند وبقية البلاد العربية .

وكان عليه أن يحمس الجند قبل المعركة ، يلهب شعورهم بخطبه ويدفعهم الى الاستشهاد في سبيل الله ، ويجعلهم يدقون بجماجمهم أبواب الجنة ويحسون ريحها ويرونها من خلال غبار المعركة .

(١) مصر للمصريين : ج ٧ ص ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٧ . برودلي ص ١٢٩ .

(٢) مصر للمصريين ج ٥ ص ١٨٦ و « الطائف » ١٨٨٢/٨/٤ .

(٣) الطائف ١٨٨٢/٨/٤ .

وكان عليه وهو الصحفي الوحيد في الميدان أن يصف المارك ويصورها ويعلق عليها بما يوافق مصلحة الجيش الوطنى ، فيقتل من الهزيمة اذا وقعت ويبرز النصر ويطنطن به حتى لا يفقد الشعب ثقته فى النصر .

وكانت « الطائف » هى الصحيفة الرسمية للسرعة ، فقد كانت القيادة العسكرية ترسل اليها صورة من التلغرافات الحربية التى تبلغ الى وزارة الحربية ، وكانت بقية الصحف تتلقف مقالاتها ووصفها للعارك فتتقلها بنسخها فتسرى أفكارها وأخبارها فى الشعب وتصبح على كل لسان .



وعلى الرغم من أن الأمة قد أوقفت أوامر الحديو ووزرائه فانه ما زال فى رأى السلطان الحاكم الشرعى للبلاد ، ومن ثم كان أنصار الحديو فى الاسكندرية يعيشون الى صنائعهم وعملائهم داخل البلاد بمنشوراتهم التى تصف عرابى بالعصيان لحاكم البلاد الشرعى ، يحاولون التأثير بذلك على المصريين ، وبليلة أفكارهم .

واستعمل الانجليز دهاءهم السياسى فصبغوا عملهم العدوانى بصبغة شرعية — على عادتهم دائماً — وأعلنوا للشعب المصرى أنهم ما جاءوا ليستعمروا البلاد وأنما هم نواب عن الحديو فى اخماد ثورة عرابى ، وأنهم ليسوا أعداء للمصريين ، ورسالتهم أن يعيدوا الى الحديو حقوقه التى سلبها منه الثوار وتتمى مهمتهم بهزيمة عرابى أو استسلامه ثم يخرجون من البلاد .

ومن ثم أعلن النديم في صحيفته الحرب النفسية (حرب الأعصاب) على الخديو وأنصاره من ناحية وعلى الانجليز من ناحية أخرى . أطلق عليهم الاشاعات التي تمس الخلق والعرض والدين ، وصورهم بصورة المنتهكين لحرمة الشرع والقانون الانساني والوضعي وحرمة الأخلاق والشرف ، حتى يهيج نفوس المصريين عليهم ويعبئ قلوبهم بالبغضاء والحقد والكراهية ، ويدفعهم الى حربهم بكل الوسائل ، وحاول أن يصور الخديو بصورة المغضوب عليه من السلطان فأعلن أنه بسبيل تعيين حلیم باشا خلفا لتوفيق الذي اتفقت الدول على عزله ^(١) ، حتى يفقد كل سلطة لدى الشعب .

وأصدر النديم ملحقا خاصا للطائف بعنوان « فعل الخديو » ^(٢) تحدث فيه عن الخديو ومؤامراته مع الانجليز ويبيع الوطن في سبيل حمايتهم له واستياء السلطان منه وتصميمه على عزله .

وامتلأت أعداد الطائف التي صدرت والنديم في مركز قيادة الجيش بحرب الاشاعات التي شنها على الخديو وأنصاره وعلى الانجليز . ومن أمثلة حملته على الانجليز قوله :
« عادت امرأة ومعها ابنتها الشابة الى الاسكندرية بناء على أمر الخديو فاعتقلها الانجليز بباب شرق واغتصبوا الفتاة !! »

(١) الطائف ١٤/٨/١٨٨٢ و ١٦/٨/١٨٨٢ .

(٢) اطر مصر للمصريين ج ٧ ص ١٧١ - ١٧٢ وبرودلى ٢٤١ هذا الملحق مفقود . ولعل الخوف بعد هزيمة عرابي دعا الناس الى التخلص منه .

وقد حضرت المرأة الى كهر الدوار (مركز قيادة الجيش المصرى) ومعها ابنتها المنكوبة المريضة (١) !! .

« عاد ٣٠ رجلا من أهالى الاسكندرية اليها فقابلهم الأروام المسلحون وقتلوا منهم سبعة وجرحوا الباقي ففروا هارين اذ لم يكن معهم سلاح لأنه محرم على المصريين حمله .. وهذه مآثر الخديو وأفعال الأوربيين (٢) .

« أباد الانجليز كثيرا من أهالى الاسكندرية ، وكانوا يفتحون بطون الموتى ويحشونها بالجير ثم يرمونها فى حفرة من غير غسل ولا تكفين ولا صلاة وتوفيق يقول : انهم محبوبون للسلم لا للحرب (٣) .

« قتل الانجليز المساجد بدعوى أن الأهالى يجتمعون فيها للصلاة ، بل للمؤامرات ، ولا يجوز لشخص أن يدخل عود كبرت الى منزله ، ومن وجد وعنده علبه كبرت قتل (٤) .
ومما قاله عن الخديو :

« دخل الانجليز سراى الرمل وسرقوا مجوهرات فاطمة هانم أخت توفيق باشا ، ولما شكت لأخيها لم يرض أن يسمع عن الانجليز أى شكوى ، وقال لها : ان كل شىء هنا ملك للانجليز !! (٥) .

(١) الطائف ١٨٨٢/٧/٢٨

(٢) الرجوع السابق .

(٣) الطائف ١٨٨٢/٨/١٤

(٤) الطائف ١٨٨٢/٨/٧

(٥) الطائف ١٨٨٢/٨/٣

« أباح توفيق باشا للانجليز أن يدخلوا البيوت كيفما شاءوا فصاروا يجردون النساء من الحلى ويفجرون بهن رغم أنوفهن وأنوف أزواجهن ، ومن امتنعت قتلت في الحال !! ولعل ذلك يُسر له توفيق باشا^(١) .

« كثيرا ما يطلب الخديو فجأة الالتجاء الى المراكب الانجليزية خوفا من هجوم الجيش المصرى وحين يطمئنه حراسه الانجليز يعود الى سراى رأس التين ، وقد بلغت به الحال درجة الذهول والحيرة فهو لا يستقر على حال ولا يقر فى مكان^(٢) .

« يقال ان توفيق باشا أراد الهرب مع المحروسة ، ولكن الانجليز قبضوا عليه ، وأنزلوه الى البر ، وحرموا عليه النزول الى البحر ، ولكنهم أبقوا حريمه على المحروسة^(٣) .

« أمر توفيق بقتل جميع العساكر الذين كانوا بقرقول المنتزه ، وأمر بقتل ٨ من الأهالى على أبواب الاسكندرية ليعتبر الناس على زعمه !!^(٤) .

ومما قاله عن أنصار الخديو فى هذه الحملة :

« استغاثت امرأة بعبد المجيد البيطاش (عضو مجلس شورى النواب ممن انضموا الى الخديو) من بعض الانجليز وهم

(١) الطائف ١٨٨٢/٨/٧ .

(٢) الطائف ١٨٨٢/٨/٧ .

(٣) الطائف ١٨٨٢/٨/١٦ .

(٤) الطائف ١٨٨٢/٨/٧ .

يجرونها الى دكان مهجور ليفجروا بها فكان ينظر اليها بلا حراك نظر المضل المبغض لوطنه (١) .

« يقال ان عبد المجيد البيطاش يرافق أحمد باشا رأت في سيره وكلماً رأيا أحدا يكرهانه سلطان عليه الانجليز فيضربونه بالرصاص . فاعجبوا أيها المصريون لفعل نائب من نواب الأمة .. ولكن من باع ماء وجهه بأكلة أو كلسة تعظيم هان عليه قتل اخوانه لغرضه (٢) .

« سلطان باشا مريض ، ويقال ان الغم تمكن منه حتى أضناه وأنهمك جسمه ، وقد امتنع عن تناول الدواء خوفاً من غش الانجليز وهو في أسف عظيم على ما ألمَّ به بعد البعد عن الوطن ودخوله تحت حماية دولة لا تعرف قدره فهو يمثل بقول القائل : وما كنت أدري قبل عزة ما البكى

ولا موجعات القلب حتى تولت (٣)

« أشاع بعض الحاضرين من الاسكندرية أن الانجليز قتلوا سلطان باشا ولكن تبين أن الذي قتل هو خادمه بينما كان يخلع له حذاءه ، وأخطأت الرصاصة سلطان باشا ، ومن الصدمة أصيب سلطان بالأمراض (٤) .

« شريف باشا يبكى في الاسكندرية ويعض أصابع الندم

(١) الطائف ١٤/٨/١٨٨٢ .

(٢) الطائف ١٥/٨/١٨٨٢ .

(٣) الطائف ٣/٨/١٨٨٢ .

(٤) الطائف ١٦/٨/١٨٨٢ .

وغلب عليه الذهول والصمت ، وكان في بعد عن هذا لو لم يمل الى الانجليز ويتفق معهم على اللائحة التي عادت على البلاد بالشر وثار الحرب بسببها وقد أرسل الى أديب اسحق ليحضر من الشام ليسليه على حاله ويدبره في أمره^(١) .

« انضم استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى (وكان أمريكيا) للعدو ، وماذا كان يؤمله الحكام المغفلون من الأوربيين عند الحرب حتى كانوا يدخلونهم فى الإدارات والأعمال العسكرية^(٢) .

قد يكون عنصر المبالغة موجودا فى أخبار هذه الحملة^(٣) ولكنها من غير شك أدت غرضها من تعبئة نفوس المصريين بالكراهية للانجليز والحديو وأنصاره . وكان النديم موهوبا فى تنظيمه لهذه الحرب النفسية فكانت صياغة كثير من الأخبار لا تترك فى الذهن مجالا للشك فى صحتها ، وكان فى أحيان أخرى يقرنها بالحقائق حتى تأخذ صبغة الحقيقة .

والنديم لم يدرس فن الأعلام أو الدعاية ، ولكنه كان موهوبا فى هذا الاتجاه . كان خيرا بالشعور المصرى وحساسيته للكرامة والشرف والعرض والدين وبأن هذه هى مفاتيح الثورة عنده وأوتار اثاره المقد والكراهية ، فضرب عليها وغنى بها ،

(١) الطائف ١٨٨٢/٨/٤

(٢) الطائف ١٨٨٢/٨/٢

(٣) تفصيلات الحملة النفسية : انظر الطائف ٧/٢٨ - ٨/٣ - ٨/٤ - ٨/٧ -

١٨٨٢/٨/١٦ - ٨/١٥ - ٨/١٤

فنجحت الحملة نجاحا كبيرا ، وقطعت خط الرجعة على الحديو ،
وكرهه الكبير والصغير ، وصاروا يتغنون بزمه ويرسلون
الدعوات على حلفائه الانجليز ويشيدون بنصر الجيش الوطنى
ومما قالوه فى ذلك الوقت :

يا توفيق يا وش النملة من قال لك تعمل دى العسلة

يا ربنا يا عزيز كبة تاخذ الانجليز

يا محنى ديل العصفورة وجيوشنا هى المنصورة

وخرج الشعب على بكرة أبيه يحارب الحديو والانجليز عن
ايمان وعقيدة بأنهم يجاهدون فى سبيل الله ويدافعون عن وطنهم
وشرفهم ودينهم ، ضد الخونة الذين باعوا آخرتهم بدنياهم
واتهكوا حرمة الشرع والدين والأخلاق ، وضد الانجليز أعداء
الدين أولئك الكفرة الذين يبعون الاستيلاء على مصر طريق
الحرمين الشريفين للقضاء على الاسلام وعلى حصن العرب
للقضاء على العالم العربى « يحاربون أعداء العرب أعداء الدين
أعداء مصر دولة انجلترا » .

وكان النديم يحرص على ألا يفقد الشعب ثقته فى الجيش
الوطنى ، ومن ثم فقد كان يقتصر — اذا أصابته هزيمة — على
نشر التلغرافات الرسمية دون تعليق . أما اذا أحرز انتصارا^(١)

(١) فى جبهة كفر الدوار كانت كفة المصريين راجحه لقوة الاستحكامات .

فكان يصف ما رآه في المعركة بما يحفز النفوس ويبعث فيها
الحساس والقوة والثقة ، ويكتب تحت عنوان « يوم الملحمة »^(١)
يصف هجوم « ليوث الوغى على أراب الانسانية ، وصيحاتهم
تتعالى : يا ثار الاسكندرية .. يا مجد عرابي .. يا شرف الوطن ..
وما زال الضرب يعلو والنار تستعل حتى حان وقت الغروب
وآن افطار الصائم ، فخيّل لعاكرنا أن رؤوس الانجليز في
برانيطها طعام يوضع في الأطباق لتفطر عليه بنادق الصائمين
ومدافعهم . ثم كبروا وهلموا ، وقد قام بريق المدافع والبنادق
مقام الشمس ، فكان الواقف بجوار المعركة يظن أنه بين جبلين
يغلى باطنهما بركان ... وزار عرابي باشا جريحينا ققالا له ان
جراحنا خفيفة ونريد أن نعود الى ميدان القتال والأطباء تمنعنا ،
فأذن لنا فان هذه الدماء السائلة هي صبغة الشرف ولون النصر
الوطني .

« فقال لهما : انى أبارك لكما مسيل هذا الدم الشريف في
حماية الأوطان ، وان هذا الثوب المصبغ بالدم هو تاريخ
حياتكما الأبدية تفخر به عائلاتكما في حياتكما وبعد مماتكما ،
وانى لأغبطكما على هذا الشرف التليد ، فكل حر يريد أن يزين
ثوبه بهذه النياشين الحمر الوطنية ...

« فصاحا : قاتل دائما .. قاتل لنحيا حياة طيبة لا ذل فيها
أو نموت عن شهادة فنحيا حياة أخرى نرزق فيها عند الله »^(٢) .

(١) الطائف ٢٣ رمضان ١٢٩٩ .

(٢) الطائف ٢٣ رمضان ١٢٩٩ .

وفي « المعمة الثالثة » يبدأ بقول الله تعالى : « وما نريهم من آية الا هي أكبر من أختها ... قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم . ذلکم العادون المقترون ، بغاث الانجليز الذين استنسروا في الوجود بأوهام وخيالات ، واستضعفونا فجاءونا بالخييل والرجل ، وقد زلزلت أرضهم فأخرجت ألقالها ، وثبتت بأقدامنا أرضنا فكنا أوتادها .. غرتهم مراكبهم الحربية ، فتخللوا أنهم سيرون في البر وما دروا أن الأسماك يقتلها التراب وتنتها الشمس ، وهم هي ، اذ لا تفرب الشاطئء خوفا من الصياد وخشية من أسود تتبع فرستها أنى سارت ، يعلم بذلك من شاهد موقعة الأحد ٥ شوال ... » (١) .



من الأخطاء الكبرى التي حولت تيار الحرب وغيرت مجرى التاريخ المصرى أن عرابى لم يستمع الى مستشاريه وناصحيه بسد قناة السويس وأمن لوعود فرديناند ديلبس (٢) بأن القناة أرض محايدة تحميها دول العالم من أن ينتهك حرمتها الانجليز (٣) فانكشف بذلك جزء من الوطن للعدو الذى لا يحترم حقوقا

(١) الطائف ٢٤ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) انظر المراسلات بين المجلس العرقى وعرابى وفرديناند ديلبس في

الطائف ٤ ، ٧ ، ١٤ / ٨ / ١٨٨٢ .

(٣) تعلمت مصر من هذا الخطأ في حربها مع الاعداء الثلاثة عام ١٩٥٦ فكان

أول عمل قام به قائد الامة هو يقودها في حربها القدسه تعطيل سد قناة السويس .

ولا يرعى موثيق . ورأى المحتلون أن غزو البلاد من الدلتا عسير مطلبه لقوة الاستحكامات المصرية وتكتل الجيوش بها ، فخرجت سفنهم تحت جنح الظلام ، واخترقت قناة السويس ، واحتلوا المنطقة الغربية للقناة ، وكان يصحبهم فريق من المصريين من أنصار الحديبو ليكونوا لهم مرشدين وليعقدوا لهم معاهدات مع الأعراب الذين يسكنون هذه المنطقة فيأمنوا شرهم ويقدموا لهم المعونة .

وانتقلت المعركة الى الجبهة الشرقية في أواخر أغسطس ١٨٨٢ ، وتقل عرابى قيادته الى القصاصين ، والنديم معه . وكان القتال في هذه الجبهة أشد قسوة منه في الجبهة الشمالية .

ومع ذلك فقد استمرت « الطائف » تصف معارك النصر فتلعب الأحاسيس والشعور وتشير الى الهزيمة اشارات عابرة أو تنعتها بأنها خطة مرسومة ، ففي موقعة « المسخوطة » يقول ان العساكر المصرية تراجعت بفطنة وحذر حسب خطة موضوعة ؛ ثم عادت لتنتقم في يوم « قنطرة القصاصين » . وفي وصفها وصل النديم الى ذروة الحماس والانفعال . بدأ بقوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » . وقد اصطف المؤمنون يوم القنطرة صفوفا لو أن طائرا حاول المرور من بينهم ما وجد له ميلا ، ولو أن جبلا صادم هذه الصفوف الثابتة لارتج من الصدمة وتقهقر أو تبدد . وما أدراك ما يوم القنطرة . يوم كان مقداره خمسين ألف سنة

مما تعدون ... يوم أزلت فيه الجنة للستين وبرزت الجحيم
للفاوين (الانجليز) . يوم كان فيه الموت ملهوقا على أولاده
يجسهم بالأحضان ويرقدهم في ييادر لا غطاء لهم الا سنانك
الحيل وحوافر البغال وجلود النعال . يوم عابت فيه الشمس
واشتد لهب جهنم فعاد بالحظ الأوفر . يوم دعا فيه المصريون
رجال الانجليز للهلاك وهم في متاريس كالأجدات ، فكنت
تراهم خشعا أبصارهم يخرجون من الأجدات كأنهم جراد
منتشر ، مهطعين الى الداعى يقول الكافرون هذا يوم عسر ...
وانطلقت قنابلنا تعتنق الانجليز عناق مشوق ولهان ... اذ ذلك
ارتج الجبل وزلزلت الأرض وغاب الشمس واستحال حصر
القنابل التى يعطرها الجو فى ساحة بساطها الانسان . ثم تقدمت
بيادتنا تحت حياية مدافعنا فسعت الحرب تنادياها :

بنى العرب هيا لا يعيش جبان
فجسى وروحي همه وجنان
أنا النار تذكو غير أن لهيها
به العرض فى وسط الوجود يضان
أنا الجنة الفيحاء لابن شهادة
وفار لديها الانجليز تهان
أديروا بنى مصر رحاى على العدا
فليس لأهل البغى بعد أمان
لكم وطن لا يعرف الحسن غيره
فان لم تكونوا حافظيه يهان

أرى الناس طرا في انتظار فعالكم
فأتم على صدر الزمان نشان
وردوا عدوا يبتغي بقتالكم
ديارا ثراها عسجد وجسان
أروه الليالى السود بالضرب فى الضحى
ليعرفه بعد الحروب هوان
أروه وقوف الأسد تحمى ديارها
تحدثه عما تبين عيان
وداروه فى نار الوغى وتمزوا
بنصر له حسن الثبات لسان
فعار اذا ما قيل خصم مراهن
وليس لمملوك النساء رهان
وعار اذا قالوا قهرنا أعزة
وهم فى الورى عقد المديح يزان
فكونوا رجالا أهلكوا شرأمة
سياستها دون الأنام دهان
وردثوا لهذا القطر أول مجده
ففى يدكم من ساكنيه عنان (١)

سار النديم مع الحرب ساعة فساعة ، يمتطى صهوة جواده
ويقف وسط المعركة ، فيرى النحر والهزيمة ، ويخطب الجند

(١) الطائف ١/٩/١٨٨٢ .

قبل بدء المعركة ليث الشجاعة في قلوبهم ، فكان يخطب الفرق المختلفة يستنهض همهم ، ويحثهم على الدفاع عن الوطن ، ويدفعهم الى الاستشهاد في سبيل الله ليسعدوا بالجنة ، وكان يمر بين صفوف المحاربين يذكرى روح التضحية في نفوسهم . « وكنت كلما مررت على أورطة أحسها وأشجعها فلا أسع منها الا صوت البنادق ، ولا أرى الا سرعة حركتها » ^(١) ثم يكتب ما رأى ويصف دور كل قائد في الميدان والبطولات التي يقوم بها الضباط والجنود .

ويتبع أنباء أعداء الوطن وأعداء الله ، فيقول عنهم : « حضر الى الاسماعيلية توفيق باشا وسلطان وبعض أنصارهما فلنا منهم أن الانجليز ينتصرون . جاءوا ليروا النصر ، ولكنهم ملثوا كمدًا وحزنًا بهزيمتهم ... وما أسوأ حالهم عندما توجه اليهم الجنرال ولسلى رئيس الحرب الانجليزية يبكى حال الموتى وينتجب على كثرة الجرحى ويلعن توفيق وسلطان وماليت ، الذين أضلوههم وقالوا لهم ليس بمصر سوى ستة آلاف جندي لو رأوا برنيطة انجليزية لفروا هاربين من غير قتال ... فنحن ننتصر ونفرح وهم يفاخرون في زوايا الحزى ويكمدون حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون فيرونه يوما كان شره مستطيرا ... »

وكان الشعب يقرأ ما يكتبه النديم في « الطائف » وما تنقله

(١) الطائف ١/١٨٨٢ .

الصحف عنها من وصف لانتصارات الجيش المصرى ، فيهلل ويفرح ، ويقبل المتطوعون على الميدان ، وتستلى أعمدة « الطائف » — التى أصبحت تصدر كل يوم تقريرا فى صفحة واحدة — بأسماء المتبرعين بالمال والسلاح والمؤن وبأسماء العلماء والعظماء الذين وفدوا على مفر قيادة الجيش لتهنئة عرابى بالنصر (١) .

ولكن الحقيقة لم تكن كلها نصرا فى الميدان الشرقى ، فقد فاجأ الانجليز المصريين بفتح هذه الجبهة . ودارت الحرب هناك على غير استعداد أو استحکامات قوية من جانب المصريين ، وكثر المتطوعون غير المدربين ، واستعان الحديو وسلطان باشا بالرشوة لينضم البدو فى المنطقة الى صفوف الانجليز ، وامتدت الحيانة الى بعض ضباط القيادة المصرية نفسها (٢) .

ويقول النديم عن الزعماء الخائنة :

« وأخذ حزب المنافقين يبعث كتبه الى المذبذبين ، وفيها الوعد بالنقد والنيشان والرتب وشرف العنوان ... يقودهم فى ذلك شيطان تسمى بسلطان .

زعيم أصله هـى بن بى
وضيع قد تناهى فى الخساسة
جهول مظلم الأفكار قدم
تربى من صباه فى النجاسة

(١) انظر « الطائف » ٢ - ٤ - ١٤ - ١٦ - ٨/٢٥ و ٥ - ١٨٨٢/١/٦ .

(٢) انظر تاريخ مصر من ٧٦ - ٧٧ .

أضاع الدين والدنيا جميعا
بجهل عندما استلم الرئاسة
وباع الناس للأعداء بنقد
وأذهب من بنى مصر الحساسة
فمن يرجو صلاحا فى ديار
بها الخنزير ينظر فى السياسة

فقام يحارب عن الانجليز بالتثبيط والتعجيز ، وساعده
كثير من هذا القبيل وكلهم على شاكلة قاييل ... (١)

قد يقال ان « الطائف » فى وصفها للسعارك — وكانت
المصدر الوحيد للشعب — لم تكن صادقة كل الصدق فقد
كانت فى بعض الأحيان قلب الهزيمة نصرا . بيد أن « الطائف »
خلال المعركة الحربية كانت سلاحا من أسلحة الجيش المصرى هو
سلاح الدعاية . وفى الحرب ومن أجل النصر يستساغ ما لا
يستساغ فى السلم ، فلم يعد تحرى الحقائق هو الغرض الأول
للصحيفة بقدر تعبئة الشعب للقتال ، وبث روح الشجاعة والثقة
بالنصر فى قلوب الشعب والجند ، والتقليل من قيسة العدو بكل
الوسائل .

ان ما فعله النديم فى القرن التاسع عشر أقرته أجهزة الدعاية
الحديثة للحروب العالمية فى القرن العشرين ، وقد اعترف لورد
موتجمرى قائد النصر لجيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية

(١) تاريخ مصر ص ٧٧ .

وهو يكتب مذكراته عنها : بأن الأخبار الكاذبة عن الماركس وقلب الحقائق ليست ما تفعله القيادات العسكرية وحدها ، بل ان البلاغات الرسمية من الجيش المقاتل لقيادته قد يكون فيها الكثير من الوقائع والأحداث المزيفة .

جبهات الرجعية والاستعمار

لم تكن انجلترا تحارب مصر في جبهة القتال فقط ، ولم يكن المدفع هو الفيصل بين النصر والهزيمة ، بل كانت هناك جبهات أخرى ...

كانت هناك جبهة استانبول ومؤامرات السياسة في قصر السلطان التركي . وكانت المعركة هناك من جانب واحد استعملت فيها انجلترا نفوذها السياسى ونفوذ أصدقائها من الدول الأوروبية . واستعانت بصديقتها ألمانيا للضغط على السلطان عبد الحميد كى يؤيد الانجليز في حربهم مع مصر ، وينجحهم — وهو امام المسلمين — صفة القانونية ، ويصم عرابى بالعصيان حتى تزول قدسيته من قلوب المسلمين ، فقد أزعج انجلترا نار الثورة التى أخذت تسرى فى الشعوب الاسلامية التى تحت سلطانها . وانتقلت فكرة الحرب من نزاع داخلى بين الأمة وخديويها تريد انجلترا أن تنتهزه لمصلحتها ، الى حرب دينية بين المسلم وغير المسلم ، ومثل هذه الحرب لا تنتهى حتى ولو استسلمت الدولة الاسلامية المحاربة ، لأنها لا تخص دولة بعينها

أو شعبا بذاته ، بل تتصل بكل مسلم في كل بقاع العالم ، وتظل الشعلة حتى يتلقفها من يقدر على حملها .

ولذلك ظلت إنجلترا تضغط سياسيا على السلطان حتى أصدر منشورا بعصيان عرابي لسلطان المسلمين ، وبشرعية اشتراك الجيش الانجليزي في اخماد الثورة المصرية ، ونشر المنشور في صحف الآستانة في ٦/٩/١٨٨٢^(١) .

وطبعت ألوف النسخ من منشور السلطان ووزعت على البلاد الاسلامية .

وحين وصل المنشور الى عرابي « استدعى في الحال عبد الله النديم » وبعض خواصه وأطلعهم على البيان السلطاني ، واستشارهم فيما يجب أن يفعله ، « فأشار عليه النديم بنشره في صحيفة « الطائف » والرد عليه ، مع الاستمرار على المدافعة والدود عن الوطن حتى في الحالة التي ترد فيها عساكر تركية لمحاربتهم »^(٢) .

وكأن النديم كان يرى أن الأثر الذي يحدثه المنشور وهو يوزع سرا أسوأ وقعا في النفوس مما لو أعلن في الصحف وواجهوه مدافعين عن رأيهم وبلدهم ، حتى لو اضطرت مصر الى الانفصال عن طاعة السلطان .

ولكن عرابي لم يستحسن النشر ، اذ أن عامة الناس ومعظم

(١) نص المنشور انظر مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٠٠ .

(٢) مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٤٨ .

الضباط والجنود كانوا يعتقدون أن الحرب بتأييد من السلطان ، وأنهم يدافعون عن حقوق السلطان التى هى حقوق الدين ، ومن ثم فإظهار المنشور للناس يؤدى الى تحول القلوب عن عرابى ، ويحل رابطة اجتماع الأمة فى مواجهة الحرب المقدسة . ولعل النديم كان مصيبا فى رأيه ، حتى لا يكون الأمر مفاجأة للأمة والجيش . وهذا ما حدث فعلا ، فقد تمكنت الجواسيس والعربان من التسلل الى معسكرات الجيش المصرى وتوزيع المنشور بين رجاله ، « فلما اطلعوا عليه كانت صدمة أضعفت عزائمهم ووهنت بها قوتهم » (١) .

وأدت منشورات الحديو المرفقة بمنشور السلطان الى ذهاب الحمية الدينية من النفوس ، وجعلت الجنود يعتقدون أن من يموت فى هذه الحرب ليس شهيدا كما كانوا يظنون ، بل يكون مأواه جهنم لأنه عاص للسلطان خليفة الله فى الأرض .

وعلم عرابى بوصول المنشور الى أيدي الجنود والضباط فرأى أن يأخذ بنصيحة النديم (٢) ، ولكن بعد فوات الوقت ، فقد أحدث المنشور أثره فى النفوس . ومع أن الجيش المصرى استمر فى المقاومة ، الا أنها كانت مقاومة فائرة تنتهى بالهزيمة فى أكثر المواقع .



(١) مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٤٨ .

(٢) مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٤٨ .

وكانت جبهة الحياة والرشوة قد تم زحفها على مقر قيادة الجيش ، فقد اتصل الخديو وسلطان باشا بعلى يوسف الذى اشتهر بعلى خنفس ، أحد أعضاء مجلس قيادة الجيش المصرى ، ووعداه بالرتب والنياشين ^(١) ، فكان يرسل اليهما الخطة السرية للجيش المصرى عقب كل اجتماع للقواد يوما بيوم ، وكان لا يتبع خطة القيادة مما سبب فى بعض المواقع هزيمة الجيش ، وشك النديم فى أمره وفى ذلك يقول :

« ففى احدى المعارك ، بعد أن ظهر للنصر آية ، رجع على يوسف وأرجع آلايه ... فقلت لعرابى باشا ان هذا الرجل يريد لنا العثار ، وهو الذى خذل العساكر بالفرار ، فاما أن تحاكمه محاكمة عسكرية ، واما أن ترسله الى ديوان العسكرية . فقال : أختى أن يقال أعنتاه فحط علينا ، ونصرناه فنسب الغش الينا ، ليهدد أعوانه وأعضاده ، وينفرد بالسلطة والسيادة » ^(٢) .

وصدق النديم المشورة فى هذه أيضا . فقد كان على يوسف مركز الجاسوسية ^(٣) للخديو والانجليز ، وتوالت بسببه الهزائم على المصريين . ولمّا لم يعد هناك صبر على حياته قرر عرابى أن يأخذ بنصيحة النديم فيحاكمه ، ولكن بعد فوات

(١) تاويخ مصر ص ٧٧ - الرافعى : الثورة العربية ص ٤٤٤ - ٤٤٥ كل أميرالاي الآلاى الثالث للمشاة .

(٢) تاويخ مصر ص ٧٦ - ٧٧ .

(٣) تفصيلات الجاسوسية والخيانا : انظر بليت ٤١٠ - ٤١٨ . مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٠٩ .

الأوان أيضا ، فقد هجم الانجليز فجأة يتقدمهم البدو والخونة من أنصار الحديو يعطون المقدمة ، ومعهم خطة الجيش المصرى وموافقه كما وضعتها القيادة المصرية .

وكانت الموقعة الأخيرة الفاصلة موقعة « التل الكبير » فى ١٣/٩/١٨٨٢ .

ويُس عرابى من النصر فى هذه الموقعة ، فقرر أن ينسحب الى موقع استراتيجى داخل البلاد يمكن منه أن يواصل الدفاع . ولكنه ظل يتابع المعركة حتى أصبح العدو منه قاب قوسين أو أدنى ، فركب جوادا والنديم على جواد آخر واتجها الى بلييس .

ويصف النديم ذلك فيقول :

« ولم أطرد جوادى مع عرابى باشا جبانة ، ولا فرارا من الأعداء الخانة ، وانما أردنا جسع العساكر فى بلييس وضواحيها ، واحضار عساكر العباسية لتعسكر فيها ، وهقطع سكة الحديد الى الزقازيق ، ونكسر قناطر الشرقية على العدو للتضييق . فأدركنا على الروبى فى الطريق وقال : لا ينبغي أن نقاتل بهذا الفريق ، بل تتوجه الى مصر ونشاور أهل البلاد ، لننظر ما عندهم من الاستعداد » (١) .

وركب النديم وعرابى وعلى الروبى قطارا من محطة أبى حماد الى القاهرة ، وتوجهوا الى مقر وزارة الحرية بقصر

(١) تاريخ مصر من ٧٩ ، انظر أيضا « مصر للمصريين » ج ٥ ص ٢٤٩ .

النيل ، وكان « المجلس العرفي » منعقدا ، فأخبرهم عرابي بأمر الهزيمة وأسبابها . وبعد جدال وتقاش طويلين استقر الرأي على المقاومة ^(١) .

وبدأ عرابي من فوره يزور أماكن الاستحكامات ويختبرها فرأى أن الاستعدادات وعدد الجنود والذخيرة على ما هي عليه لا تكفي للمقاومة بل لابد من تعزيزها وتجنيد كل من يستطيع حمل السلاح ، ورجع الى المجلس العرفي وأخبرهم الخبر ، فقرر المجلس التسليم وكتابة عريضة الى الحديو يلتزمون منه العفو والاعتذار عما فعلوه ... ووكلوا الى النديم أمر صياغة الالتماس . ولم يكن النديم على رأيهم في فكرة الاعتذار عما فعلوه « فقد فعلنا ما وجب » ^(٢) ، ولذلك كتب الالتماس دون أن يعترف فيه بجريمة لعرابي في حق الوطن ، بل ألقى الذنب كله على المعتدى الدخيل ، وحين قرىء على المجلس لم يوافق أعضاؤه على لهجته الشديدة وأملى بطرس غالى وكيل نظارة الحقانية وعضو المجلس صيغة أخرى يقدم فيها الخضوع للحديو ويصف نفسه وزملاءه بالعصيان ويعتذر عن أفعالهم الماضية ويستدر فيها عطفه ورحمته ويلتس العفو عنهم .

وأماها عرابي وأعضاء المجلس العرفي . وحملها وفد في قطار خاص الى الاسكندرية في ١٤/٩/١٨٨٢ .

(١) تفصيلات : انظر الثورة العرابية ص ٤٥٨ .

(٢) تاريخ مصر ص ٧٩ .

وكره النديم أن توصم الثورة بالعصيان وتطفأ هذه النعلة
بهم الذين أشعلوها ، ويضعوا نهاية غير مشرفة لجهادهم ولأنفسهم
بأنفسهم ، فجعل يوضح لعرابي وجهة نظره : « كيف تكون
عاصيا وقد قدت الأمة تطلب الحرية ، ولم تكن وسيلتك في
ذلك حتى النهاية الا ما يقره القانون الانساني والشرف
العسكري ، احترمت القانون ولم تفكر في نفسك بل في متر
ومستقبلها . لقد عينتك الأمة قائدا لجيوشها لتدافع عنها من
خطر المحتل ، وكان تعيينك شرعيا من السلطان والحديو
ومجلس النواب واجماع الأمة ، فكيف تكون عاصيا ؟ » .

وأخيرا — وبعد فوات الوقت أيضا — اقتنع عرابي بوجهة
نظر النديم ، وعادت اليه بعض الثقة ، وأخذ في الاستعداد
للحرب من جديد ، وأرسل تلغرافا الى الوفد الذاهب بالتماس
العفو والاعتراف بالعصيان يأمره بانتظار النديم بكفر
الدوار ^(١) ، ونجح النديم العريضة ومضى عنها عبارات الذل
والاستجداء والاعتراف بالجريمة . وسافر بقطار خاص الى كفر
الدوار ولكنه لم يجد الوفد ، فقد وصل التلغراف بعد أن اتجه
بهم القطار الى الاسكندرية .

وعلم النديم ما حل بالوفد فقد ألقى الحديو بأعضائه في
السجن وأعلن رفض الالتماس . وعاد النديم على القطار نفسه
الى القاهرة فوصلها في الرابعة من صباح ١٨٨٢/٩/١٥ ^(٢)

(١) مصر للمصريين ج ٥ ص ٢٥٢ .

(٢) تيمور : ص ١٨ ، وسلافة النديم : ص ١٢ .

لقد ظل النديم يؤدي واجبه نحو أمته ونحو الحركة الوطنية التي قامت لتخلص الشعب من الاستعباد حتى آخر لحظة من لحظات الخطر . وهنا لم يفكر في الأشخاص كما فعل غيره ليحفظوا أرواحهم ، وإنما فكر في الأمة وفي مستقبلها وفي جهادها الذي قام به على هذا الطريق . فلم يوافق أعضاء المجلس على الاستجداء والاقرار بأن ما قامت به الأمة وما قام به عرابي وهو قائدها كان ذنباً وعصياناً . فقد وثقت به وأيدته بكل إمكاناتها كزعيم للوطنية يقودها في حرب الحرية المقدسة ضد ظلم الأتراك واحتلال الانجليز ، وليس من العيب أن يقهر القوى الضعيف أو تهزم أمة في الحرب ، فكم من قائد هزم وظلم محتفظاً بشرفه وشرف أمته ، فإذا ما هزم عرابي اليوم فسوف يأتي من بعده قائد آخر يحمل الشعلة ويواصل الجهاد فتؤيده الأمة دفاعاً عن شرفها المغلوب . ولكن الخطر الأكبر على روح المقاومة الشعبية هو أن يعترف القائد بالخطأ والعصيان ، حينئذ تصاب الأمة بخيبة الأمل في زعمائها المصيرين وتخبو الروح المعنوية للشعب .

إن النديم لم يفقد الثقة في وطنه ونفسه بالهزيمة « وهي ميزة كبرى انفراد بها دون بقية الزعماء الذين أثرت فيهم الهزيمة . فذهبت روحهم المعنوية وانطفأت فيهم شعلة الأمل والحماس والجهاد ... اذكروا النديم انه كان بطلاً » .

الناظر الحارب

سلمت القاهرة في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ودخلها القائد الانجليزى
ومعه نائب الخديو سلطان باشا الذى أصبح صاحب الحول
والطول فى العاصمة وركبته روح التشفى فملا السجون
بالمواطنين حتى بلغوا ٣٠ ألفا من المصريين^(١) .

وقبض على جميع زعماء الحركة الوطنية حتى الذين فروا
الى الخارج ، ما عدا عبد الله النديم . وجندت الحكومة كل
قواتها للقبض عليه وبثت الجواسيس والأرصاد فى كل مكان .
وحين ذهب جهودها هباء أعلنت عن مكافأة قدرها ألف جنيه
لمن يقبض على النديم حيا أو ميتا ، وقررت عقوبة الاعدام لمن
يخفيه أو يعلم بمكانه ولا يخبر عنه . ونشر ذلك فى الوقائع
المصرية تباعا وفى جميع الصحف وفى منشورات وزعت على
المديرين وعمد البلاد .

أما النديم فقد تنازعت عوازل عدة . لقد كان صاحب الرأى
يعدم الاستسلام فى ذلة ، وكان لا يقر زملاءه على الاعتراف
بالعصيان ؛ بل بمواجهة الموقف فى شجاعة حتى لا يذهب عملهم
سدى وحتى لا يسود التاريخ صفحتهم ويصمهم بالضعف

(١) مذكرات عرابى المخطوطة ص ٤٠٣ نقلها الراقى : تاريخ الثورة العربية
ص ٤٦٢ . احصاء محمود باشا فهمى فى كتابه « البحر الزاخر » ج ١ ص ٢٢٢
صفحة ٢٩ الفا .

والتخلي عن الأمة التي ناصرتهم . ولم يكن أمامه بعد أن استسلم زعماء الثورة جسيما^(١) إلا أن يناقض نفسه فيستسلم مثلهم وبذلك تضد الحركة الوطنية وتذهب مع الزمن بذهاب زعمائها ، أو أن يهرب عسى أن تحين الفرصة فيبدأ الجهاد الوطنى من جديد .

وكان النديم فوق ذلك يعرف حق المعرفة أنه العدو اللدود للخدو ولقوة الاحتلال ولسلطان باشا ورياض باشا ولسلطان نفسه ، وأن هؤلاء جسيما سوف يجتمعون على الانتقام منه وتلفيق التهم التي تودى به جزاء تشهيره بهم وهجومه عليهم ، وسيكون أقطع انتقام . ولذلك قرر الاختفاء أملا في أن يسافر الى « دمياط » لينضم الى قائد حاميتها عبد العال حلمى الذى لم يكن بعد قد استسلم بل أعلن المقاومة ، فان استسلم عبد العال حلمى سافر هو الى الشام ثم الى أوروبا ليواصل جهاده فى سبيل قضية وطنه^(٢) .

وبهذا القرار بدأت صفحة جديدة من حياة النديم ، صفحة تدل على نبوغ آخر وعبقريّة جديدة . انها عبقرية من نوع فريد بعيد عن الزعامة والخطابة والكتابة والأدب . انها بطولة المغامرة

(١) كان الزعيم الوحيد الذى وقف الى حابب السديم في عدم الاعتراف بالعصيان رغم الغيظ عليه هو على الروبى ، وقد حكم عليه بالنفى الى سواد ومات هناك بطلا مؤمنا يوطيته وجهاده فى سبيل امته . وقد نسيه التاريخ ونسيته امته للأسف الشديد رغم بطولته ووطنيته .

(٢) كان ويكون - عبد الله النديم ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ . انظر ايضا المقلم ١٨٩١/١٠/٧ .

والحيلة والثقة بالنفس وتنظيم الحطة وسريتها ، مغامرات ومخاطرات أشبه ما تكون بالقصص البوليسية ، استمرت تسع سنوات ظل فيها مختفيا والبوليس يجد في أثره وجهاز الحكومة يبحث عنه ، ولكن أحدا من عرفوا أمره لم تتحرك فيه مكانن الشهوة أو الخوف فلم يدلوا عليه ، ويفشوا سره ، ولم يطبعوا في مكافأة الحكومة أو يخافوا وعيدها ، فقد عرف الذين آووه وأخفوه التضحية في سبيل الوطن وقدموا نفوسهم من قبل قربانا لوطنهم في ميدان القتال ، فلا أقل من أن يذلوها في سبيل من بث في قلوبهم هذا الشعور ، الشعور بالكرامة وبالعزة وبالوطنية .



بعد أن عاد النديم من « كفر الدوار » قرب فجر يوم ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ذهب الى منزله بحي العتساوى واصطحب خادمه حسين محمد ووالده مصباح وركبوا عربة « حنطور » الى ساحل بولاق ، ليودع أباه ، واستقل مصباح مركبا الى الاسكندرية هربا من الاضطهاد . وكر النديم راجعا هو وخادمه الى دار صديق له يسمى الشيخ مصطفى^(١) ببولاق ، وظل بها مختفيا عشرة أيام حتى طالت لحيته وشعره ، ثم غير زيّه — وقد كان يلبس حتى ذلك الوقت الملابس الافرنجية^(٢) — فلبس ثوبا من الصوف الأحمر الحشن المسمى « بالزعبوط » واعتم

(١) سلافة النديم ج ١ ص ١٢ .

(٢) المقدم ٥ أكتوبر ١٨٩١ .

بعناية حمراء شأن مشايخ الطريقة الصوفية الرفاعية ، وغطى
عينيه بمنديل وأخفى شاربه وأطلق لحيته ، وخرج ليلا يتوكأ على
عكاز طويل يأخذ بيده خادمه قاصدا ساحل بولاق ^(١) حيث
وجد مركبا شراعية مقلعة الى بنها فاستضافه ملاحوها تبركا به
فركبها هو وخادمه ، وقبل أن تصل السفينة الى « بنها » علم
الركب أن الكوبرى بها مغلق على غير العادة . وفكر النديم
وأعسل بديهته فأدرك بأحاسسه الداخلى أن اغلاقه فى غير مواعده
نما قصد به حجز المراكب حتى يتسنى لرجال البوليس تفتيشها ،
فأخذ يتمتم على حبات المسبحة ويذكر الله بصوت مرتفع زيادة
فى التكرار . ونزل رجال البوليس الى السفينة وفتشوها وسألوا
ملاحيها عن عبد الله النديم — فقد رآه شخص منذ عشرة أيام
متجها الى ساحل بولاق ليستقل منه مركبا ^(٢) — فنفوا عنهم
به أو رؤيتهم له ، ولم يتعرفوا عليه وهو على بعد خطوات
منهم ، وبعد انصرافهم انتقل الى سفينة أخرى ترسو الى الجانب
الآخر من الكوبرى متجها الى « دمياط » .

وفى طريقه علم من الصحف أن حامية « دمياط » سلمت .
فنزل الى « ميت النصارى » ، وفى الصباح ركب مركبا آخر الى
« المنصورة » ومكث مع خادمه فى مسجدتها ثلاثة أيام ،
يستضيفهما الناس ويرسلون اليهما الطعام تبركا بشيخ الطريق

(١) سلافة النديم ج ١٢/١ ، ١٢ .

(٢) هو شاهين فؤاد المفتش بالعرف العقارى ومن مماليك عباس باشا .
انظر تراجم أميان ص ١٨ .

الصوفي ، ثم واصلا السفر برا حتى وصلا الى « منية العرقى ^(١) » . ولم يكن ينوى الاقامة طويلا الا ريثما يستعد لمواصلة خطته من الهرب الى الشام ثم الى أوروبا . ونزل عند صديق له عالم أزهرى ذى مكانة فى القرية ^(٢) فأواه وخبأه . وكان بالقرية شيخ من مشايخ الطريقة الصوفية الصاوية ^(٣) يسمى الشيخ شحاته القصبى ، وكان ذا نفوذ واسع فى هذه المنطقة ، وكان النديم قد أخذ عليه أيام طوافه بالبلاد عهدا وأصبح من مريديه .

وأرسل النديم الى الشيخ القصبى يخبره بمخبئه وعزمه على الهرب الى الشام « لم أقابل معه — يقول النديم — وانما بعثت اليه من أخبره بمكانى الأول ... فمنعنى من الخروج من البلاد وأمرنى بالتستر حتى يقضى الله بالفرج » ^(٤) .

وأشرف الشيخ القصبى مع صديقه العالم الأزهرى على

(١) منية العرقى مركز سعنود قرية على الشاطئ الغربى لفرع دمياط ، انظر محضر التحقيق مع النديم وخادمه : المقطم ٩ أكتوبر ١٨٩١ .

(٢) لم يصرح النديم باسمه واخذ هذه الخطة حتى لا يصر الدين آووه فى الاخفاء وتتهمهم بالحكومة بالعصيان . الاستاد ص ٣١٦ . انظر ايضا كان ويكون ج ١ ص ٦ .

(٣) تراجع أعيان ص ٣ .

(٤) انظر كان ويكون ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ وقد صدقت فراسة الشيخ فقد قبض على الدين فروا الى الخارج من زعماء الثورة وهما : حسن موسى العقاد ، وصليمان سامى بعد أن وصلا جزيرة كريت . قبض عليهما أنصار السلطان التركى وأعيدا الى مصر وحكم على الاول بالنفى مؤبدا الى السودان والثانى بالاعدام .

جهاز اخفاء النديم وتدير مكان اقامته بعد أن ألقى بزما اليهما ، فأصبحا له راعيا وحاميا . وظل النديم مختفيا في يد صديقه العالم قرابة أربعة شهور .

كان أول ما واجهه النديم من المشكلات في مخبئه الجسد خادمه الأُمى الجاهل ، فقد ضاق حسين بالاختفاء ووساّد وحن الى أهله فأخذ يبكى ويطلب العودة اليهم . وأيقن النديم أن خادمه ان عاد استطاع البوليس أن يكشف الحقيقة منه وان أبقاه معه على هذه الحال فضحه بيكائه ، فطمأنه ووعد بالعودة ، واستعمل النديم ذكاءه وحيلته ، فاشتري الجريدة الرسمية وأخذ يقرأها ، ثم تصنع الفرع وضرب كفا بكف وقال : « لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » . ولما سأله الخادم عما أفزعه قال له : « ان الحكومة قد جعلت لمن يرشد عنى ألف جنيه ولمن يأتيها برأسك خمسة آلاف » . فخاف الخادم وأخذ يبالغ في التنكر أكثر من سيده ، واستبدل له اسمه فسماه صالحا حتى يتم تنكره ^(١) . واستراح من هذا الباب ، ولازمه الخادم طوال مدة الاختفاء .

كانت فترة الاختفاء الأولى من أقسى الأيام التي مرت بالنديم فهو لم يتعود السكون والظلمة والوحدة ، وهو الحركة الدائمة والشعلة المتقدة ، وزاد من ضيقه وألمه أنه كان يقيم هو وخادمه

(١) سلافة النديم ج ١ ص ١٣ ؛ تراجم أميان ص ١٩ .

فى حجره مظلمة يتساوى فيها الليل والنهار ، ويصل اليها من سرداب طويل شديد الظلمة ، وكانت أرضها ترشح الماء لانخفاضها وقربها من خليج يمر بجانب البلدة .

وكان لا يتمكن فيها من الكتابة أو القراءة الا على مصباح صغير من زيت الحجر المسمى بالغاز أو الجاز الكثير الدخان (١) ولكن النديم لا يستطيع الصبر على الحياة دون عمل حتى ولو كان فى مثل هذه الحجره ، ففكر فى التأليف . وفى ذلك يقول :

« عندما وصلت الى المختفى الأول تذاكرت مع الصديق الفاضل العالم العامل صاحب البيت فى حوادث النرق الأخيرة وأهميتها بالنسبة للمؤرخين ، وكاشفته بما كنت مشغلا به من جميع الحوادث المهمة المختصة بالشرق والغرب دينا وسياسة وتخليدها فى كتابى المسمى « مقابلة النظير » ، وانى أنهيت منه أربعة أجزاء ضخمة وصلت فيها الى السلطان محمود ، وأريد الآن أن أشتغل بإتمامه . فقال حفظه الله تعالى : يمنعك من الكتابة الآن ظلمة القاعة واشتغال الفكر بهذه المزعجات الحاصلة ، ولو فشطت للكتابة فانك لا تعلم ان كان كتابك فقد أو بقى موجودا فيكون هذا الجزء أبتّر ، ولو صفت الأوقات وانصرفت عنك الحكومات للزمك أن تكتب تاريخا عاما بصورة فذلكة تاريخية ، وما أظنك تقوى على هذا الآن . فانصرفت عن الكتابة ونظمت قصيدتى المسماة : « وطنية الشرق » وهى ثلاثمائة ونيف

(١) انظر تراجم أعيان ص ٢٠ و « كان ويكون » ج ١ ص ٦ .

وستون بيتا ، أخلصت فيها النصح للشرقيين على اختلاف
الجنس والدين « (١) .

وشغل النديم وقته — وهو المدرس بالطبع — بتعليم خادمه
حتى يكافئه على ملازمته اياه وخدمته له ، « وكان غلاما أميا
فارغا من الآداب لا يعرف الا ما أخذه عن والدته وما تلقاه عن
أمثاله ، فعلسته وهذبتة ولقنته ما يلزم لمثله » (٢) .

وفي ١٥ ربيع الأول ١٣٠٠ هـ جاءه في مخبأه الشيخ محمد
المهشري عدده « العتوة القبلية » (٣) . لم يحضر للقبض عليه
مع أنه من رجال الحكومة ومكلف بذلك ، بل جاءه بخطاب من
الشيخ القصبي ، وهو أحد أتباعه ، يقول فيه للنديم : « قم
معه ولا تبرح من عنده حتى يأتيك اذني » (٤) . وأطاع النديم
وخرج مع الرسول . خرج ليرى النور فلم يكذب يبصر لما غشى
عينه بعد أربعة أشهر قضاها في ظلمة حالكة . ولم يمض على
مغادرته مخبأه بضعة ساعات حتى اقتحم رجال الشرطة الدار
وفتشوها ودخلوا هذه الحجرة المظلمة ، ولكن العصفور كان قد
طار (٥) .

(١) كان ويكون ج ١ ص ٦ - ٧ .

(٢) الأستاذ ص ٥٦ .

(٣) كان ويكون ج ١ ص ٧ . العتوة تابعة لمديرية الغربية .

(٤) كان ويكون ج ١ ص ٢٤٦ .

(٥) سلافة النديم ج ١ ص ١٢ - ١٤ ؛ انظر ايضا تراجم اعيان ص ٢٠ .

ونزل النديم ضيفا على عمدة « العتوة القبلية » وأسكنه
حجرة مظلمة الى جانب مسكن الحریم . ويقول النديم عن مقره
الجديد : « وكان معى فى البيت * نفسا لا يعلم واحد منهم من
أنا ؛ بل غاية علمهم أنى رجل شريف من جروان ... وقد حضرت
عند صاحب البيت لأعلمه بعض العلوم الشرعية ، ولا أخرج من
القاعة لكونى صوفيا وأكره الاجتماع بالناس » (١).

استقرت الحياة نوعا بالنديم فى مخبأه الجديد فهو فى حى
رجل من رجال الحكومة لا يتطرق اليه شك لأنه نفسه مكلف
بالبحث عنه الا أن روح النديم لم تكن مستقرة ، فال فراغ يقتله ،
والظلمة تجثم على صدره فتخنقه ، والوحدة تكاد تذهب بعقله .
ولكن الفرج لم يلبث حتى جاءه . فقد سافر صديقه العالم
الأزهري الى القاهرة وبعد أيام أرسل مكتوبا الى النديم
برموز وضعها لمراسلتها حتى لا يعرف أحد سرها لو غتر
على شىء من كتاباتهما يقول له فيه : « ان فلانا (٢) سيضع
كتابا يجمع فيه حوادث مصر المتوجة للقرن الثالث عشر
(الهجرى) » . ويقول النديم : « فعلت أنه يشير بوضع
ما كنت مشتغلا به قدر امكاني الآن ، ورأيت أن المؤرخين من
الشرقيين والغربيين سيقتمدون بمن تقدمهم من مدح فئة وذم
أخرى ، مطلقين أقلامهم فيما يوافق مشاربهم وأغراض معاصريهم

(١) كان ويكون ج ١ ص ١٨ .

(٢) لعله سليم خليل النقاش صاحب كتاب « مصر للمصريين » فقد ألفه

بتكليف من الحديو توفيق .

طمعا فى جائزة أو ارتقاء لمنصب ، وما أضيع الأيام فى مثل هذه الأعمال»^(١) .

اذن لن يقتل الفراغ والوحدة النديم بل سيكونا نعمة على العقل البشرى والثقافة العربية فقد أخذ النديم يعد نفسه للتأليف . وقابلته مشكلة المراجع والمصادر فهو لم يستصحب معه عندما خرج هاربا من القاهرة كما يقول غير « مذكرتين صغيرتين كنت أقيّد فيهما زوائد وشوارد مؤملا وصولى الى مكان آمن فيه أتم الكتاب »^(٢) ، وهما وان كانتا لا تهومان بكل المقصود الا أنهما تساعداننى على التذكر والتخيل »^(٣)

وسد صديقه الأزهرى هذا النقص فقد أعاره تفسير أبى السعود العمادى وقاموس الفيروزباده والوافى فى المسألة الشرقية لأمين شسيل ، وجغرافية مطربون الذى ترجمه المرحوم رفاعه بك الطهطاوى . وأخذ النديم يصنع الجبر من هباب القرن ويضيف اليه بعض قرط السنط ويتخذ من الحجناء أقلاما .

(١) كان ويكون ج ١ ص ٧ .

(٢) يشير الى كتاب معاملة النظر وكان قد كتب منه ثلاثة اجزاء انظر كان

ويكون ج ١ ص ٦ .

(٣) كان ويكون ج ١ ص ٩ .

كان ويكون

يبدأ النديم أول كتاب له فيقول :

ابتدأت الكتابة في كتابي هذا « كان ويكون » ^(١) في الساعة الثامنة من يوم الخميس ٢٨ ربيع الثاني ١٣٠٠ الموافق ٨ مارس ١٨٨٣ ^(٢) في قاعة مظلمة وحيدا بعيدا عن العلماء والمكتبات والجرائد ، مخفيا عن الجواسيس والعيون من الباحثين على ، وقدمته خدمة للأمم الشرقية على اختلاف أديانهم وأجناسهم وأوطانهم ، وإذا أعان الله على إتمامه وإنهائه على ما تصورته وربته في مخيلتي أطلقت بين القراء في صورة فذلكة دينية ولغوية ووطنية وسياسية وجنسية وأدبية وتاريخية ^(٣) .

وتذكر النديم في اليوم التالي لكتابه المقدمة صديقا فرنسيا يمتلك ضيعة بالقرب من « العسوة القبلية » لم يهاجر الى بلاده مع من هاجر من الأوربيين والأجانب أيام الاضطرابات بل ظل ليرقب الأحداث ويكتب عنها كتابة شاهد العيان . وكان لهذا الصديق معرفة باللغة العربية والتركية الى جانب معرفته باللغات

(١) كان ويكون لعبد الله النديم لم يطبع منه الا ٢٥٦ صفحة من الجزء الاول ولم يعثر على بقية الجزء الاول ولا على الجزئين الثاني والثالث ، وكان طبعه في مطبعة المحروسة بمصر سنة ١٨٩٢ .

(٢) بعد نحو شهر ونصف من انتقاله الى العترة القبلية .

(٣) كان ويكون ج ١ ص ٥ .

الأوربية . تعرف به النديم في الاسكندرية عام ١٢٩٢ هـ وكان
يتردد على مصر والأقطار العربية والشامية كل عام في فصل
الشتاء ثم يعود الى فرنسا في الصيف ، وكان مجيئه الأخير الى
مصر في شهر القعدة ١٢٩٨ بعد ثورة عابدين وأقام متبعاً
الحوادث يكتبها بأوقاتها منقولة عن مصادرها بحقائقها لاشتغاله
بمسائل الشرق من أمد بعيد .

وفكر النديم في أن يكتب رسالة الى صديقه القديم
الخواجة الفرنسى يدعوه فيها لزيارته لعله يجد عنده من الأخبار
والمدونات مايساعده على ماشرع فيه ، ولما أخبر مضيفه رب الدار
بما اعتزمه وطلب اليه أن يحمل هذه الرسالة ارتاع العسدة
وفزع مما طلبه النديم منه ، وحق له أن يفزع فحياته معلقة
يكشف سره ، وكيف يأتعن على سرياته شخصاً أجنبياً وهو لم
يفشه حتى لأولاده ؟ وراجع النديم في الأمر مرات ولكنه قال
له : « لاتخش شيئاً فانى واثق بذمتي وعلو همتي ، وقد استخرت
الله تعالى فانشرح صدرى لهذا الأمر »^(١) وبعد جدال دام
ساعتين قبل الشيخ الهمشري أن يحمل الرسالة الى الأجنبى
صاحب الضيعة وأن يخبره بمكان النديم ويصطحبه معه ان أراد
الحضور .

وذهب العمدة حاملاً رسالة النديم يقدم رجلاً ويؤخر
أخرى ، يدفعه الأمل في خلق الأجنبى وهمته وتؤخره وساوس

(١) كان ويكون ج ١ ص ١٢ .

نفسه من أنه حامل حكم اعدامه وساع بقدمه الى جلاده ، وأعياء التفكير على أول حدود الضيعة ، وتنازعتة أمور كثيرة فلم يجد لنفسه منجى منها الا أن يضع نفسه فى المأزق ويفعل الله مايشاء .

ووجد عند الحاجة بعض الأجانب وثلاثة من مشايخ البلاد المجاورة ، وبعد التحية قدم اليه الرسالة فقرأها الفرنسى ثم أعطاها لزوجته فقرأتها وأعادتها اليه فزقها الحاجة اربا ورمى بها ، ومضت الثوانى على العمدة كأنها الدهر يدق قلبه دقات الاضطراب والخوف ، وينتظر كلمات الموت أو الحياة من بين شفتى الحاجة ، وأخيرا ظن أن ما تخوفه قد تحقق ، فقد نظر اليه الأجنبى بغضب وقال : « قل له أنا لم أعطك هذا المبلغ لتصرف فيه لزيد أو عبيد ، ثم تعتذر بالضرورات ، فاحفظ لى حقى عندك قبل كل انسان حتى آتيك وتتحاسب ، واياك أن تمد يدك الى بنك أو لحاجة غيرى فإلك ان فعلت ذلك وقعت فى شرك المحاكم وحكمت عليك بما لا ترضاه » ، ثم انصرف يتحدث مع ضيوفه الأجانب وظن العمدة أنه يخبرهم عن التديم فامتلا قلبه خوفا وأنجى باللائمة على نفسه أن أقدم على ما أقدم عليه ، وأخرجه من تفكيره وهواجسه صوت الحاجة يقول له : « تفضل أنت وقل له ما سمعت » .

وقام العمدة وهو لا يكاد يرى الطريق مما يدور فى ذهنه وما يعتمل فى نفسه من اضطراب . سار مهموما مكروبا تدور به الدنيا ، لا يفهم من الموقف الا أن الحاجة غاضب وأن السر قد ذاع وأنه لم يحفظ الأمانة التى أودعه اياها شيخه القصبى ،

وكان عليه أن يكون حجرا لا يلين تحت الحاح النديم وأن يصم
أذنه عن كل توسلاته ومناقشاته حتى يستشير شيخه صاحب
الوديعة . ان شرقه أصبح في كفة الميزان ، وكلية من الحاجة
تذهب بهذا الشرف وتفقده ثقة شيخه وزملائه العمد وجيرته
من 'الأعيان' ، ولن يفهموا ما حدث اذا علموا أن النديم كان
يختبئ عنده - بعد افشاء السر - الا أنه تواطؤ منه مع
الحاجة على النديم طمعا في المكافأة أو خيانة للحركة الوطنية
فيصبيه وبنيه العار . وحين عاد العمدة الى النديم لم يجد
بأسعد منه حالا . ويصف النديم ذلك فيقول : « قعدت أجيل
الفكر فيما فعلته ، والهواجس تأتيني بوساوس مزعجة ، وثقتى
بالرجل تدفعها وتمانعها حتى حضر رب الدار بعد ثلاث ساعات
وعلى وجهه لوائح الكدر فتبسمت متجلدا وسألته عن رحلته
وما رآه فيها »^(١) وقص عليه العمدة ما حدث !!

فهم النديم ما لم يفهمه العمدة ، فهم ما رمز اليه الحاجة في
حديثه فسرى عنه . لم تخب فراسته في صديقه القديم وشرح
للعمة ما غرض عليه فقال :

« يا صديقى ، ان الرجل صدوق حريص على الصحبة ،
وقد التزم الحدة في خطابه معك ليصرف أفكار الحاضرين . وهو
بعبارة التى ألقاها عليك يشدد على عدم اخبار أحد عن
مركزي ، ويحذرني من الوثوق بغيره مدة التغيب ، وينذرني

(١) كان ويكون ص ١٢ .

بأن الناس تغيرت أحوالهم فإن أخبرت صديقا غيره ربما اقلب
عدوا وسلمنى الى الحكومة فتحكم علىَّ بما تراه ، ثم انه وعد
بمجيئه وان لم يعين الوقت فعبارته كلها خير ونعم ما فعل
معك » (١) .

وحدث ما لم يكن فى الحسبان فيينا النديم والعمدة ينتظران
ما يخبئه لهما القدر على يدى الخواجة ، جاء مأمور المركز ونزل
بمُضيفة العمدة . وسرت الهواجس من جديد فى قلب العمدة
ولعبت به المخاوف فلعل الخواجة اتصل بالمأمور وأخبره بمقر
النديم ، وقد جاء للقبض عليهما معا . وخرج اليه العمدة ورجلاه
لا تكادان تحملانه ، وبين لحظة وأخرى كان ينتظر أن يفتحه
المأمور فى الأمر أو يصدر أمرا بتفتيش المنزل ، ولكن شيئا من
ذلك لم يحدث ، ولم يشر اليه من قريب أو بعيد وأخذ الاطمئنان
يعاود قلب العمدة قليلا قليلا الا أن مفاجأة أخرى حدثت
أذهبت نفسه شعاعا ، فقد ظهر على باب المضيفة رجل فى هيئة
مشايخ القبائل يلبس جبة وققطانا وعمامة ومتلفعا بحرام أبيض ،
وما ان رأى المأمور حتى عاد أدراجه ودخل قاعة أخرى .
وذهب العمدة ليرى الزائر الغريب ولشد ما كانت دهشته عندما
وجده الخواجة ، واقتاب العمدة شعور غريب ، شعور الفرح
بصدق الخواجة وكمثانه سره ، وشعور الخوف من أن يرتاب
المأمور فى الزائر فيسعى لمعرفة الخبر . وعاد العمدة الى المأمور

(١) كان ويكون ج ١ ص ١٤ .

فلم يجد لديه أثرا للشك أو الريبة . وقاد الخواجة خادم الى باب الحريم ، ثم دخل به الى حجرة النديم ، ويصف النديم المقابلة فيقول :

« وبينما أنا جالس واذا بهذا الوفي دخل علىّ وسلم سلام المشوق الولهان ، فعرفته بصوته ، وقمت اليه وتعاشنا عناقا طويلا يتخلله ضحك وبكاء ، ثم جلسنا ودار الكلام بيننا ، فقص علىّ أخبارا وأحوالا لا علم لى بها ، فتكدت وامتلات غما وهما ، ثم راجعت نفسي ورجعت اليه فأخبرته بمشروعي ورجوته ارسال بعض الكتب والمواد التاريخية » .

وعجب الخواجة كل العجب من رجل تحيط به المخاطر من كل ناحية ، وينتظر البوليس بهجم عليه ليسوقه الى النفي بين آونة وأخرى ومع ذلك يفكر فى التأليف ولا تشنيه الشدائد عن خدمة الانسانية ، ثم عرض على النديم أن يشاركه فى مشروعه التأليفى ويساعده على اتمامه ، وناقش النديم فى خطة الكتاب وعدل به عن طريقة التحرير المرسل الى وضع الكتاب على هيئة سؤال وجواب : سؤال يقترحه الخواجه وجواب يقدمه النديم . واتفق معه على أن يزوره كل يوم أو كل يومين حسبما تسمح ظروفه مدة اختفائه على أن يأتيه متخفيا بملابسه الشرقية ، وأن يشاركه فى حجراته المظلمة طوال النهار ، يلقي الفرنسى السؤال فى مشكلات دينية أو خلافاً سياسية بين الشرق والغرب وبعد أن يجيب النديم تبدأ المناقشة بينهما فاذا انتهت الزيارة وخلا النديم الى نفسه سجل ما امستقر عليه رأيهما ، وحين يلتقيان فى

الجلسة التالية بقرأ ما سجله النديم على صديقه للموافقة عليه أو لتهديه أو تغيير شيء منه . « على أن يكون اشتراكهما في الانسانية هو الرابطة التي تربطهما في المناقشة دون نظر الى جنس أو دين » .

وابتدأ بأصل الأديان وتطرقا الى الدينين المسيحي والاسلامى والعوارض التي اعترضتهما والوقائع التي تخللت مديتهما « ولم يكن ذكر الأديان الا وسيلة للدخول في المسألتين الشرقية والغربية ^(١) وما المسألتان الا تمهيدا للمسألة المصرية » ^(٢)

لقد تركنا النديم في حيرة من أمر صديقه الفرنسى هذا ، ورغم أنه كان شريكه في تأليف كتابه « كان ويكون » وأنيسه في وحدته وأحد الذين أسهموا في اخفائه لم يدلنا على شخصيته ، ولم يصرح باسمه في كتاباته مدعيا أن الحاجة نفسه طلب اليه ألا يذكر اسمه الا في آخر الكتاب ، وأغلب الظن أنه لم يصرح باسمه حتى في آخر الكتاب — ان كان قد أتمه أصلا — وذلك لأنه ظل يشير اليه بالصديق الغربى حتى بعد أن انقضت محنة الاختفاء ^(٣) .

كانت تستمر الاجتماعات وتدور المناقشات نهارا ثم يسجلها النديم في الليل . ويشير الى صديقه الغربى بحرف « غ » والى نفسه بحرف « ش » ، وكان الشيخ محمد الهمشرى يحضر هذه

(١) المراد بالشرقية الاسلام وبالغربية المسيحية .

(٢) كان ويكون ج ١ ص ٢٦ .

(٣) انظر الأستاذ ص ٥٦ .

المناقشات أحيانا كمستمع ، وكانت تحضرها زوجة الخواجة بعد أن تأتى متخفية فى زى فلاحه فستمع وتسأل وتشارك معهما فى الجدل والمناقشة . وأشار إليها النديم فى كتابه بحرف «س»^(١) ولعله اختصار لكلمة سيده ، وكان يحضرها أيضا الشيخ العالم الأزهرى كلما جاء للزيارة والاطمئنان .

البطل ... الأسطورة

وينسا كان النديم مشغولا بتأليف كتابه ويتردد عليه الخواجة كل يوم تقريبا ، كانت الاشاعات حول اختفائه يتناقلها الناس ، والأساطير تروى من حوله . فالحكومة حين عجزت عن القبض عليه وظنت أنه هرب الى الخارج أطلق أنصارها الاشاعات التى تدعى موته حتى ينساه الناس فمنها ما ادعى أن النديم قبض عليه وقتل فى سجن دمنهور جزاء ثورته على الخديو^(٢) واشاعة أخرى زعمت أنه مات حتف أنفه^(٣) .

أما معسكر الوطنيين فقد نسجوا حوله القصص ، وأصبح فى نظرهم بطلا من أبطال الأساطير ، وجعلته مخيلتهم قادرا على كل شيء كالأولياء وأصحاب الكشف .

ألم تعجز الحكومتان المصرية والانجليزية عن القبض عليه ؟

(١) كان ويكون ج ١ ص ٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) سلافة النديم ج ١ ص ١٢ .

(٣) تراجم أميان ص ١٩ .

لقد صارت القصص المنسوجة حول اختفائه حديث المجالس يسمرون بها وينسبون اليه فيها من الأمور الحارقة ما يوافق سذاجة عقولهم ويناسب تفكيرهم البسيط وترفع من قدر بطلهم أو تحسبه من الأعداء .

جاءه صديقه الفرنسى يوما^(١) فقال له : « عندما كنت فى طنطا أمس سمعت عنك أخبارا كثيرة من الناس ، فسنهم من يقول انك ركبت مع العرب وخرجت الى الصحراء لتسافر منها الى المغرب الأقصى ، ومنهم من يقول انك مت فى معركة التل الكبير شهيد الوطنية^(٢) ، ومنهم من يقول انك بطرف أحد القناصل الأجانب ، فكنت أسمع وأضحك وأعجب »^(٣) يجعلونه مرة فى حى منيع هو حى العرب فلا تصل اليه الحكومة ، وأخرى يرفعونه الى مرتبة الشهداء فى سبيل الوطن ، وثالثة يجعلونه سياسيا خطيرا تحميه الدول الكبرى ، واشاعة رابعة تدعى أنه ضبط مختفيا فى بيت رياض باشا وزير الداخلية نفسه والذى أصدر أمرا بالقبض عليه ، وقد سهل له سبيل الترار^(٤) .

(١) فى مارس ١٨٨٢ .

(٢) للحقيقة والتاريخ يجب أن يذكر هذا الجيل بالفخر والابار بطلين من رعاء الحركة الوطنية لم يلقيا السلاح فى معركة التل الكبير ، وظلا يعاتل مع جنودهما الفلاحين حتى استشهدوا جميعا وعبر الأعداء والخواه على حنتهم ليدخلوا البلاد وهما البطالان الشهيدان محمد عبيد ومحمد فودة . انهما مثالا للشجاعة والبطولة والوطنية نهل نحتد ذكرهما الامة ؟

(٣) كان ويكون ج ١ ص ٥٦ .

(٤) كان ويكون ج ١ ص ٥٧ .

وأعجب من ذلك ما يرويه النديم نفسه حول ذلك فيقول :
« ان رجلا دخل المضيقة في منزل صديقنا الهشري وكانت
مزحمة بالضيوف ثم قال : ان عبد الله النديم عند السلطان
الآن ، ولما سئل من أين أتاك الخبر ؟ قال : انه توجه من دمياط
الى الشام بمراكب البرتقال ، ثم سافر من يافا الى استانبول فلما
صار فيها سعد على مائدة بالقرب من سراى السلطان بين العصر
والغرب ونادى بالأذان ، فلما سمعه السلطان اسنخره وسأله
عن هذا الأذان فقال له : أنا أذنت ليسمع مولانا السلطان
ويدعو بى اليه . أنا عبدكم عبد الله النديم المصرى فقام السلطان
وأخذه بالحضن وقال له : الحمد لله على سلامتك يا بنى ما أصل
حكاييتكم ؟ وكيف انكسرت العساكر المصرية ؟ فقص عليه الخبر
من طقطق لسلام عليكم . ففرح السلطان به وأكرمه وأمر أن
يُخدموه في خدمة عظيمة فلم يقبل الخدمة وقال : أنا أحب
أن السلطان يبعث معى عساكر لمصر ومراكب ليخلص لنا البلاد
من أيدي الانجليز » (١) .

انها صورة البطل الهارب لطلب النجدة ثم يعود ليخلص
الوطن من الأعداء . انها الآمال التى لم تتحقق فى الواقع فوجدت
فى الخيال مجالا لتحقيقها وكان النديم هو الوساطة التى تصل
بين الخيال والأمل .

لكن هذه الاشاعات وتلك الأساطير لم تقف دأب الحكومة

(١) كان ويكون ج ١ ص ٥٦ - ٥٧ .

فى البعث عن النديم والقبط عليه ، فما زالت مرارة دعاياته وخطبه ومقالاته تغص بها حلوق وأصحاب السلطة فى البلاد . وكانت أنباء الجواسيس المنتشرين فى البلاد تجعل النديم دائما متوتر الأعصاب قلق النفس مهددا فى كل لحظة ، ولذلك أطلق صديقه الفرنسى اشاعة بأن النديم هرب الى ليفورنو بايطاليا ومنها الى فرنسا ، ونشرت الخبر جريدة الأهرام وعنف رجال الضبط على افعالهم تعنيفا شديدا ، وحينئذ تحول البحث من داخل البلاد الى ايطاليا وفرنسا . وبلغ الحق ببعض كبار الحكام أن بعثوا مندوبا خاصا الى ليفورنو ليقول النديم ، فذهب وعاد بخفى حنين ، ولم يقطع الا رأس مال مرسله^(١) . وأرسلت الحكومة من يبحث عنه فى الشام أيضا خيفة أن يكون قد هرب الى^(٢) . وبعد مدة كتب صديقه القديم سليم النقاش : « قد تعددت الأقوال فى مقر عبد الله النديم : من قائل انه التجأ الى البلاد الايطالية ، ومن قائل انه فر الى طرابلس الغرب ، ومن زاعم أنه أتى السودان واتصل بالمهدى وصار له ندما ، وقال قوم انه سارع فى السفر الى ميلان للاجتماع بعرايى ، والحقيقة فيما نعلم أنه أتى باريس فى الأيام الأخيرة ونشر فيها مقالات أتى فيها على ذكر الحرب العراقية ، وندد بالمصريين ونسب اليهم الضعف والجبن والاستسلام للقوة المحتلة ... »^(٣) .

(١) سلافة النديم ج ١ ص ١٣ .

(٢) كان ويكون ج ١ ص ١٧ - ١٨ .

(٣) أحمد أمين : زعماء الإصلاح ص ٢٢٢ .

خف البحث نوعا عن النديم بعد ترديد هذه الاشاعات .
وبدأت الحكومة تصدق أنه هرب منها الى الخارج ، وهذا
النديم بعض الهدوء وأخذ يتصل بالحياة الخارجية ، فطلب الى
صديقه الفرنسى أن يحضر له بعض الصحف العربية الى جانب
جريدة الوطن التى كان النديم مشتركاً فيها باسم مستعار ، فهو
يريد أن يقف على الأخبار اليومية ليطلع على تطورات الموقف
وحالة البلاد . غير أن صديقه حاول أن يمنعه من قراءة الصحف
المحلية 'الموالية للخصم' والاستعمار وقال له : « لا أحب أن
يكدر فكرك بما فيها فهو لا شئ غير الخط على الثائرين
وانغراء الحكومة على الانتقام وتشديد العقاب ، فليس فيها شئ
يسرك ، ولا يمكنها أن تتكلم فى السياسة باللسان الذى تتكلم
به جرائد أوروبا ، فأنا أترجم لك التيس والديلى نيسوز
والديلى تلغراف الانجليزية ، والديسا والريبليك فرانسر
والفيجارو الفرنسية فانى مشترك فيها ، وبكفيك أن تقف على
حقائق السياسة من هذه الجرائد ، ومع ذلك فانى أستحضر لك
عدداً أو عديدين من الأهرام فان استحسن ما فيه اشتركت فيه
باسمى وجئت بك كل يوم » .

ويرد عليه النديم : « لا بأس من استحضاره ، فانى أحب
أن أقف على الأخبار المحلية كائنة ما كانت ، ولا تظن أنى أتكدر
بما فى الجرائد مما لا أحبه فانى أعلم أن الحوادث تقضى على
المحررين بصرف الأفكار فيها » ^(١) .

كان للنديم وهو في محنته حلقات اتصال بالعالم الخارجى
تصله بالناس وبالحياة وتزوده بأخبار المجتمع والسياسة ومن
هذه الحلقات :

صديقه الفرنسى ، وهو كما يصفه النديم من أصدق الناس
وأوفاهم لعهد ، لم يأل جهدا في مساعدته ، بل كرس كثيرا من
وقته لخدمته ، فهو يشتري له الملابس والسجائر وأدوات الكتابة
والصحف ، ويؤنسه في وحدته ، ويناقشه في السياسة والدين ،
ويعاونه في التأليف وأكثر من ذلك أنه عرض على النديم أن
ينتقل الى ضيعته ليتخذها مخبئا كى يتحمل وحده مسئوليته ،
ولكن النديم كان يعتذر بأسباب تدل على شدة حيظته وقوة
وطنيته وثقته بمواطنيه .

وكان الفرنسى رسول النديم الى أصدقائه ومعارفه يأتيه
منهم بالأخبار . أرسله فيما أرسل الى صديقه الشيخ مصطفى
بيولاى حين ألت به الهواجس حول أهله وكتبه ومؤلفاته
المخطوطة وقد اقطعت عنه أخبار أهله ، أما كتبه ومؤلفاته فقد
كانت تملأ ثلاثة صناديق كبيرة حملها أبوه مصباح معه فى القطار
من الاسكندرية وهو مهاجر منها صبيحة ضربها بالقنابل ، وحين
وصل القطار الى كفر الزيات هجم عليه المهاجرون فقرّر عمال
السكة الحديد أن يلقوا بالأمّعة فى النيل حتى لا تفرق المركب
الذى تحمل القطار مجتازة به النهر وكانت صناديق الكتب ضمن
ما ألقى فى الماء فى هذا اليوم ^(١) . ويذهب الحواجة الى الشيخ

(١) كان ويكون ج ١ ص ٩٠

مصطفى ليتعرف منه أخبار الكتب والأسرة ، ولكن الشيخ يشك في الحاجة فينكر معرفته شخصا يدعى النديم ، ويقدم له الحاجة « علامة الأمان » وهى كيس قهود كان قد أعطاه الشيخ مصطفى للنديم يوم هرب من بيته ببولاك ، ومع ذلك يصر على الإنكار مبالغة في الحيلة ، وفي ثانيا حديثه يقول للحاجة : انه سمع عن أهل رجل في الاسكندرية لا يعرف عنه أكثر من أنه كان ممن خرج على الحديو وناصر العرايين ، سمع أنهم يعيشون في ضنك وعدم استقرار ؛ حياتهم عذاب وقلق بسبب جهل مصير ابنهم أولا واضطهاد الحكومة لهم ثانيا ، وتنكر الأصدقاء لهم ثالثا .

وفي المرة الثانية جاءه الحاجة بخطاب بخط يد النديم يطلب اليه أن يثق بالرجل ، وأن ينبئه أخبار أهله . ولم ينس النديم وهو في محنته أن يسأل عن اخوان المعركة وزملاء السلاح فكتب لصديقه ضمن رسالته « ... كما أرجو أن تخبروني عن اخواني وما تم لهم فاني لا أرى في الجرائد الا شتائم وتهويلا ، وانذارا واغراء ، والحقائق مستورة عني بهذه الاتهامات ، وان حدثتك نفسك بالحضور عندي فراجعها وقر مكانك ، فانك ربما اتبعت عن يقف على منتهى سفرك ، وقد علمت من كتاب بعض اخواني أن الحكومة هجمت بيتك وقتشته ، فلا ينبغي أن تخاطر بنفسك فتضرها وتضرني معك ، وان خفت الكتابة فاعتمد على خطي هذا وقل لصاحبنا ما عندك من الأخبار ... » (١)

(١) كان ويكون ج ١ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

وفي هذه المرة رجع اليه الحاجة بتفاصيل أخبار أبيه وأخيه وأهله واستقرارهم في الاسكندرية بعد طول رحيل وتنقل ، وبأنباء المضايقات التي تأتيهم من الحكومة ، وفرار الناس منهم ، وتتبع الجواسيس لهم وعدة حركاتهم ومسكناتهم ، واتهام أخيه عبد الفتاح وجملة من الوجهاء في الاسكندرية بتأليف جمعية سرية تسمى « الجمعية الاعدائية » تهدف الى اغتيال الذين ناصرُوا الاستعمار ، ومن ثم حددت اقامته في منزله (١) .

وجاءه الفرنسى يوما ليخبره أنه قرأ في الصحف الانجليزية أن مجلس العموم البريطانى قرر مناقشة الثورة العرابية والتدخل البريطانى المسلح وأن المعارضة البريطانية استطاعت أن تحصل على القرائن والمستندات التي تثبت خطأ الحكومة البريطانية فيما أقدمت عليه ، وأن ما قام به عرابى لم يكن عصيانا وانما كان ثورة وطنية حقيقية تعبر عن آمال الشعب المصرى فطلب النديم من صديقه أن يترجم له كل مناقشات مجلس العموم حول المسألة المصرية ليستعين بها في تأليف الجزء الخاص بالتاريخ المصرى المعاصر من كتابه « كان ويكون » والذي يبدأ من بذور الثورة الوطنية التي نبتت في عهد سعيد باشا — حتى يومه ذلك ، وكان يريد النديم بذلك أن يضيف الى معلوماته ومصادره المصادر والمستندات التي بيد البريطانيين حتى يكون — وهو يكتب عن المسألة المصرية — على بينة من الأمر كله

(١) كان ويكون ج ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

وحتى يعالجها من كل نواحيها ، ولكي يثبت للتاريخ ما كان يدور بين الدوائر الاستعمارية والرجعية المصرية في الحفاء حين تظهره المستندات والوثائق السرية التي لا بد أن تكشف في هذه المناقشة (١) .

وقد كتب النديم فعلا هذا الجزء من كتابه « كان ويكون » لكنه أطلق عليه اسما جديدا هو « تاريخ مصر في هذا العصر » (٢) .

وثاني الحلقات التي كانت تصل النديم بالعالم الخارجي صديقه الشيخ العالم الأزهرى الذى آواه أول أمره في « منية العرقى » يقول عنه النديم انه « يبعث الى كُتبه عن طريق مأمونة ، وفي كل أسبوع يكتب لى خلاصة الأخبار وجميع الجارى بمصر ، فأنا ألتفتع به أحسن من كل انسان يكتابنى خصوصا وانه يتحرى في كتابته فلا يخبر الا بالحقائق والأخبار الموثوق بها ، فترانى أنتظر كُتبه انتظارى للفرج جزاه الله تعالى عنى أحسن الجزاء » . وفوق خطاباتة كان الشيخ الأزهرى يرسل اليه الكتب العلمية ، وكان يحضر الى النديم في مخبئه ويستمع الى مناقشاته العلمية مع الحاجة ، ويشترك في جانب منها (٣) . وكان يشترك مع الشيخ شحاتة القصبى فى الاشراف

(١) انظر كان ويكون ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) ظل الكتاب مخطوطا حتى حقه وطبعه الدكتور محمد أحمد خلف الله

عام ١٩٥٦ تحت عنوان « عبد الله النديم وملكراته السياسية » .

(٣) كان ويكون ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٥ .

على جهاز اخفاء النديم فاذا ما ذهب الى القاهرة اجتمع بالشيخ مصطفى « وتبادلا الحديث في أمر صديقيهما النديم ، واجتهدا في الوقوف على ما عند الحكومة من شأنه ليخبراه بما يقفان عليه حتى يكون على بينة وحذر » (١) .

والصلة الثالثة بين النديم وعالم الحياة الخارجية مضيفه الشيخ محمد الهشري . كان رسوله الى الرأس المدبرة المشرفة على عملية الاختفاء الشيخ شحاتة القصبى شيخ الطريق الصوفى يذهب ليتلقى منه التعليمات وطلب اليه النديم مرة أن يسأل شيخه الى متى يظل فى محنته لعل الشيخ بصفاء قلبه وكثرة عبادته يكشف الحجب عن المستقبل ، فيجيبه الشيخ على لسان الرسول :

« دع عنك هذه الوسوس والأوهام ، واشتغل بطاعة الله تعالى ، وأكثر من ذكر الله ليلا فانه ينور الباطن ويصفى القلب ، ولا تعلق أملك بخروجك فى هذا العام أو الذى بعده فان الأمد طويل وعلمه عند الله » (٢) .

(١) كان ويكون ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) كان ويكون ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ . وقد صدقت نبوءة الشيخ فقد ظل

النديم فى الاختفاء أكثر من ٩ سنوات .

في أعقاب الهزيمة

لو اطلع النديم بظهر الغيب قبل أن يتخذ طريق الاختفاء
لاختار الواقع ، ولو أنه سلم نفسه مع من سلم لكان جزاؤه
مثل ما تعرض له زملاؤه من التعذيب والاهانة في السجن ثم
القتل أو النفي والتشريد .

أقيمت المحاكم العسكرية للشوار ، ولفقت التهم ، وكثر
الشهود المزيفون ، وتغير الناس وصار من كان يمدحهم ويسير
وراءهم بالأمس يذمهم ويكيل لهم التهم ، ونكل بأشياعهم
وأنصارهم وامتلات بهم السجون . ويصف النديم ما حل
بالثوار وبالوطن وبالوطنيين عقب الاحتلال في خطاب أرسله
باسم مستعار لعراقي في منفاه بسيلان فيقول :

« عندما دخل العدوان وتربع الطغيان في الديوان ، تجلسوا
بالثياب ويرموا الأثمناب ، وتنهّدوا فرحاً واختالوا مرحاً ،
وجردوا سيوفهم التي ما سلّلت وحركوا أيديهم التي قد غلت ،
وقابلوا الانجليز بالولائم وتقربوا اليهم بالجرائم ، وقدم لهم
المنافقون النفائس ، وصلت لهم النصارى في الكنائس ، وتلقوهم
بالموسيقى والأغاني ، وتراقصوا معهم بالغواني وكأنهم الظافرون
بالانجليز أو أنهم من غير الوطن العزيز ، وجسّعوا قشوداً من
سائر الناس وصنعوا سيفاً لولسلى وسيفاً لسيمور وطينجتين
مرصعتين بالماس ، وكتب عليها مشير المنافقين (سلطان باشا)

« هدية ومعرفة جميل من المصريين » فدونوا لهم تاريخ ذلة
باعتصارهم بعدو الملة .

« ثم وضعوا الرحمة تحت نعالهم ، وجعلوا القسوة أجمل
فعالهم ، وداروا حول حزبنا في البلاد يتصيدونهم في الأصفاد ،
ثم ساقوهم الى السجون وموارد المنون .

« وقد خاطبوا العلماء خطاب الأسافل ، وأخرجوا الأشراف
لكنس المزابل ، وأخذوا بالظن والتخمين وشتقوا الأبرياء من
المواطنين فشتقوا اثني عشر رجلا في طندتا بشهادة امرأة يهودية ،
وتسعة بشهادة الياس ملحمة في الاسكندرية ، وغيرهم في غير
هاتين ممن لم تطرف لهم في الحركة عين .

« وساقوا الشيخ عليشا امام السنة الى مستشفى قصر العيني
في الدجنة ، كأنه مجرم أو لقيف ، أو أنه لم يكن حافظ الشرع
الشريف — وهناك جاءه العدو وسقاه ^(١) فانتقل الى رحمة الله .
وساقوا الشيخ العدوى وبقية العلماء ^(٢) وسجنوهم سجن
الأدنياء لا دين يردعهم ، ولا وطنية تنفعهم .

« وكل هذه الجرائم لم ترض رياضا الغاشم ، بل أراد أن يأخذك
ومن سمع نداك ، ويقدمك قربانا لعداك . فبعد عن الرحمة
والاشفاق واستحضر مقصلة لخرط الأعناق . وعقد مجلسا ليثبت
الحكم عليك ويسوق الحمام اليك .

(١) سقاه السم في الدواء .

(٢) الذين أفتوا بخلع الخديو وبوجوب حربه والاتجليل معه .

« ولما سمعوا كشييش الأفعى وعلموا أن قد خاب منهم المسعى أخذوا يتشفون من بعض الأفراد ويتوعدونهم بالقتل والابعاد ، طلبا لنبرطيل ، بالترهات والأباطيل ... وانى لآسف على يوسف أبى ديم ... وما أحسن ما أبداه من الثبات وهو تحت مشنقة المسات حيث قال له ابراهيم أدهم^(١) هل تريد شيئا نحضره اليك قبل القضاء عليك ؟ فقال أريد لمصر الاستقلال الذى كان معقد الآمال ، وأى شىء بعد أن قطعتم آمالنا ، ولكن اليوم لكم وغدا لنا ...

« ولما انتهى أمر الانتقام بالنفى والاعدام ظن الأعداء أن الجوع قد خلا والوقت قد حلا ولم يعلموا أنهم يخادعون الله وهو خادعهم ويصدعون الدين وهو صادعهم فأطالوا النوم والغطيط والله من ورائهم محيط^(٢) » .

« ولما انتهى أمر الانتقام بالنفى والاعدام ظن الأعداء أن الجوع يعوز أعداؤه أن يجدوا الشهود المستعدين لترديد أية شهادة يلقنونها ، فنسبوا اليه تهمة الاشتراك في حرق الاسكندرية . شهد أحد المأجورين بأنه سمع النديم وهو عائد من الاسكندرية في القطار يوم ١٣/٧/١٨٨٢ يقول : « انا حرقنا الاسكندرية وقتلت بمسدسى ثلاثة من الأجانب^(٣) » .

(١) مدير الغربية أيام الثورة ومن أنصار الحديو ومثير الفتنة بين المسلمين والنصارى .

(٢) تاريخ مصر ص ٨٥ - ٨٨ .

(٣) انظر تفصيلات التهمة والشهادة والتحقيق في محضر التحقيق مع حسين واصف . مصر للمعربين ٢٤٤ - ٧/٢٤٥ ، ٥٢١ - ٨/٥٣٩ .

وعجيب ألا يسمع قول النديم أحد من المسافرين معه في نفس الديوان وكانوا أكثر من عشرة اللهم الا ذلك الشاهد الموظف في الضبطية والذي ثبت أنه لم يكن مسافرا أصلا في هذا اليوم (١) .

قرأ النديم قصة اتهامه واتهام غيره من زعاء الثوار في الصحف فعلق مخاطبا صديقه الفرنسى « انى أقرأ أخبارا غريبة ... وأرى شهادات مزورة مقدمة من أناس صورتهم صور الأمراء والوجهاء ، وحقيقتهم حقيقة سفلة أغبياء ، ويعلم الله أنهم ينسبون الى ما لا يخطر ببالى فضلا عن وقوعه منى ، وسأبين ذلك عند التكلم على المسألة المصرية لتتحقق كذب هؤلاء المنافقين (٢) » .



سارت سفينة الأمان بالنديم فى اختفائه نحو عام ، وفجأة مات مضيفه رب الدار الشيخ محمد الهمشرى . وكانت فجعة النديم فى صديقه شديدة فقد فقد بموته صديقا ذا مروءة وفضل عليه ، وفقد بموته الأمان على نفسه ، فقد أصبح مصيره معلقا فى يد القدر اذ لا يعلم بأمره فى المنزل الا زوجة العمدة المتوفى ، وحتى أولاده الكبار لا يعرفون شيئا عن حقيقته وأقل هفوة منهم أو من أحد من أهل المنزل وعددهم يربو على

(١) انظر تضارب اقوال الشاهد فى مصر للمصريين ٥٣١ - ٨/٥٣٨ .

(٢) كان ويكون ١/٢١٠ .

الأربعين قد يكشف سره ، ولكن صاحبة الدار حسنت الا
بسرعة ، وكانت على مثال زوجها مروءة وشهامة ، فجاءت بأ
أبنائها صاحب المسئولية الأدبية عن الأسرة بعد أبيه ، و
شابا لم يتجاوز الخامسة عشرة وأخبرته أن ضيفهم المخت
عندهم هو عبد الله النديم الزعيم الوطنى الذى جعلت الحكو
لمن يدلها عليه ألف جنيه .. ثم قالت له : « أفتريد أن تك
كأبيك فى حفظ الجار وحماية الذمار فتؤويه وتكرم مثواه ،
ترغب فى حطام الدنيا فأكون بريئة منك الى يوم الدين ؟ ف
لها : حاشا لله أن أخفر ذمامى فسترين أنى أحافظ عليه محافظ
على عرضى ، ولن يصل اليه أحد بسوء ما دمت حيا . فبار
والدته وأكرمت فيه شهامته وحزمه ^(١) .

وبدأ بقية أعضاء الجهاز المشرف على الاختفاء يرقبوا
الأمر بعد وفاة الشيخ الهمشرى بعيون حذرة ونفوس ق
فأخذ الشيخ العالم الأزهرى يتردد على النديم ليتكش
الأحداث ، وفى أولى زيارته بعد وفاة العمدة يقول للنديم
ليس هناك من أخبار جديدة وما جئت الا لزيارة الأخ
والاطمئنان على صحته ومعرفة حالة اقامته هنا ، وهل بق
الأمر مستورا كما أعهد أم أذيع بين أهل الدار فنبحث عن مح
آخر ننقله اليه حتى لا يذاع سره ويصل الى الحكومة ؟ فيجيب

(١) سلافة النديم ج ١ ص ١٤ انظر أيضا تراجم اعيان ص ٢٠ - ٢١

النديم : ان الأمر على ما يعهده من الكتمان والحذر ، ولا يعلم حقيقتي الا رب البيت - الجديد - ووالدته (١) .

أغلب الظن أن المضيئة وابنها قد أحسا بالفراغ الذي تركه موت العمدة صديق النديم وجليسه ، وبالوحدة والوحشة التي يقاسيها في عزلة ، فتخيرا له من يملأ هذا الفراغ من يتقون به كل الثقة . اختارا الشيخ خليل مأذون القرية وأخاه الحاج شاذلى حلاق صحة البلدة ، ولا عجب في ذلك فمأذون القرية وحلاق الصحة من رجال الادارة بالقرى وعادة ما يكونان من أقرباء العمدة أو من أهل ثقته المقربين اليه . يخبرنا النديم عن جلسيه الجديدين فيقول : كانا يحضران بين آونة وأخرى يحدثاننى ويسامراننى ، وقد وجدت في حضورهما ومسامرتهما لى أنسا وراحة ، وأتعجب منهما لتعريضهما نفسيهما للخطر بالدخول عندى ، ثم انظر الى كتمانهما السر رغم المغريات على افشائه تعلم أنهما من رجال الشدة الذين ملئوا مروءة ... (٢) .

(١) انظر كان ويكون ج ١ ص ٢٢٤ .

(٢) كان ويكون ١/٢٢٤ .

زواج النديم

بعد أن طال أمد الاخفاء أخذت العزلة وعدم الحركة تؤثر في صحة النديم ، وذلك الى جانب التفكير المتواصل في مصيره المجهول ، والاضطراب النفسى لكل صوت أو حركة ، والاجهاد العقلى فى التأليف ذلك كله كما يقول هو « كسانى نحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبى ، وسبكنى فى قالب الكهولة أيام الفتاء ، وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين وحقيقتى لم تشهد من الأعوام الا تسعة وثلاثين^(١) . وكان لا بد أن تنظم حياة الندم على وضع تستقر فيه أحواله حفظا لصحته المتدهورة .

كان فى حاجة ماسة الى من يقوم على شئونه الخاصة فى محتبئه ، والى قلب حان يعطف عليه ويسرى عنه عذابات المحنة ومضايقاتها التى يعيشها طوال هذه الأيام . وبلغ من كرم أسرة الهمشرى منتهاه فزوجوه ابنة صديقه العمدة المتوفى وزوجوا خادمه بواحدة من أتباع الأسرة^(٢) .

(١) كتب ذلك فى عام ١٨٨٣ وهو بالعتوة العبلية . انظر كان ويكون ١/١١ .

(٢) المقطم ١٨٩١/١٠/٧ . قيل أن خادمه تروج بأخت زوجته حتى لا تعنى احدهما سر الاخرى . ولكن المرجح كما ذكرى مخضر التحفيق مع النديم فيما يمد أنه تروج من ابنة العمدة وأن خادمه تروج من احدى بنات المتصلين بأمة العمدة .

ثان هذا هو الزواج الثاني للنديم . ولا يعرف بالصبط متى تزوج لأول مرة ولا بمن تزوج . والنديم لم يشر اطلاقا الى زواجه الأول صراحة فى أى من مؤلفاته التى عثر عليها . وانما أشار الى ذلك ضمنا فى كتابه « كان ويكون » حين كتب عن أولاده فقال « وقد رزق واضع هذا الكتاب بمحمد وعثمان والياس وفاطمة وعائشة وسكينة وخديجة ثم استودع هياكلهم التراب (١) » .

ويمكن أن يقال — استنادا الى القرائن — ان النديم قد تزوج حين استقل ماديا وعمل فى فن التلغراف وأصبح له مرتب ينفق منه على الزوجة . وأنه كان متزوجا وهو يعمل بالقصر العالى فقد أشار الى ذلك اشارة عابرة حين كلفه صديقه عبد العزيز حافظ وكان قد نقل من القاهرة بكتابة الرسائل المتوالية له على أن تكون على نمط خاص من البديع ، فقال النديم مشيرا الى ذلك : « صعبوا على الأمر ، وأحرقونى بالجسر . فأنا بين ملاحظة عملى وبيتى وصحتى ونسخ وتآليف ، ان ذا الأكبر وأشق تكليف (٢) » وكلمة البيت فى البيئة المصرية كناية عن الزوجة والأولاد . وأشار الى ذلك مرة أخرى حين ذهب وهو موظف بالقصر العالى أيضا لزيارة والده وأمرته بالاسكندرية فى عيد الأضحى ١٢٩٠ (يناير ١٨٧٤) فمرض هناك مرضا شديدا أشرف به على الموت .

(١) كان ويكون ج ١ ص ١٩ .

(٢) سلافة النديم ج ١ ص ٧١ — ٧٢ .

وبعد أن شفى كتب رسالة بديعية الى صديقه الشيخ أحمد وهبى فى فبراير ١٨٧٤ تحت عنوان « درر النحلة وعزر الرحلة »^(١) . ضمنها أخبار رحلته الى الشجر ومرضه بها وتقلبه بين الرجاء واليأس ، وجعلها على شكل محاوراة بين السماء والاسكندرية ، وقد جاء فى هذه الرسالة على لسان السماء : « أو حضر النديم لبلده لزيارة أهله وولده ؟ » وذلك يدل على أنه كان متزوجا وله أولاد . وقال فى مكان آخر من الرسالة : « وتحقق لأهلى الموت وضجوا بالصياح والصوت » فكلمة « للأهل » هنا يشير بها الى زوجته لأن النساء هن اللواتى يصحن عادة فى مثل هذه المناسبات ولم تكن أمه هى الصائحة لأنه استدرك وقال « والوالدة الرعوفة الرحيمة ما صاحت ولا بكت ، ولا نديت ولا اشتكت ، بل لم تتحول عن القبلة »^(٢) ولا يمكن تحديد مصير الزوجة الأولى أيضا بعد أن تركنا النديم نضرب حولها فى متاهات الظن والتخمين .

ولعل الذى منع النديم من الحديث فى كتاباته عن زوجاته أن المرأة فى ذلك العصر كانت بحيث لا يجوز لها أن تشترك فى الحياة العامة ، وكان مجرد ذكر اسم الزوجة فى مجتمع عام يعتبر محرما ، وانما يكتفى عنها بالبيت والأسرة والأولاد . فما بالك بذكر اسمها مطبوعا فى كتب أو صحف ، انه لأشد تحريما . ظل النديم فى ضيافة أسرة الهمشرى وتحت حمايتها ما يقرب

(١) نص الرسالة سلافة النديم ٢٩ - ١/٤٥ .

(٢) سلافة النديم ج ١ ص ٤٤ .

من الأربعة الأعوام^(١) ، ولد له فيها من زوجته الهشربة بننه حفصة وماتت وهي طفلة ودفنت دون أن يحس بذلك أحد من أهل القرية .

من أزمت الاختفاء

على مر الأيام تسرب الى أقارب الأسرة أن هناك هارباً من الحكومة - لا يعرفون من هو المختبئ في بيت الهمشري ، وحين نشبت خلافات وحزازات بينهم وبين الأسرة أجمعوا أمرهم على الوشاية الى الحكومة ، وجاء رسول الخير يحمل الى أسرة الهمشري نبأ ما بيئت خصومها لها وما أجمعوا عليه أمرهم . وأسرع النديم بالهرب . خرج ليلاً من الباب الخلفي للسزل حتى لا تراه العيون الراصدة وخرج معه الشيخ خليل مأذون القرية ليدله على مسالك الطريق في الظلام وسارا يضربان في الليل على غير هدى حتى ابتعدا عن منطقة الخطر .

ومرة أخرى يحالف الحظ النديم - وما أكثر ما حالفه أيام الاختفاء - فلم يكد النديم يتعد عن قرية « العتوة القبلية » حتى جاءها البوليس وهجم على بيت الهمشري يبحث عن ذلك الهارب المختبئ فلم يجد له أثراً .

وطير الخبر الى الشيخ القصبي فأخذ أتباعه ومريدوه

(١) المقطع ١٠/١٠/١٨٩١ - محضر التحقيق مع عبد الله النديم .

يرقبور النديم وهو يجوس الديار ويعترضون طريقه ويقدمون إليه في خفية ما هو في حاجة إليه من طعام وكساء ويؤثرونه الليلة والليلتين . وفي هذه الفترة كان النديم دائم التغيير والتبديل في تنكره ، واستغل في ذلك خبرته القديمة بالتشيل وإتقانه فن التنكر ومقدرته على التحدث بلهجات عربية مختلفة^(١) وفي ذلك يقول : « فصرت أدخل كل بلد بلباس مخصوص ، وأتكلم في كل قرية بلسان يوافق دعوى التي أدعيها من قولى انى مغربى أو يمنى ، أو مدنى أو فيومى ، أو شرقاوى ، أو نجدى ، وأصلح لحتى اصلاحا يوافق الدعوى أيضا : فأطيلها في مكان عند دعوى المشيخة ، وأقصرها في آخر عند دعوى السياحة مثلا ، وأيضها في بلد ، وأحمرها في قرية ، وأسودها في عزبة^(٢) » .

مضى النديم بعد خروجه من « العتوة القبلية » ينتقل بين قرى مديرية الغرية وبلادها . وكانت فترة عصيبة مشحونة بالمفاجآت والأزمات الشداد ، فقد انتشرت الجواميس وزادت دوريات البوليس في المنطقة كلها بعد البلاغ الذى تلقاه المسئولون عن الهارب المختفى ، فكان النديم يئسى وهو لا يدري ما الله فاعل به فى أثناء النهار ، وكان يقضى يومه وهو لا يعلم ما يدخره له الليل من أحداث .

(١) لعله تعلم هذه اللهجات وهو صغير من سوق المنشية بالاسكندرية وكان يجاور منزله ، وفي هذا السوق كانت دكاكين الشام والمغاربة والحجازيين .

(٢) الاستاذ من ٩٤٧ .

كان انتشار الجواميس كما يقول النديم — وتواتر أخبار
الأراجيف سببا في فتور همم الاخوان ، فقد داخلهم الخوف
والرعب وقعد بهم عن معوته ولكنه واجه ذلك كله بثبات
وتجلد للمحن وقابل الأعاصير بقلب يؤمن بالقدر ولا يرهب
النائب ، وثبت أمام تلك المزعجات ، وأخذ يستعين على الشدة
بقرض الشعر في محاربة النوازل والدهر ، ولاظهار ما في الطوية
من الصبر متوسلا بجده الأعظم صلى الله عليه وسلم وأشهر
ما قاله في هذه الفترة القصيدة التي مطلعها :

أتحسبنا اذا قلنا بئينا
بئينا أو يروم القلب لين
نعم للمجد قتحم الدواهي
فيحسب خامل أنا دهينا

وكان النديم يستعين على أمره بذكائه وسرعة بديهيته ،
يسعفانه اذا ألمت به لامة ، أو دهسته داهية ، يواجه الموقف بما
يناسبه ، دون أن يظهر عليه أثر لاضطراب أو ارتباك ، وصل
الى محطة طنطا وهو في تجواله هاربا ليستقل منها القطار الى
كفر الزيات فلقيه هناك فريق من البوليس السرى الذين
انتشروا للبحث عنه ، واشتبهوا في أمره وقد عرفهم وهم له
منكرون ، فأقبل عليهم رابط الجأش قوى العزيمة ، وما زال
يحدثهم عن الدين حتى ذهب الشك من رعوسهم واحب الشبهة
لديهم واعتقدوا أنه رجل من الصالحين المقربين ، فلما أقبل

تقتصر وصولوه اليه وحصلوا له أمتعته وظلوا وقفا معه الى أن
 توثك الفطار على المسير فقبلوا يديه وسألوه الدعاء (١) .
 ومن القصيدة التي قالها في هذه الفترة نستطيع أن ندرك
 بعض الأزمات التي كان يعانيها النديم والمطاردات التي كانت
 تلاحقه من الجواسيس والبوليس ، والوشايات التي كانت
 تفجئه في مأمنه فتلفظه المخابيء ويتخذ الليل ستارا لهربه ؛
 وكان النديم ينجو من كل هذه الصعاب فيزداد ايمانا بأن جده
 الرسول صلى الله عليه وسلم ينشر عليه من أول أيام محنته
 محائب مدده ويحيطه برعايته . يقول النديم :

آنسى يوم مصر والبلايا

تطاردنى ولا ألقى معينا

فكنت الغيث في يوم كريه

أخاف الشهم والخبر السمين

مُدحنا فيه في اشراق شمس

فلما جاء مغربه هَجِينَا

وهل أنسى هجوم الجند عصرا

بلا علم وقد كنا فجيئا

أحاطوا بى وسدوا كل باب

وصرنا بين أيدي الباحثينا

وكان السطح مملوءا بجند

وخلف البيت كم وضعوا كميناً

(١) سلافة النديم ج ١ ص ١٥ .

فأدركت الوحيد وكان صيدا
قريبا من فخاخ الطاليتة
وأرشدت النديم الى مكان
رآه بعد حيرته مكينا
وأعمى الله عنا كل عين
وكنّا للعساكر ناظرينا
وصرنا فوق سطح فيه عثنو
يحطم هاويا منه متينا
فلم أرهب وثوبى فى طيار
ولم أنظر شمالا أو يمينا
ويوم الغيط كنت لنا مجيرا
بسطوته من البلوى حيننا
فقد كنا بلا ستر يرانا
أمام العين كل القاصدينا
وكم سرنا بلا خوف جهارا
ركبنا الخيل أو جئنا السفينا
وهل أنسى تصدى بعض قوم
لأن أُمسى بحيهم طعينا
فخلفت العيال وسرت ليلا
ولم أحمل حمول الظاعنينا
فكنت الغوث يا جداه دوما
وقعنا فى المهالك أو قفينا

وانى الآن فى خطب عظيم
أرى فى طيه داءً دفينـ
أتانا مخبر عن قوم سوء
أرادوا وصفنا للحاكينا
وخاف الضّرّ أجبابى جيعا
وقالوا بالوشاية قد رمينا
فجّـل بالرحيل بلا توان
ولا تخبر صديقا أو خدينا
فأدرك يا أبى نجلا دهاه
من الأهوال ما يوهى البدنا
فما خفت المنون ولا الأعادى
نعم خفت انشراح الشامتينا
فسرت الليل يصحبنى ثبات
لحل نحو منزله دعينا
ورافقنى خليل كان قبلا
يوافى حين كنا ظاهرينا
وأدركنا القطار بغير خوف
وكنّا بالثياب منكربنا
وألقي الله ستر الحفظ فضلا
فلم ترنا عيون المسبلينا
وكان الحل منتظرا قدومى
بخيل أوصلتنا سالمينا

ونجى الله بعد اليأس عبدا

يرى الرحمن خير المتقين

ظلت فترة عدم الاستقرار هذه نحو ثلاثة شهور ، كان النديم فيها دائم التنقل لا يقر له قرار ، ثم ألقى بعضا الترحال في فريه « الكوم الطويل » من قرى مديرية الغربية وأقام بها على أنه عالم رحالة أقبل من المدينة المنورة ويدعى الشيخ يوسف المدني^(١) وأخذ يدرس الفقه والتوحيد والنحو في مسجد القرية ويخطب الناس يوم الجمعة^(٢) وصار الضيف أمام القرية يكلمهم بلهجة أهل المدينة فيقبل عليه الناس ويبالغون في اكرامه تبركا به وبالمكان الذى جاء منه . واستقر النديم بعض الاستقرار « بالكوم الطويل » وعاش فيها بملابسه التنكرية حياة عادية لا اختفاء فيها ولحق به خادمه . ولكن زوجة النديم الهمشربة لم تلحق به فقد جاءها أجلها في هذه الفترة ولحقت بالرفيق الأعلى^(٣) .

أقام النديم بالكوم الطويل ثلاث سنوات^(٤) ولم يداخل أحدا الشك في شكله أو هيئته أو لهجته ، ولم يعرف حقيقته الا أعضاء الجهاز السرى المشرف على اختفائه ، وذاعت شهرة الشيخ المدني كعالم وواعظ وفقه ومحدث ، وصار يدعى الى مجالس الأعيان والشيوخ فيها . وزار البلدة مصطفى باشا

(١) المقطم ١٨٩١/١٠/٥

(٢) انظر سلافة النديم ج ١ ص ١٥ - المقطم ١٨٩١/١٠/٩

(٣) المقطم ١٨٩١/١٠/٩ انظر أيضا تراجم أعيان ص ٢١

(٤) المقطم ١٨٩١/١٠/٩

صباحى وكان مديرا للغربية وفتذاك ، فاجتمع النديم به فى منزل العسدة ، ودارت بينهما مناقشات طويلة ، وأحاديث متعددة قال مصطفى باشا لجلسائه على أثرها : « لولا على بأن النديم قد مات واقضت أيامه لقلت انه هو هذا الرجل بعينه ولكن جلّ من لا شبيه له » ^(١) ولم يكتشف المدير أن الشيخ يوسف المدني هو الزعيم الثائر المكلف بالقبض عليه .

وأحسن جهاز الاختفاء أن شهرة النديم قد ذاعت ، والشهرة غالبا ما تجلب وراءها الحسد والبحث والتقصى ، وزيارة المدير وتعقبه على المناقشات بينه وبين النديم قد يثير فى النفوس بعض الشكوك ، ومن ثم جاء الأمر الى النديم بالرحيل ، فانتقل الى المحلة الكبرى ، ومكث بها نحو ٢٠ يوما ، ثم عاد الى « ميت الغرقى » مركز جهاز الاختفاء وأقام بها ثلاثة شهور ، ثم قصد سنهور والعجورين ^(٢) ثم القرشية وتزل ضيفا على أحمد باشا المنشاوى متكررا فى زى يمنى وادعى أنه عالم يدعى الشيخ على اليمنى .

والمنشاوى كان من أعيان مديرية الغربية وكان هواه مع الثورة العرابية أمدها بالمال والمؤن والرجال ، وبينما كانت تدور رحى الحرب بين المصريين والانجليز حاول بعض أعوان الخديو داخل البلاد أن يحدثوا فتنا بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى فى بعض المدن حتى يختل الأمن فى الجهة

(١) سلافة النديم ج ١ ص ١٥ .

(٢) المقطم : محضر التحقيق ١٠/١٠/١٨٩١ .

الداخلية ، ويتألب الرأي العام الأوروبي على المصريين وعرابي
والثورة المصرية لتعصبهم الديني ^(١) . واستطاع المنشاوي باشا
أن يخمد فتنة قامت في طنطا اذ آوى المسيحيين والأوروبيين
المقيمين في الغرية في قريته القرشية وأكرم مثواهم وحسأهم من
دعاة الشغب والفتنة . وبعد الاحتلال حوكم مع من حوكم من
أنصار العرابيين ، ولكن الأوروبيين الذين لجأوا الى حماه خلال
الحرب ضغطوا على قناصلهم حتى يتدخلوا لدى السلطات
البريطانية لتعفيه من العقاب . وبرىء المنشاوي باشا ، غير أنه
ظل سرا يؤيد أنصار الثورة الوطنية ^(٢) ومن ثم فيغلب على
الظن أنه كان على علم بشخصية ضيفه النديم ^(٣) . ويصف
النديم نفسه في القرشية فيقول : « ادعيت أنى عالم عني متمكن
من العلوم ، وكنت منكرا هيئتي وصوتي ولهجة كلامي بحيث
يعز على والدى معرفتي بتلك الحالة ، وكنت أجتمع بالناس في
المجالس وعلى الطعام من غير مبالاة لعلمي أنهم لا يهتدون
لمعرفتي بهذه الصورة » ^(٤) .

(١) آثار إبراهيم باشا أدهم مدير العربية فتنه بططا والحلة الكرى وأشعلها
إبراهيم توفيق الترحمان بدمهور وكان السيد العمى الكميتي ينفق سحاء على
عملاء الحيانة ويشري الفتن فقد كانوا مراكز الرجيع والاستعمار كما يقول النديم
في تاريخ مصر ص ٧٥ ، ٧٨ .

(٢) انظر المار ج ٧ ص ٨٣٢ - ٨٣٥ .

(٣) أنكر النديم في محضر التحقيق حين قبض عليه معرفة المنشاوي باشا
بشخصيته حين نزل ضيفا عنده . وقد فعل ذلك مع كل من آوود حتى لا يصيبهم
يضرر .

(٤) الأستاذ ص ٩ .

كان مجلس المنشاوى باشا مجلس علم وأدب يؤمه الأدباء والعلماء والشعراء ومن بينهم الأديب محمد التسيى صديق الديق . وبدأ الشيخ « على اليمى » يأخذ مكانه بينهم ، يناقش العلماء وينظر الأدباء ويتغنى بالشعر مع الشعراء ، ومع رواد المجلس أخذ صيته ينتشر وشهرته تذيب حتى وصلت القاهرة يقول الديق : « وفل أخبارى الى رياض باشا رئيس الوزراء الشيخ سعد زغلول ^(١) ، والجوهرى المنشاوى وبسيونى بك المنشاوى وغيرهم ، كما كانوا يحدثون عثمان باشا ماهر وحسام الدين باشا ، وجاءنى الشيخ سعد يسألنى عن أشياء على لسان دولة رياض باشا منها المثل اليمى المشهور (يعلّه الورشان يأكل رطب المشان) ^(٢) وكان رياض باشا قد قرأه فى جريدة ولم يفهمه ، فكتبت له جواب ما سأل » ^(٣) .

وقضى الديق فى ضيافة المنشاوى نحو خمسة شهور تزوج خلالها بزوجه الثالثة بنت مصطفى منى من أهل المحلة الكبرى ^(٤) ، ثم رحل من القرشية زاعما التوجه الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، لكنه كر راجعا متخفيا فى زى أهل

١١- رئيس الوزراء فيما بعد وقائد الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ . كان الشيخ سعد وقدك محررا بالوقائع المصرية .

١٢- الورشان : طائر يتبه الحمام ؛ والناس نوع من أجود السم ، وأصله من حماته عهدوا الى حادهم لهم أن يحفظ تمرهم ، فكان يأكل رطبه ويزعم أن الورشان أكله ، فليل المثل . وهو يضرب لمن يظهر شيئا والمراد منه شىء آخر .
(٢) الأستاذ ص ٩ .

(٤) تراجم أعيان ص ٢١ - المعظم ٦ ، ٧ / ١٠ / ١٨٩١ .

المغرب وادعى أنه من أهلها وسمى نفسه « سى الحاج على المغربي » ونزل ضيفا على صديقه الشاعر محمد التيسى وأقام عنده شهرا ، ثم انتقل الى الدلمون إحدى قرى مديرية البحيرة ، ومكث بها أسبوعا ، ثم قصد البكاتوش^(١) وكان يقيم فيها تارة عند عمدتها الشيخ ابراهيم حرفوش أحد أنصار الوطنيين ، وتارة أخرى عند جاره أحمد جودة الذى أصبح دليله فى الليل يصحبه اذا أراد الانتقال من بلد الى آخر ، وينجشم معه السير فى أضيق المسالك فقد كان رجلا فوى الجنان لا يبالى بظلام الليل أتى سار فيه .

جعل النديم اقامته بين البكاتوش وشباس الشهداء ، ينزل فيها عند محمد معبد الحلاق فيلقى عنده من الكرم والمروءة ما لقيه ابراهيم بن المهدي مدة اختفائه من الخليفة المأمون عند حلاق بغداد . ثم انتقل عند صديقه الأديب الشاعر محمد شكرى المكي^(٢) وكان وقتذاك كاتب مركز دسوق ، ويروى المؤرخ أحمد باشا تيمور^(٣) قصة اتصال النديم بمحمد شكرى على لسان شكرى نفسه وكان صديقا له أيضا فيقول : « بينا أنا بالمرکز يوما اذ دخل على الشيخ ابراهيم حرفوش عمدة البكاتوش فسلم وجلس ، ولمحت منه أنه يريد أن يسر الى أمرا ، فترقب خلو المكان ثم أخبرنى أن شخصا عنده مشتاق

(١) غربية .

(٢) انظر تراجم اعيان ص ٢١ .

(٣) فى كتابه تراجم اعيان ص ٢١ - ٢٢ .

الىّ وهو صديق لى لم يرني منذ ثمانى سنوات ، فاستخبرته
عنه فانصرف ولم يخبرني به ، ثم صار يتردد علىّ بعد ذلك
يذاكرني في هذا الصديق ولا يبوح بأسسه حتى وثق منى
فأخبرني أنه مخنف واسه الأول عبد الله ، فقلت له لعله عبد الله
النديم ، فقال : نعم هو ، فكتبت له بيتين من نظمي وسألته
توصيلهما اليه وهما :

ولقد نذرت اذا لقيتك سالما
لأقبلن مواطىء الأقدام
ولأئين على سجياك التى
حشت على التحرير والاقدام

فذهب بهما وعاد لى بعد يومين بقصيدة من نظم (النديم)
بخطه عدتها ١٠٠ بيت من البحر والقافية ، يتشوق فيها الىّ ،
ويذكر ما لاقاه أيام الثورة والاختفاء ويتمنى لو فرج الله عنه
فيفعل كيت وكيت . وكأنه نسى نفسه وما هو فيه من الضيق ،
فكتبت له أبيتا أطلب الاجتماع به ، وبعد أسبوع حضر لى
ابراهيم حرفوش ومعه ورقة بخطه (النديم) يطلبني فيها اليه
يوم الجمعة بشباس الشهداء فذهبت في الموعد ، فوجدت محمد
معيد الحلاق ينتظرني فذهب بى الى داره وهى دار صغيرة على
تل ، وقد نزل النديم في مكان عال لا سلم له ، فصعدت اليه على
سلم من الخشب رفعوه بعد صعودى ، فلما التقينا ووقعت
العين على العين تعاقتا طويلا ، وأدركتنى عليه شفقة فقبت
يده ، ثم جلسنا نتحدث في القديم والحديث ، وأطلعنى على

كتبه التى ألفتها مدة الاختفاء منها بديعية له شرحها شرحا لطيفا لم يكمله وثلاثة دواوين من نظمه وجزء من « كان ويكون » ثم فارقه وقت العصر^(١) .

ان الحذر الشديد والحيلة الكاملة التى أحيط بها اتصال النديم بمحمد شكرى لتعطينا فكرة واضحة عن طريقة الجهاز المشرف على اخفاء النديم فى اختيار الأصدقاء ، والاخبار الدقيق الذى يتعرض له هؤلاء الأصدقاء لاختيار الصادق الصدوق منهم وضمه للجهاز .

انتقل النديم بعد زيارة صديقه محمد شكرى له الى داره بدسوق متذكرا فى زى حجازى ، على أنه ابن عم له جاءه زائرا من الحجاز ، ولحقت به زوجته هناك وعاش فترة فى كنف صديقه الأديب ثم انتقل الى « بريئة المندرة » قبل أن تلاحقه ظنون الناس وشكوكهم . وفى « بريئة المندرة » كان يسكن وزوجته دارا وسط الحقول وحدهما لا يشاركهما فيها أنيس أو أليف ، وكان أقرب بيت اليهما على مسيرة نصف ساعة . أما خادمه وزوجته فكانا يقيمان فى قرية « الجميزة » ، وكان النديم قد جعل لهما راتبا شهريا يعيشان منه^(٢) .

كانت الفترة التى اختفى فيها النديم فى « بريئة المندرة » فترة فاقة واملاق لاقى فيها من ألوان الحاجة والحرمان ما يصفه

(١) تراجع أميان ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) انظر الأستاذ ص ٢٢١ ، ٢٢٥ .

بقوله : « جفت أيدي الناس فهي لا ترشح ، وانقطع رشاء الأمل فبأية دلو أنضح ، كثرت الأراجيف فخافوا البأس ، وطال الزمن فداخلهم اليأس ، ومن الاخوان من لا يعلم بمكاني ، ولو اهتدى اليه لواساني . ومنهم من يساعد غيري من رجال الشدة ، وحاط به من ذوى الحاجة عدة ، ومنهم من له همة واليد قصيرة من حالته العسيرة . أفتراني أسأل الأندال ، ولو شربت الأجاج وطعمت الرمال ؟ لا والله فان بين جنبى نفسا آية ، وعفة عريية . ويمنع كل فاطمي من نظر الغير بالحدقة (أثنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة) » ^(١) . وجاءه خادمه وقد أقبل عيد الأضحى « ولم يبق — كما يقول النديم — عندنا حبوب ولا أدام ولا تهود ، وثياب الجميع صارت خلقة ، وصرنا في ضيق معاشي شديد ... جاءني وأخبرني بما هو فيه من الحاجة وقدم العيد عليه ، فأخذت أفكر في الاخوان وملهم من طول المدة ، وربما داخلهم اليأس من تفريق هذا الكرب فعدلت عن ارساله الى أحد منهم ، وأخذ خُرجه وعاد بخفي حنين » .

وجاء الشيخ العالم الأزهرى الى « بريّة المنذرة » ليطمئن على النديم في تختبئه الجديد ، وتذاكر مع النديم فيما هو فيه من الشدة والضنك فذكره بصديق له شريف ادريسى وحين أبدى النديم تردده فى الكتابة اليه شجعه الشيخ وأخبره بأنه يعلم أن هذا الشريف يود مساعدته لو يعرف مكانه ، ويجب ألا يشاركه أحد فى رعاية شأنه « وظل — كما يقول النديم —

(١) الاستاد ص ٢٢١ .

حتى حركنى لكتابة رسالة اليه وسلمتها له فلم يغب أكثر من يومين وجاءنا القمح والذرة والعسل والسن والجبن والشيت والبفتة والنقود حتى القصب واليوسفى ، وامتلأت الدار علينا خيرا ... وبعث أيضا الحرير والأطلس للباس الحرم ... وبعث لتابعى ما يلزم ... ، وتيقنت أنى كنت مخطئا فيما فهمته من ملل الاخوان ، فقد توالى صلاتهم بعد ذلك « (١) .

واستقر به المقام فى « بريئة المدرة » وتبدلت الرسائل بينه وبين اخوانه وأصدقائه من جديد ، ومن رسالة له فى هذه الفترة الى صديقه ذلك الشريف الاديسى نستطيع ان نعرف عدد مؤلفات النديم الذى شغل بكتابتها وقت فراغه - وقد مضى على اختفائه ثمانى سنوات - ونعرف أيضا الفلسفة خاصة التى استعان بها ليتحمل طول مدة الاختفاء ومحتتها وأزماتها . كتب النديم يقول :

« ان سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ، لا أشغل فكرى بما يأتى به الليل اذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار . ولا تألم من طول المدة ووسع الشدة ؛ لاعتقادى أن لكل شدة مدة متى انتهت جفت الأوجال وحسنت الحال ؛ فترانى فكرى كليى ، وقلسى نديمى أستودعه ما فى الصدور ، فيحفظه فى السطور ، ثم يرده على كتابا ؛ لم يجسع الا صوابا . فأعود اليه بالنظر ، لترويح الفكر ، فتارة أشغل بكتابة فصول فى علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل

نسنة ، بما تعظم بها لله المنة ، وحينما أشتغل بنظم فرائد ، في
 سورة قصائد ، ووقتا أكتب رسائل مؤتلفة ، في فنون مختلفة ،
 وآونة أكتب في التصوف والسلوك ، وسير الأخبار والملوك ،
 وزمن أكتب في العادات والأخلاق ، وجغرافية الآفاق ، ومرة
 أطوف الأكوان على سفينة تاريخ الزمان ، ويوما أشتغل بشرح
 أنواع البديع في مدح الشفيح ... وقد تم لى الآن عشرون مؤلفا
 بين صغير وكبير ؛ فانظر الى آثار رحمة الله اللطيف الخبير .
 كيف جعل أيام المحنة ، وسيلة للنسحة والمنة . أترانى كنت
 أكتب هذه العلوم فى ذلك الوقت المعلوم ، وكنت أشتغل من
 مرضعة اثنين وفى حجرها ثالث وعلى كنفها رابع ، وأتعب من
 مربى عشرة وليس له تابع ، أشتغل بعض النهار بتحرير
 الجرنال ، وأقضى ليلى فى دراسة الأحوال ، مشغلا بمجالس
 الجسبات الخيرية ومدارسها التعليمية ، وزيارة الاخوان ،
 ومرفهة أبناء الزمان ، وقد نسيت الأهل والعيلة ، وربما نسيت
 الضعام يوما وليلة . فكنت كآلة يحركها البخار ، لا سكون لها
 ما دام الماء والنار . فمتى كنت أنظر للمخلفات وأكتب هذه
 المؤلفات ؟

ولو أن نار مصيبتى فى الغير أصلاه الزفير
 لكنها فى ساحة من فوقها جو مطير
 هو صدق إيمانى وصبرى للقضاء بلا نكير
 ووقوف جيش عزيمتى فى باب مولاى البصير (١)

الوشاية عجلت بالنهاية

أمضى النديم في « برية المندرة » ما شاء الله له أن يمضي فيها ثم عاد الى « البكاتوش » ولحقت به زوجته هناك وكانت زوجته هذه تسمى اليه وتغاضبه فجعلت عليه مع محنة الاختفاء سوء المعاشرة ، وضاق بها ذرعا مرة وهمم أن يظهر نفسه للحكومة ، ثم تراجع وأصلح أمره معها ^(١) ولعلها كانت هي الأخرى تضيق بالاختفاء والوحدة والسكون من حولها ، وتتوق الى معايشرة الناس دون خوف أو رهبة ولذلك طلبت اليه أن تذهب لزيارة زوجة خادمه « بالجميزة » فأذن لها ، وما ان استقر بها المقام هناك حتى تشاحنت الزوجتان وكاد يفتضح امرهنا ، فأسرع الخادم الى سيده « بالبكاتوش » مستغيثا ، فانتقل النديم الى « الجميزة » ليصلح ذات الين بينهما . ذهب متكرا تحت اسم الشيخ ابراهيم الشهاوى ^(٢) وذلك في ١٢ ذى الحجة ١٣٠٨ هـ « وبقي هناك نحو شهرين فاستأنس وطاب له المقام ، وعرفه عمدة البلدة وأعجبه حديثه فتغاضى عنه وكتم أمره ، فكان يخرج للتنزه دون تنكر على غير عادته في الاختفاء . يلتفت حوله العمدة وبعض الناس من البلدة وهو يقرء لهم ويعظهم ويسامرهم وهم مبتهجون به » ^(٣) .

(١) تراجع اعيان ص ٢٣ .

(٢) المقطم : محضر التحقيق ١٠/١٠/١٨٩١ .

(٣) تراجع اعيان ص ٢٣ - ٢٤ .

وفى « الجيزة » التى نزلها النديم كان يقطن رجل يسمى حسن الفراجى ، وكان قبل أن يحال الى المعاش من جنود البوليس السرى الذبن اشتركوا فى الحملة التى كانت تبحت عن النديم . وكان للفراجى هذا حفل خارج القرية ذهب اليه يود ليرعى شئونه فوجد رجلا يقرأ فى كتاب وقد جلس معه مآذون القرية ، ورجلا ثالثا — هو خادمه — يجلس بعيدا عنهما . وحين اقرب الفراجى من الجسع غطى الذى يقرأ وجهه بضرف توبه ، فاشتبه الجاسوس السابق فيه ودنا من الخادم وسأله عن الرجل فلم يزد عن قوله : انه شيخ جاء ليقرا العلم فى هذا المكان وأخذ يتهرب من أسئلة المخبر مما جعل الشك يتزايد فى قلبه ، فأخذ يقرب النديم كل يوم على البعد حتى تأكد لديه — من خبرته السابقة — أنه شخصية كبيرة هاربة من الحكومة ، فتقدم الى المعية السنية بعريضة ذكر فيها ما رأى ، وادعى فيها أن الهارب من العربيين وزودته المعية السنية بصورة النديم وهو الزعيم الذى لم تصل أيديهم اليه فعاد وجلس الى حلقة الدرس ، وأظهر إعجابه بالشيخ وعلمه ، وظل يتحقق عن قرب من ملامحه التى تغيرت مع الزمن حتى تأكد أن الشيخ ليس الا النديم ، وسارع الرجل الى القاهرة وفى نفسه الآمال والأحلام نراوده فهو يعلم أيام أن كان بوليسا سريا أن الحكومة رصدت ألف جنيه مكافأة لمن يدلها على النديم ، وقابل الرجل المسؤولين بالقصر الخديوى ، وأنهى اليهم معلوماته واكتشافه ^(١) ، وكتب

(١) المقطع محصر التحفيق ١/١٠/١٨٩١ .

عريضه يطلب فيها الألف جنيه قيسة المكافأة وأحيلت العريضة الى وزارة الداخلية ، غير أن الواشى لم يجد جزاء وشائنه بالنديم سوى خيبة الأمل ، فقد كانت المكافأة موقوتة بعام واحد واليوم قد مضى على اختفاء النديم أكثر من تسع سنون وحين تبين لأهل « الجميزة » فيسا بعد وشائته بالنديم قضيعة فعاش مكروها منبوذا وحيدا طوال حياته وتبرأ منه أهله وذووه !!! وضاعت المكافأة وضاع معها شرف الرجل وسعته بين المصريين !!

صدرت الأوامر بالقبض على النديم ، وكلف وكيل حكسدار الغربية بالقبض عليه ، فتكر في زى تاجر من تجار القطن ، وذهب الى الجميزة في ٢ أكتوبر ١٨٩١ ليلا على رأس فرقة من الجنود طوقت القرية . وطلب وكيل الحكسدار من العسدة أن يدلهم على البيت الذى يقطنه الشيخ ابراهيم الشهاوى فأنكر وجود هذا الاسم في قريته ، واستعان البوليس بالفرارجى فدلهم عليه ، وأحس النديم بالحركة غير العادية خارج الدار فأوجس في نفسه خيفة وأراد الانتقال الى دار أخرى : وحين صعد الى سطح المنزل صوب اليه الجنود بنادقهم من الدور المجاورة ، وأسقط في يد الهارب الذكى وتخلى عنه الحظ في هذه المرة وتيقن أنه مقبوض عليه لا محالة فعاد أدراجه ونزل وفتح باب الدار وواجه البوليس في جلد وشجاعة وسلم نفسه . ويخبرنا النديم عما حدث له فيقول : « وعندما دلت الحكومة على لم تبعث رجلا فظا للقبض على ، بل بعثت رجلا

مهذباً هو محمد افندى فريد وكيل حكمدارية الغربية اذ ذاك ، فاشند فى أول الأمر ، وأراد أن يكتفى فلما ذكرته بأنى مذهب سياسى لا مجرم جنائى انصاع لأفكارى ، وتلفظ بى وتساهل معى ، ومكننى من دخول البيت لألبس ثيابى ، وأوصى أهل البيت بما يفعلون بعد توجهى . » وقبض أيضاً على خادم النديم وفرح وكيل الحكمدار بصيده الثمين وأعجلته الفرحة عن أن يدخل المنزل ويصادر كتب النديم التى ألفها وقت الاختفاء وكان ذلك لطف من الله بالنديم فقد حوت هذه الكتب من الهجاء القذع للخديو توفيق والانجليز ما يجلب عليها الحزى والعار ويجلب له العقاب الشديد .

وصل النديم مقبوضاً عليه الى مركز السنطة ولم يوضع فى السجن بل فى حجرة خاصة . وبدأ البوليس فى استجواب خادم النديم أولاً ، واستعملت معه وسائل العنف مما اضطره الى الاقرار ببعض أسماء من آووا النديم وأكرموه فى الاختفاء . وفى آخر الليل استجوب النديم ، وحاول وكيل الحكمدار أن يعترف النديم بأن أحدا ممن ذكرهم خادمه كان يعرف حقيقته ، ولكن محاولاته ذهبت سدى ، وأكد له عدم معرفة واحد منهم ذلك^(١) .

وفى صباح اليوم التالى نقل النديم الى طنطا لتجرى النيابة معه تحقيقاً ، وكان رئيسها اذ ذاك قاسم افندى أمين^(٢) فعرفه .

(١) انظر الأستاذ ص ٧ ، وأيضاً تراجم أعيان ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) رعيم النهضة لتحرير المرأة فى مصر ١٨٦٥ - ١٩٠٨ .

للنديم قدره ، و يروى النديم ما جرى بينه وبين قاسم أمين
فيقول :

« أنت حر في كلامك فقل ما شئت . فلم يسمع منى أن
أحدا من الناس آوإلى على أنى عبد الله النديم المطلوب
للحكومة ؛ بل قلت : انى كنت أدخل البيت بدعوى أدعيها ،
وأخرج خوفا من تفرس صاحب البيت فى وقبضه على^(١) .
واحتجزت نيابة طنطا النديم حتى تقرر مصيره الجهات
العليا فى القاهرة وقبض على الذين أدلى خادم النديم بأسمائهم
واعترف بأنهم آووه وساعدوه فى الاختفاء ، وأودعوا السجن
جميعا^(٢) . أما زوجة النديم فقد أرسلت الى أهلها بالمحلة
الكبرى^(٣) .



أحدث القبض على عبد الله النديم خطيب الثورة العربية ،
وأحد زعمائها الذين طبقت شهرتهم آفاق العالم العربى
والاسلامى دويا فى الصحافة والمجتمع وشغل الدوائر
الحكومية والانجليزية . بدأت الصحافة تكتب مطالبة بالعفو
عنه حتى ينتفع الميدان الصحفى بعقيرته الصحفية . وعادت
الذكرى الى قلوب المصريين ؛ ذكرى الثورة التى كانت تبغى

(١) الاستاذ ص ٨ .

(٢) القطم ١٨١١/١٠/٥ .

(٣) المرجع السابق ١٨١١/١٠/٦ .

لمصر الاستقلال ولهم الحرية والكرامة ؛ ذكرى خطب النديم وهو يحض الناس على تأييد الوطنيين ليرفعوا من شأن مصر بتهم أمام الأتراك والأجانب ، ثم وهو يكي الوطن ويندبه أنام الحرب . ويلهب ظهور الناس بكلماته لينفروا خفافا وثقالا ويجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . وكثر حديث الناس في مجاسمهم وفي مجتمعاتهم ومقر أعمالهم حول الماضي والحاضر ؛ حول الماضي وما كان فيه من آمال والحاضر الذي يصمه بالذلة جيوش الاحتلال . وكان الشعب يفتن بالذكرى ويعيدها جذعا ، ومن ثم سارع مجلس الوزراء ووالى اجتماعاته ليقرر مصير النديم ^(١) « واشتعلت نيران الأفكار وكثرت الظنون - كما

يقول النديم - واختلفت الآراء ، ولم يبق ذو روح في الديار الحرة الا وهو يهجم ويخمن بما سيكون من شأني ، وكان العصب أقرب عند الجمهور من السلامة ، وبينما هم في حيص بيص فاجأهم الأمر بسفري الى الأفطار الشامية ممتعا بحياتي منسوحا مادة معاشي ^(٢) » قرر مجلس الوزراء برئاسة

عبد الرحمن باشا رشدي في جلسته المنعقدة في ١٢ أكتوبر ١٨٩١ ابعاد النديم الى الشام ، والافراج عن جميع الذين قبض عليهم وسجنوا بتهمة معاونته على الاختفاء . ومنح النديم ١٥٠ جنيهها ليستعين بها في منفاه على شؤون الحياة ^(٣) .

(١) القلم ١٠/٧/١٨٩١ .

(٢) الأستاذ ص ٤ .

(٣) القلم ١٢ ، ١٥ ، ١٠/١٨٩١ .

عوامل النجاح فى الاختفاء

من العجيب حقا أن يمضى النديم أكثر من تسع سنوات مختفيا فى البلاد دون أن تكتشف الحكومة أمره رغم الجهود الكبيرة التى بذلتها فى سبيل ذلك ورغم الحشود من جنودها السرية والعنلية التى رصدتها للبحث عنه والقبض عليه . ومن الغريب أيضا أن يتحمل النديم ما لاقاه أثناء اختفائه من النوائب والمحن دون أن ينوء تحت كلكها ودون أن يضعف أو يستسلم . فالنديم نفسه عجيبة من أعاجيب الدهر ، فهو شخصية فريدة فى كل أطوارها أو هو الذى يقال عنه نسيج وحده . غير أن هناك عوامل ساعدت النديم على نجاحه فى الاختفاء ما يقرب من العقد من الزمان .

من ذلك شدة حذره ومهارته فى التنكر ، واثقانه لما يسعى ، فكان كلما انتقل من مكان الى آخر غيّر زيه واسمه . فتارة كان يبخر لحيته بالكبريت الى أن تبيض فاذا ما جاء الليل غسلها ، وتارة أخرى يخفضها بالخناء حتى تحمر ، ومرة يطيلها ، وأخرى يقصرها ، وحينما يجعل نفسه مغريا وآخر يمينيا وثالثا حجازيا ، وقد بلغت الأسماء التى اتخذها أكثر من عشرة . منها : يوسف المدنى ومحمد الفيومى وعلى اليمنى ، ومسى الحاج على المغربى ، والسبكى والعزّى والناجى والمصرى والشرقاوى والنجدى . وكان يتكلم بلهجة أهل كل منطقة

ينتسب اليها كى توافق الاسم الذى يدعيه ^(١) فكان « وكأنه
قل عن أبى زيد السروجى حيله ^(٢) » .

ومن ذلك حسن حديثه ولطف مسامراته مما جعل الناس
يتعلقون به ويتسابقون لمساعدته « ولا غرو فقد كان له من
حلاوة الملقى وبلاغة القول وذلاقة اللسان ما لا يستغرب فى
جانبه ، فتلك خاصية طبيعية فيه جذبت اليه القلوب كما يجذب
المغناطيس الحديد ، فلم يبال أحد من أولئك المفضلين بما كان
يتهدده فى هذا السبيل الشاق من الحبس أو التشريد أو غيرهما
من أنواع العقوبات التى فرضتها الحكومة على من أخفاه ^(٣) »
ويقول عنه أحمد تيمور « كان شهى الحديث حلو الفكاهة ، اذا
أوجز ودء المحدث أنه لم يوجز . لقيته مرة فرأيت فيه رجلا فى
ذكاء اياس وفصاحة سحبان » .

ومن ذلك ما أخذ به نفسه من الصبر والجلد على مشقات
الاختفاء ومن قوة العزيمة التى غالبت الآلام النفسية والحسية
التي مر بها فى الفترات العسيرة فترات الخوف والترقب والجوع
والحاجة . ومن فلسفته الخاصة بتعليل ما يحدث له وفقا للقضاء
والقدر ، واعتقاده بأن لكل شدة أجل ثم يأتى الفرج وفى ذلك
يقول من رسالة كتبها الى صديق وهو فى « برية المندرة » .
فما هذه العوارض الا رسوم ، وما منا الا له قدر معلوم ،

(١) انظر الاستاذ ص ٧ ، ٩ .

(٢) سلافة النديم ص ١٤ .

(٣) سلافة النديم ص ١٤ .

وما اختار الله للصائب الا الرجال ، ولا يثبت لانهمار الغيث
الا الجبال . والشدة ان صوتت بجعلها ، وحلت بكلكلها ماذا
عسى أن يكون مما تتخيله الظنون ؟ أليس الأمر يرجع الى موت
أو حياة ، وهذا لا يملكهما الا الله . وقد فرغ من تقدير الأشياء
قبل خلق المبيبات والأسباب « ما أصاب من مصيبة في
الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب » ... وان سألت عنى فأنا
بخير وعافية ، وحالة راقئة صافية ، بستانى قاعتى ، وفكرى في
ساعتى — وكنت قد أرسلتها الى هذا الصديق لاصلاحها —
لا أجيله فيما يأتى به الليل اذا كنت في النهار ، ولا أشغل
ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار . ولا أتألم من طول المدة ،
ووقع الشدة فاعتقادي أن الذوات مسيرة ، والعمر في الأمكنة
والأزمنة المقدرة . ولكل شدة مدة متى انتهت جفت الأحوال
وحسنت الحال ...

وبعد فهذا شرح حالة غائب
عليه من اللطف الخفى ستور
تدور به الأهوال حول مدارها
فيصبر والقلب الرضى صبور
عسى فرج يأتى به الله انه
على فرجى دون الأنام قدیر (١)
وحين لجت الصحف الاستعمارية بعد اختفائه في المطالبة

(١) الاستاذ ص ٣١٨ — ٣٢٠ .

بالبحث عنه ونسبت اليه ما هو براء منه كتب الى صديقه الشيخ مصطفى يقول :

« أما فتى بالله تعالى فانها أكبر وأعظم من خطوبى وكروبى ، ولذا ترانى غير مكترث بما أراه فى الجرائد من شدة البحث على ... لعلمى أنه لا يقع الا ما يريد الله تعالى ، وأن العبيد لا يمكنهم أن يحدثوا فى الكون ذرة ، أو يغيروا شيئاً من مراده تعالى . فكل عوارضى الدنيوية التى تتوارد على الى مأتى مقدره أزلا لا تقبل التغير ، فالتفكير فى مستقبل أى شىء هو من قبيل العبث وبهذا استرحنت من اشتغال الفكر وتوارد الهواجس^(١) . ومن العوامل التى ساعدت النديم على نجاحه فى الاختفاء أنه لم يترك نفسه تنهشها ضباغ الفراغ فقد شغل نفسه بالتأليف . كتب فى الاختفاء الرسائل الأدبية المطولة لأصدقائه ونظم الشعر ، وألف عشرين كتابا بين صغير وكبير .

ومن هذه العوامل أيضا أمله الكبير فى أن تثور الأمة على الاحتلال وتهدف به الى البحار ثم تدعو عرابيا يقودها من جديد الى الحرية والى استرداد مكائتها بين الأمم ، فظل يوالى رسائله الى عرابى فى منفاه بسيلاذ يكتبها باسم مستعار ويث فيها آماله الكبار وآمال الأمة فى زعيمها المنفى . وكان النديم حريصا كل الحرص على ألا تؤثر الهزيمة فى نفس عرابى فتحطم معنوياته ، خاصة وهو فى المنفى البعيد لاتصله الحقائق عن شعور

(١) كان ويكون ج ١ ص ٢١١ .

البلاد نحوه فكان يكتب اليه بما يبعث في نفسه بالثقة ويقوى
منه العزم . فلسف له الهزيمة فقال :

« ... الغلبة متنوعة للغزاة والمتطوعة ، فليست قاصرة على
الظفر بالعدو ودفع الهرج بالهدوء ، بل قد تكون الهزيمة لتقوية
العزيمة ، وزيادة الاستبصار في الأحزاب والأنصار ، وتربية
الأفكار في مدرسة الإنكار — كما كانت الهيئة المصرية في
الحرب العراقية ... وما علينا في هزيمتنا بفعل الحائنين عار ،
بل من كسب سيئه وأحاطت به خطيئته فأولئك هم أصحاب
النار . وسيرهم الانجليز ضد ما كانوا يطلبون ، وسيعلم الذين
ظلموا أى منقلب ينقلبون .. »

ويكتب له عن الحقائق التي تكشف بعد أن ألفت الحرب
أوزارها ، وبعد أن زاد أعداء الأحرار فتونا بالهزيمة ، وأظهر
المنافقون تفاقهم بالاستسلام للعدو وكيف كان المخادعون
يؤمنون صفوف الأحرار وهم منطوون على سريرة الأشرار
فيقول :

« أخى وصديقى : قرأتَ تاريخ هذه الأمة ، وعلمت الأمور
المدلهمة ... فرأيت الأجنبي قد مد رجله في الصدور واستمال
القادة بالغرور فبسط يده على البلاد واسترقَّ أحرار العباد —
فلزمتَ الأفكار ، وتركت الأوطار ، وبعت نفسك لله لا للمظهر
ولا للجاه . وقام معك الأمراء والقادة والعلماء والسادة . وقام
أخوك (التديم) ينادى بلسانك وترجم عن جناك — فسرى
صوتنا في البلاد وتبته الناس من الرقاد ، وتبعنا من الوطن

أمشاج ، وتوارد علينا زمر وأفواج ، فكان لفيثنا العجيب على
هذا الترتيب :

مخلص أدرك ما قصدنا فقام يرصد ما رصدنا ومتردد حائر
مع التوازل دائر .

ومذبذب ان عظمت اللاواء لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء
ومناقق ينقل عنا والينا ويحمل معنا وعلينا . وعدو ينسب الينا
البلعة وينصب لنا شرك الخدعة .

وساذج يتحرك اذا نبه ويسكن اذا جبه ولكل قسم نية
ختم عليها الطوية . فالمخلصون أولئك الذين صدقوا ، وبالحق
نطقوا ، وبالله استعانوا فما ضعفوا وما استكانوا » .

ويكتب اليه ملتمسا العذر في الهزيمة بعد أن أبلى بلاء حسنا
ويلقى اللوم على الذين باعوا وطنهم ومواطنيهم بالرشوة
وبالطمع في المناصب^(١) ويضرب له الأمثلة بالقواد الذين هزموا
في الحروب والدول الكبرى التي قهرها العدو ، ثم يطلب اليه أن
يعد نفسه لليوم الأكبر يوم أن يخرج المحتل من أرض الوطن
ذليلا ويعود اليها قائدها منتصرا فيقول :

« ... فأمامك مستقبل أنت عصامه يجمع فريقا أنت امامه ،
وادرس أحوال مصر في المدرسة التي أسستها فما كنا فيه كانت
مدرسة ابتدائية ونحن الآن في التجهيزية وسندخل ان شاء الله .

(١) كان على رأسهم من المدنيين محمد سلطان وعمر لطفي والسيد الفقي
وابراهيم آدم ، ومن العسكريين على يوسف واحمد مبد الفقار وعبد الرحمن
حسن وعبد الرازق نطفي .

المدرسة العليا يوم تنادى لك الدنيا . وما هذه رجوم ولا شوارد فهم ولكنها حقائق معلومة ، وفي لوح القضاء مرسومة ، عرفها أهل البصائر ، وعمى عنها سوء الضمائر ، وقد تناولت الأعناق ، بعظيم الاشتياق الى ذلك الميقات وكل ما هو آت آت ^(١) ...

وفي رسالة أخرى يشرح النديم فيها محبة الشعب له ووفاءه لمبادئه :

« ... ان حال الأحرار بعد النفي والأضرار ، قد فتح الله أبصارهم فتبصروا ، وصفى بصائرهم فتتوروا وسقام شراب المحبة فائتلفوا ، وهداهم الصراط المستقيم فما اختلفوا . واذا قيل للواحد منهم هذا عرابي المشرب ، فرح كأنه فتح له مطلب . ألسنتهم رطبة بذكرك ، ومحافلهم مملأ بشكرك ، وقد زاد محبوبك ، ممن كانوا أبغضوك ، عندما رأوا فساد أحوالهم وانعكاس آمالهم ، فهم أشد شوقا اليك ممن كانوا يجتمعون اليك . واذا أتى منك كتاب الى بعض الأجباب دار به على الاخسوان وهو فرحان . فأنت في مصر وان كان جيسك في سيلان فذكرك في الألسن ورسمك في الأعيان ... وبالجمله فقد جعلوك قطبا عليه سعودهم يدور والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ^(٢) » .

وحتى على البعد والنديم يقاسى من محن الاختفاء وعذاب

(١) ملكرات النديم ص ٨٢

(٢) ملكرات النديم ص ٩٠

الوحدة ، وعرابى يعانى من مرارة النفى والبعد عن الأهل والوطن ، ظل النديم يباشر مهمته كداعية لعرابى ومبادئه ومستشار له . يكتب اليه فى خطابه برأيه ومشورته فيما يعن للزعيم فى منفاه من مشكلات ويخبره بأحوال مصر بعد الاحتلال واضطهاد أنصار الحركة الوطنية ، ثم خيبة أمل أذئاب الحديو وعملاء الرجعية بعد أن سلب الانجليز السلطة منهم .

وحين وقع خلاف بين عرابى وزعماء الحركة الوطنية فى المنفى كتب اليه النديم يشير عليه أن يترفق بزملائه وأن يكون واسع الصدر لأنه الزعيم وأن يتراعى حالتهم النفسية بعد طول النفى والتشريد .

ولما اشتد الخلاف بين الزعماء فى سيلان وتسرب أمر شقاقهم الى الصحف الاستعمارية وشنت عليهم حملة شعواء ووصفت ثورتهم بأنها استهدفت أطماعا شخصية ولم يكن رائدها الوطنية . وتعرضت الى ما يحدث بينهم من تفور وصل الى حد القطيعة والتراشق بالتهم ، سارع النديم فكتب الى الزعماء جميعا فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم : ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . كلا فانهم فى بحار الفتنة سابحون ... اخوانى الوزراء وأحبابى الأمراء منهم محمود العواقب وسامى المراتب ^(١) ، ومنهم على الشان محب الجنان ^(٢) ، ومنهم

(١) يشير الى محمود سامى البارودى .

(٢) يشير الى على فهمى .

محمود السيرة بالهمة الكبيرة^(١) ومنهم يعقوب الأمل رجل العمل^(٢) ومنهم عبد العال وأحد الرجال^(٣)، ومنهم طلبة الخير البعيد عن الضير^(٤) . ذكركم بين الأحاباب جميل وقدركم عند العقلاء جليل . فان بعض الناس انحرف عنكم وظن أن الغدر قد وقع منكم^(٥) ، فلما انكشفت عن الحقيقة الستور ، وظهرت خفايا الأمور^(٦) أشفق عليكم العدو قبل الحبيب وحن اليكم الوطني والغريب وقد اشتغلت بعودتكم الأفكار وتوجهت اليكم الأنظار . فاذا لم تكن عهدكم وثيقة ورابطة جمعكم أنيقة وعدتم الى الديار على التباعد والنفار ، ساءت بكم الظنون . ومالت عنكم القلوب والعيون ، وصرتم عرضة للدسائس ومرجعا لأهل الحسائس ، وذكركم المؤرخون بالنقائص وجردوكم من الفضل والخصائص ، وأنكرت أوروبا دعوتكم الوطنية ، وتبجح عدوكم بنسبة الهمجية ، وأعيذكم وكل آية من وصولكم لهذه الغاية ؛ فائتلفوا قبل الاياب واقتلوا الضغائن بالعتاب .

(١) يشير الى محمود فهمي .

(٢) يشير الى يعقوب سامي .

(٣) يشير الى عبد العال حلمي .

(٤) يشير الى طلبة عصمت .

(٥) يشير الى من ادعى أن هزيمة التل الكبير كانت بسبب عرابي وقواد جنوده وعدم خبراتهم الحربية وهربهم من المعركة .

(٦) يشير الى اكتشاف الحياة التي كانت السبب في هزيمة المصريين في المعركة وعلى رأسها علي يوسف وأحمد عبد الغفار ومبد الرائق نظمي .

« ولست ممن يرجون عودتكم لغاية يرجونها ودنيا يصيبونها . كلا . فانكم تعلمون ما كنت عليه ومذهبي الذي أميل اليه ، وقد كنت أدعو لكم بلا علة وأنشر عنكم كل فضيلة وخلة ، وأدعو لكم في الجرائد والمخاطب والأنداء وأحاطم عنكم الأجانب والمعارضين والأعداء .

« ودينى الذى فطرت عليه ومذهبي الذى أميل اليه هو تحرير العباد ، واصلاح البلاد ، واطهار مجد الدين وتأيد المؤمنين ، وكانت جريدتى تنشر بلا قيمة لتكون دعوتنا عميمة .

« ثم انى الآن فى حفظ ربى الأعظم وحماية جدى الأكرم أقلب على فراش النعمة لا ينالنى شئ من النعمة وكتبت كتباً عديدة ودونت أسفاراً بعيدة ولا أقول هذا منّا عليكم ولا لنسبة التقصير اليكم . بل لتأكدوا صدق عزمى ، وتحققوا بقائى على نيتى وتعلموا أنى أرجو عودتكم لكم وللبلاد لا لى ولا للأولاد فارجعوا الى الاخاء الحق والتزموا فى المودة الصدق ، ولا تسوّدو وجوهنا بين أهل مصر ، ولا تخجلونا أمام نبهاء العصر فانى أنشر عنكم من الأخبار ما لا يؤثر الا عن الأخيار من ألفة أكيدة ورابطة شديدة وإخاء لا ينحل ووفاء لا يختل .

« والمرجو من الحق تعالى تحقيق الأمل وحسن العمل فتردون علينا مؤتلفين كما رحلتم عنا متفقين يوم تسألون فى وطن عنه ارتحلتم فيقال لكم اهبطوا مصر فان لكم ما سألتكم ، وتعودون بالمظهر والجاه لا بغضب الله ، وتكونون كأخوة يوسف

الصدق عند اجتماع كل فريق ، وينادى فيكم نديم عند دخولكم مصر آمنين لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » (١) .

ومن عوامل نجاح النديم في الاختفاء هذه المدة الطويلة تنظيم الجهاز المشرف على خطة الاختفاء وحيلة أعضائه الشديدة والاختبار الدقيق لكل من ينضم اليهم ، وفوق ذلك السلطة الدينية الواسعة التي يتمتع بها الشيخ الصوفي شحاتة القصبي المستول الأول عن هذا التنظيم وكثرة أتباعه في البلاد .

ومن العوامل المهمة أيضا بل قد يكون أكثرها أهمية إيمان الفلاحين بالثورة العربية ، فقد كانت طاقة النور التي أمثلوا أن يتنفذ اليهم منها شعاع الحرية والحياة الكريمة ، وهى وان فشلت سياسيا الا أن عواطفهم ما زالت مع عرابى ، كانوا يؤمنون بأنه لم يهزم فى حرب شريفة وانما هزمته الحياة ، ولذلك جرى على لسانهم مثلا يقول : « الونس (٢) هزم عرابى » ، هذا الى جانب مروعة الأهالى التى تحتم عليهم وقد نزل الطريد بساحتهم وفى حماهم أن يخفوا أمره ، ويساعدوه على الاختفاء لا يخيفهم تهديد ولا يغريهم مال ، فلم يطمع أحد ممن عرف

(١) رسائل النديم الى عرابى وجلت مسودات خمس منها مخطوطة يدار الكتب وحققها الدكتور محمد خلف الله أحمد وطبعها ملحقة بكتاب « تاريخ مصر فى هذا العصر » الذى اطلق عليه المحقق اسم « عبد الله النديم ومذكراته - السياسية » عام ١٩٥٦ .
(٢) الحياة .

أمره — وأكثرهم فقراء — في المكافأة الضخمة التي رصدتها الحكومة لمن يدلى بمعلومات عنه ^(١)، ولم يكن له على أحد ممن آواه سابقة فضل ينتظر عليه أجرا أو مكافأة ، وإنما هي مكارم أخلاق وطيب عنصر ومحض شهامة خص الريفيون المصريون بها . ويصف النديم ما وجده لديهم أيام الاختفاء فيقول : « وقد وجدت من رجال الهم من يحفظون العهود والذمم ، ويقابلون الشدائد بالعزائم ، ولا ترجف فلوبهم بالعظائم ، فانها ممثلة بالإيمان ، سليمة من الخفقان ، ثابتة ثبوت رضوى ، حافظة للسر والنجوى ، ورأيت منهم كرما ينجل الكرماء ، ويقتل البخلاء ، ويهجر الشعراء ، ويذهل النظراء ، ومروءة بينها وبين غيرهم سدة ذى القرنين ، وبعد ما بين المشرقين ، نزلت بهم وأنا مطلوب متعقب ، خائف أترقب ، فأحلوني محل الأهل والأحباب ، وأسكنوني فيما تغلق دونه الأبواب ، وصبروا عند توالى الأكدار ، وثبتوا والعيون حول الدار » ^(٢) . وكان النديم يتمدح من آواه من الكرام كلما منحه له المقام فيقول عنهم في مكان آخر : « وقد رأيت من رجال المروءة والهم ما لم يكن في حسابي ، ولو حدثت بما هم عليه من الهمة والكرم قبل رؤيتهم في الشدة لوقع الحديث موقع الاستبعاد أو الاستغراب ، خصوصا وأن معظم من آووني

(١) كان ويكون من ١٧ - ١٨ ؛ تراجم اعيان من ١٩ .

(٢) الاستاذ من ٢١٨ - ٢١٩ .

لم يكن بينى وبينهم نسب ولا قرابة ولا سابقة صفة ، ولم
أدخل بلادهم قبل الاختفاء لغرض من الأغراض » (١) .



اختار النديم « يافا » من ثغور فلسطين مقرا له فى منفاه ،
فسافر إليها من ميناء الاسكندرية على صورة من التكريم
والاجلال ، وشيعة أهله ومحبيه من أهل الثغر وجمع غفير من
المواطنين ومحافظ الاسكندرية عثمان باشا عر في (٢) ، وقلت
الصحف والبرق خبر إبحار النديم الى « يافا » وحين وصل إليها
فى ١٢ ربيع أول ١٣٠٩ (١٥ / ١٠ / ١٨٩١) استقبله على الميناء
بالبشر والترحاب عدد كبير من العلماء والأدباء والوجوه
والأعيان ، ثم استضافه السيد على أبو المواهب (٣) مفتى يافا ،
وأقام النديم عنده شهرا ثم اتخذ لنفسه داراً منفردة أصبحت
ممتدى عاما لأدباء الثغر وعلمائه وأعيانه وفضلاته ، وصارت
نعقد فيها الجلسات العلمية والأدبية يمسك بزمامها النديم ويهر
جلساءه بمناقشاته وحلو حديثه (٤) .

ولم يلبث النديم طويلا حتى جاءه خبر وفاة الحديو توفيق .

(١) الاستاذ ص ٧ .

(٢) سلافة النديم ص ١٥ .

(٣) قيل ان عبد الله النديم دخل على السيد على أبو المواهب داره بيافا .
صرفه بنفسه فقام وامتنقه وضحك وبكى . انظر تراجم أعيان ص ٢٥ .

(٤) سلافة النديم ص ١٦ ؛ تراجم أعيان ص ٢٥ .

وتولى الخديو عباس الثاني وعفوه عنه في ٣ فبراير ١٨٩٢ وإباحة عودته الى مصر حين يريد^(١) .

وكان قد استهوى النديم حديث جلسائه وأصدقائه من أهل فلسطين عن الأماكن المقدسة بها فعزم على زيارتها قبل العودة الى الوطن ، واصطحب صديقا له من أعيان يافا وخرجا على ظهور الخيل في مارس ١٨٩٢ ، وسارا حتى وصلا جبل الطور المسمى جبل جازيم حيث زارا بأعلاه مجمع السامرة^(٢) (Samaritans) ، واتصل بالسامرة الذين كانوا يحجبون بأعلى الجبل ، وناقش كهانهم ، واطلع على كتبهم الدينية ومعتقداتهم^(٣) ، ثم قصدا بعد ذلك مقام العزيز فزاراه وكثيرا من قبور أنبياء بنى اسرائيل ، ثم مرّا بعدة قرى ووديان مختلفة الى أن بلغا « نابلس » فلبثا فيها يومين بين حفاوة علمائها وأدبائها واکرامهم^(٤) ، وكان النديم يدهش المجتمعين به بحسن بيانه وقوة اطلاعه ، يقول جلبي السامري وهو ممن اجتمعوا به في نابلس « سمعت منه كما سمع أفاضل بلدنا — نابلس — وأجلاؤها وذواتها الفخام ما بهر الجميع وملأنا عجبا ، فقد كان

(١) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ج ٢ ص ٣٥ .

(٢) يقال أنهم من بنى سامرك وهو شعب من شعوب الفرس ويقال لهم السامرة وكانوا بمدينة سخرون أو سحرون ، وهي مدينة نابلس ولهم ٥ أعياد انظر الخطط التوفيقية ج ١ ص ٩٣ .

(٣) الأستاذ ص ٢٥٩ .

(٤) من خطاب أرسله النديم لمديقه احمد سمير انظر سلافة النديم ص ١٦ .

يقضى اليوم واللييلة وهو يسأل فيجيب بأحسن بيان وأقوى
برهان»^(١) ، ومن نابلس توجه النديم ومرافقه لزيارة
قبر يحيى الحصور (مار يوحنا المعمدان) ثم اتخذوا طريق
الناقورة ، فلما جاوزاه سارا فى طرق صعبة المسالك حتى عادوا
الى نابلس ، ثم زارا مدينة الخليل وبيت لحم والمسجد الأقصى
وكان النديم فى كل مكان يحل فيه موضع التجارة والاكرام من
العلماء والحكام ، واحتفى به متصرف القدس الشريف وقتذاك
ابراهيم حقى باشا^(٢) ، وكان آخر ما فعله النديم هناك هو
زيارة لقبر موسى كليم الله ثانية وحضوره موسم الاحتفال
بمولده فى منتصف شوال ١٣٠٩ (مايو ١٨٩٢)^(٣) . فقد كان
يعتقد أن العفو عنه كرامة من كراماته ، فقد جاءه قبل العفو
عنه فى المنام وبشره بذلك .

الاستعمار فى عشر سنوات

صدر الحكم بالعفو عن النديم فى ٣ فبراير ١٨٩٢ ونفذ
الخبر الى فلسطين واستقبلته الصحافة المصرية بالاستحسان
ورحبت بالزميل القديم ، ولكن النديم لم يستشع العودة الى
الوطن الا فى ٩ مايو ١٨٩٢ بسبب رحلته الى الأماكن المقدسة
بفلسطين وطور سيناء .

(١) الأستاذ من ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٢) سلافة النديم من ١٦ .

(٣) من خطاب أرسله لعديق انظر تراجم أعيان من ٢٥ - ٢٦ .

عاد النديم الى الحياة المصرية بعد غياب استمر قرابة عقد من الزمان^(١) ، وكانت هذه السنوات أخطر سنوات تمر بمصر ، فقد كان المستعمر يعمل ليل نهار ليغير من كل شيء في البلاد ويصبغه بالصبغة الجديدة التى تخدم غرضه وتحقق مآربه : تغيرت فيها مصر ، وتغير فيها الشعب ، وتغير فيها الخديو ، وحتى النديم نفسه لم يسلم من التغير .

تغير النديم فضعفت صحته من أثر الجهد الذى بذله والاضطراب الذى أصابه أيام محنته والارهاق الجسمى والنفسى الذى ألم به فى سنوات الاختفاء ، وبدأت عليه الشيخوخة والكبر ، وغلبت عليه روح التصوف ولبس العمامة الخضراء والجبّة والقفطان زى الأشراف المنتسبين الى أسرة النبى الكريم^(٢) ، وجاهر باتصال نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصبح يدعى : « السيد عبد الله نديم » .

بيد أن النديم وإن تغير مظهره فإن فيه شيئاً لم يتغير ، هو إيمانه بوطنه وعبادته التى هى مبادئ الحركة القومية : الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة ، تلك المبادئ التى أصبحت غريبة فى مصر بعد أن تنكر لها الجميع ولكن النديم لم يتنكر لهذه المبادئ ولم ينكرها رغم ما أصابه فى سبيلها من أهوال . وكانت بالنسبة له كما يقول :

(١) اختفى من الحياة العامة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٢) كان أحد الأترياء التى تخفى فيها النديم وهو فى محنته واستمر يرتديه

بعد ذلك .

« ودينى الذى فطرت عليه ومذهبى الذى أميل اليه هو
تحرير العباد واصلاح البلاد ^(١) » .

وتغيرت مصر فأصبحت تحت السيطرة الانجليزية الكاملة
تمهيدا لاحتلال دائم ، فألقى الجيش الوطنى يوم دخل الغاصب
العاصمة ، وأنشئ جيش جديد متهاك تحت قيادة قائد وضباط
بريطانيين ، وألغيت قوانين الاصلاحات العسكرية ، كما ألغيت
البحرية المصرية ، وعين للبوليس قومندان وضباط من المحتلين ،
ولم تمض أربعة أشهر على احتلال البلاد حتى تمت السيطرة على
قوة البلاد الحربية وقوة الأمن فيها .

وجثم جيش الاحتلال على صدر البلاد ، علا المدن ويحتل
مرافق البلاد ، وألزمت مصر بالاتفاق عليه ، وألغى الدستور
النيابى الذى صدر عقب ثورة سبتمبر ١٨٨١ ، واستبدل بمجلس
النواب مجلس شورى القوانين الذى اقتصر عمله على الموافقة
على ما تعرض عليه الحكومة مع عدم الزامها بمقترحاته ، وألغيت
الرقابة الثنائية وحل محلها مستشار مالى بريطانى ، وعين لكل
نظارة مستشار أو وكيل بريطانى يعطى الأوامر فى صورة
لصائح .

وتغلغل الاستعمار فى جميع مرافق الدولة وسيطر على
مصالح الحكومة ، وتوالى النكبات على مصر ، فتم اخلاء
السودان اثر الثورة المهدية على يد نوبار الذى عين رئيسا
ليوافق على هذه الكارثة الوطنية .

(١) تاريخ مصر ص ١٤ .

عد النديم ليجد الوزراء المصريون لعبة في أيدي مستشاريهم.
لأنجليز وليرى الاستسلام الكامل من الحكومة المصرية لنفوذ
الاستعمار الذى يمثله عميده (لورد كرومر) الحاكم بأمره
وانذى أخذ يرسم سياسة المستعمرة الجديدة ويوجهها حيث
يشاء وحيث تخدم أغراضه الاستعمارية ، ثم ينفذها بواسطة
مندوبيه الانجليز فى كل الوزارات والمصالح الحكومية .

أما الشعب الذى تركه النديم يتأجج وطنية ويفور بالقومية.
فقد عاد ليجده وقد ران عليه عدم المبالاة ، وخيم عليه الاستسلام
ومثل لمصيره على يد المحتل الغاصب . ولم تكن الهزيمة
العسكرية هى العامل الوحيد لسريان روح اليأس والاستسلام
والخضوع فى الشعب المصرى ، بل اجتمع الى ذلك الأحداث
نتى تعاقبت على البلاد فى السنوات العشر التى تلتها تغيرت من
روحه ومن معنوياته . ولعل العامل الأكبر فى هذا التغيير هو
التشويه الذى ألصق عمدا بزعماء الثورة العرابية ، فقد أدرك
المستعمر من الوهلة الأولى أن استسلام الجيوش ليس معناه
انتهاء الثورة ، بل بداية مرحلة جديدة من مراحلها قد تكون
أخطر من الحرب المكشوفة ، فالأمر متأثر بمدى تضحية زعمائها
ومواقفهم فى مجالات المحن ، ومواقف البطولة تبث فى الأمة
روح التضحية وتبعث الشعب على الاستمرار فى النضال .
ومواقف التسليم والخضوع تقضى على الروح الثورية فى البلاد .
ومن ثم هدف المستعمر الى قتل روح المقاومة فى الشعب ، فعمد
الى أن يعيب الأمة بخيبة أمل فى معتقداتها وقيمها ومن تؤمن.

بهم من زعمائها . واستغل المحنة التي يمر بها زعماء الثورة وهم في السجون اثر الهزيمة ، وشن عليهم حرب الأعصاب وسلط عليهم عملاء الرجعية يتشفون فيهم ويعدون لهم طرقا وحشية للانتقام ، وبدا لهم من المحاكمات الصورية النهاية المحتومة التي تنتظرهم ، وغرر المستعمر بهم فلبس ثياب العطف عليهم وأظهر لهم استعداداه لحمايتهم من بطش الحديو المنتصر المنتقم اذا لجأوا اليه وطلبوا حمايته . وفي ساعة الضعف البشرى لجأ معظمهم الى جيش الاحتلال يطلبون حمايته وأن يعاملوا حسب القوانين الحرية العالمية .

وبدأ المستعمر ينشر في الأمة أنباء استسلام زعمائها له ، وزيفت عليهم الأقوال على ألسنة الشهود المأجورين ، واتهمهم الأذئاب المسخرون من قبل القصر والحاشية بتهم لم يرتكبوها ، وحين نفوا هذا التلقيق وتبرأوا من التهم الكاذبة ارتفعت أبواق الاستعمار تعد ذلك نكوصا عن تحمل المسؤولية ، وتعلن في الناس تنصل الزعماء عن الجريرة . ودست عليهم الاعترافات الكاذبة من أن ما فعلوه هو عصيان وجريمة ، ونسبت اليهم الصحف الاستعمارية مدح المستعمر والخنوع له والتذلل بطريقة مزرية ، كى ينقذوا أنفسهم من الاعدام .

كان لذلك أثره في روح الأمة ، فأصيبت بنكسة ، وعمى عليها الطريق وضاعت القيم ، وبدا الحق باطلا ، وزين الباطل فصار في صورة الصواب . وخابت الآمال في الزعماء ، وفقد الناس الثقة حتى في نفوسهم ، وتسربت روح الخضوع

والاستسلام الى صفوف الأمة ، وانطلت روح المقاومة الوطنية في أوائل عهد الاحتلال ، وأخذ كبراء البلاد وموظفوها وأعيانها ومثقفوها وخاصتها وعامتها تحت تأثير هذه النكسة يتذكرون للحركة الوطنية ويوالون الاحتلال ، وهبط مستوى الوطنية في النفوس هبوطا كبيرا .

واتبع المستعمر سياسته التي تنشر في الناس فساد الأخلاق والجبن والنفاق والذل والرياء ، وعت النفعية والأناية : ولا غرابة في ذلك فالوطنية اذا فقدت ، فقدت معها الأخلاق والقيم .
لم يجد النديم أى مظهر من مظاهر المقاومة أو الحياة الوطنية ، فلا دعوة للجهد ولا جماعات سياسية ولا معارضة للمحتل الغاصب أو لسياسته داخل مجلس شورى القوانين . بل وجد رجالات الأمة اما منزوين في وظائفهم الحكومية راضين بها ينفذون أوامر سادتهم الانجليز ، أو منصرفين الى أعمالهم الخاصة من زراعة وتجارة وأعمال أخرى ، حتى بعض الذين كانوا من زعماء الثورة أو من مفكريها وجدهم النديم — حسب فلسفة خاصة اعتقدوا أنها لصالح الوطن — قد استكانوا ودخلوا تحت ظلال الاحتلال في وظائفهم^(١) وهادنوا الاستعمار بل تعاونوا معه وشرّبوا اليه .

وكان نوبار خير عميل للاستعمار ، أخذ كل صوت ينادى بالحرية أو يعترض على سياسة الاحتلال ، واضطهد الصحافة

(١) من أمثال عبد الله باشا فكرى وسعد زغلول وعلى مبارك والشيخ

محمد عبده .

الوطنية ، وشهر سيف الاغلاق على كل صحيفة تكتب حرفا في مناهضة السيد الجديد ، فألغى جريدة « الوطن » ^(١) ، وعطل جريدة « الأهرام » ^(٢) ، وألغى جريدة « الشرق » وجريدة « الزمان » وأندر جريدة « الصادق » بالاغلاق ومنع جريدة « العروة الوثقى » من دخول البلاد وصار يحكم على من توجد معه بخمسة جنيهات ^(٣) .

وعامل آخر من العوامل التي أدت الى استسلام الشعب للاستعمار وقتلت روح المقاومة فيه موقف الحديو توفيق ، ذلك الذى اتخذته الاحتلال وسيلة لاغتصاب البلاد وخدعه بأنه يريد أن يحميه من الشعب ومن الثورة العرابية ويقر له الأمور فى البلاد ثم يتركها ، ولم يجرؤ توفيق بعد ذلك على أن يذكرهم بوعودهم وهم ولاية نعمته ، فأذعن لسيطرتهم اذعان الذليل الخائف على مصيره المرتبط بهم ، لا يرد للعميد الانجليزى طلبا ، بل كان يحضر الحفلات الرسمية لجيش الاحتلال ، يحى علمهم الذى يرفرف أمام مقره الرسمى بعابدين .

وهكذا اعتاد الشعب رؤية جيش الاحتلال محاطا بمظاهر الاحترام والتأييد فنكس رأسه واستكان .

وكان توفيق يختار رؤساء وزرائه ممن يسيرون على نهجه كنوبار ورياض ومصطفى فهمى ، وكانوا أكثر خضوعا للاحتلال

(١) الوقائع المصرية ١٢ مارس ١٨٨٤ .

(٢) الوقائع المصرية ٢١ أغسطس ١٨٨٤ .

(٣) ابراهيم عبيد : تطور الصحافة من ١٤٢ - ١٤٤ .

من الحديد نفسه . وكان هو وإياهم يتسابقون لارضاء القوة المحتلة . ولم يكن للشعب ازاء ذلك من طريق غير الاستسلام بعد أن أصيب بخيبة أمل في زعمائه ، وخديويه ، ووزرائه ، والمثقفين منه .

الامل الجديد

أخذ النديم بعد عودته الى الوطن يتنقل بين الاسكندرية والقاهرة مدة شهرين يتعرف أحوال البلاد ويدرس ما فاتته من شؤونها مدة غيبته ، ويقابل أصدقاءه القدامى من أعضاء الحزب الوطنى ويطلع على ما آلت اليه البلاد .

رأى النديم والأسى يملأ قلبه كل هذه التطورات التى حدثت فى مصر ، ورأى الجهود التى بذلها من قبل والمكاسب التى حققتها الحركة الوطنية قد ذهبت واندثرت ، فقد كانت البلاد مستسلمة للذل ، خاضعة للاستعمار ، قد خيم اليأس على أرجائها وضرب فى جميع طبقاتها من فلاحين الى مدنيين جهلة ومتعلمين . ولكن النديم اليوم لا يستطيع أن يمسخ عن قلوبهم اليأس ، ويصب فى آذانهم نغمات الحرية ، ويدق طبول اليقظة بصوته وخطابته وكتابته . لا يستطيع أن يطوف بالبلاد كما فعل من قبل يعتلى المنابر فى المساجد ويخطب الناس فى المجالس والمنتديات وفى حفلاتهم ومواسم اجتماعهم ، يبكى الوطن ويندبه ليوظهم من رقدهم ليحاربوا الاستعمار .

لا يستطيع أن يفعل لأن الاستعمار حرم الاجتماعات العامة .
والخطابة اذا كانت ممنوعة على المواطن العادى وقتذاك فهمى
على النديم أمنع وأقوى فى التحريم .

ولعل النديم قد اعتراه اليأس من الجيل الذى عاصر الثورة
وحطمته الهزيمة ، وهدم معنوياته الاحتلال بقتل روح المقاومة
فيه فلم يكن أمامه من سبيل الا أن يضع أمله فى الجيل الجديد .
صار يجمع الشباب المثقف حوله وأكثرهم من مدرسة الحقوق العليا
وعلى رأسهم مصطفى كامل^(١) يجتمع بهم سرا فى منزل لطيف
باشا سليم^(٢) ، يصب فى آذانهم دروس الوطنية ، ويشرح لهم
أسباب الهزيمة التى آلت اليها الحركة الوطنية ، وينفض عن
الحركة القومية — كمبدأ — الأكاذيب التى ألصقها بها الاستعمار
وأفكار الخديو والمفتربات التى شوهوا جهاد الشعب بها ،
ويطلعهم على مبادئ هذه الحركة وخطتها وكيف كانت تهدف
الى الحرية الكاملة للشعب والحياة الديمقراطية ، ويقفهم على
مواطن الخطأ وأسباب الاخفاق ، ويصرهم بدسائس السياسة
الانجليزية التى كانت عاملا كبيرا فى هزيمة الوطنيين^(٣) .

أوصاهم النديم بأن يعتمدوا على قوة رأى العام وتربية
الشعب التربية الوطنية والأخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحركة
الوطنية ومساندتها .

(١) مصطفى كامل كان طالبا بمدرسة الحقوق العليا .

(٢) عضو الحزب الوطنى القديم .

(٣) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٣٠ : انظر أيضا زيدان : تراجم

مشاهير ج ١ ص ٢١٧ .

وأوصاهم بأن لا يصطدموا بالحديد ، فمن هذا الاصطدام
تنفذ السياسة الانجليزية وتوقع الفارقة بين صفوف الأمة
وخطيبتها كما فعلوا مع توفيق .

وأن لا يستسلموا في كفاحهم مهما طال ، فان امتسلام
الزعماء يحطم الروح المعنوية وروح المقاومة للشعب ، ويذله
للمستعمر .

وأوصاهم بأن يتقنوا فن الخطابة فهي أمضى سلاح وسط
شعب أكثره لا يقرأ حتى يستطيعوا أن يتصلوا بقلوب الجمهور
وينفذوا إليها فيسير وراءهم في الكفاح . وصار النديم يرن
الشبان على الخطابة ويخص بعنايته مصطفى كامل بعد أن وجد
في قلبه وروحه وعزمته الاستعداد الصالح لقيادة الجيل الجديد
وتبين موهبته الخطابية ، فجعل يشحن عواطفه بما في نفسه
من أفكار مكبوتة سنين طوالا ، وظهر أثر النديم واضحا في
مصطفى كامل ، في خطته في محاربة الاستعمار وحتى في أسلوبه
الخطابي « فقد اقتبس مصطفى كامل بعض أساليب نديم »^(١)

ودفع النديم الشباب الى الكتابة في الصحف ، فنشرت لهم
الأهرام والمؤيد مقالاتهم ، كما دفعتهم الى الخطابة « فانبرى
مصطفى كامل بين اخوانه الطلبة يثير حماسهم الوطنية لمقاومة
الاحتلال ، فأكبروا فيه وطنيته ومواهبه الخطابية ، واجتمعت
قلوبهم على محبته والاعجاب به » .

(١) تراجم مشاهير ج ١ ص ٢١٧ .

وصار النديم من وراء الستار يغذى الجيل الناشئ ويرعاه ويمدّه بالنصيحة ويدق طبول الوطنية في آذانه ، ومن ثم أصبح النديم في نظر التاريخ حلقة الاتصال بين جيلين في كفاحهما في سبيل الحرية ، والحلقة التي تصل السلسلة في تاريخ كفاح الشعب المصري ذلك الكفاح الذي بدأه عرابي في سبيل الاستقلال والحياة الديمقراطية .



كان الشباب هو أول أمل اعتمد عليه النديم في إحياء روح المقاومة الشعبية للاحتلال ، ولكن القدر سرعان ما وهبه الأمل الثاني من الناحية التي لم يتصور أحد أن يأتي منها أمل لمساعدة حركة المقاومة ، ذلك هو الخديو الجديد عباس الثاني ، فقد عاد من فينا حيث أمضى أيام دراسته متصلا بأولاد الملوك والأمراء الذين يفخرون بحريتهم وحرية بلادهم ، وتدفعهم حماسة الشباب أثباء دراستهم الى رسم الخطط والسياسات التي تسعد شعوبهم ، عاد عباس ليتولى منصب الخديوية في مصر « وقلبه مملوء آمالا كبارا في أن تسترد مصر استقلالها في عهده ، وساءه أن رأى الانجليز قد وضعوا أيديهم على وزارات الحكومة ومصالحها . فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع ، ورسم لنفسه في أول عهده بالحكم سياسة مقاومة التدخل البريطاني^(١) » وبدأ عباس يجهر بنقد جده اسماعيل لاسرافه وبذخه الذي

(١) الرافعي : مصطفى كامل ص ٢٨١ .

أدى الى تدخل النفوذ الأجنبي ، ويلوم والده توفيق لاستسلامه للانجليز ، ويعيب على رجال معيته ضعفهم^(١) ، وجعل يتصل بالشعب عن طريق رحلاته في المديريات ومقابلة العلماء والأعيان^(٢) ، يجمعهم على مائدته ويسمع معهم دروس الدين ويناقشهم في شؤون الأمة ، ويزور المساجد ويصلى مع الشعب ، ويزور المعاهد والمدارس ، وطلب الى الاخصائيين أن يوافوه بالتقارير عن نظم التعليم والجيش والبوليس وبقية المرافق الحيوية الهامة .

ومن أجل ذلك أخذ الجفاء يزداد بين عباس ولورد كرومر ، وبدأت الحكومة الانجليزية تلوح في البرلمان الانجليزى بالنصح لعباس أن يتبع سياسة والده الحكيمة اذا أراد أن يحتفظ بعرشه في مسألة الانجليز والاستماع لنصح كرومر^(٣) .

ولكن عباس الذى امتلأ بثورة الشباب وتأثر بما رأى أثناء تعلمه بفينا لم يؤثر فيه وعيد الانجليز أول الأمر ومضى فى سياسته ، يتقرب الى الشعب ويؤيد حركات المقاومة للاحتلال ، « وفى الحق أنها سياسة قومية مددوحة تدل على ميول وطنية طيبة وشجاعة نادرة جعلته وقتنا ما يقامر بعرشه »^(٤) .

وكان النديم أحسن أن الثغرة التى كان ينفذ منها الانجليز ،

(١) أحمد شفيق : مذكراتى ج ٢ ص ١٦ - ١٨ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦ ، ٤٦ ، ٤٨ .

(٣) أحمد شفيق : مذكراتى : ج ٢ ص ١٥ .

(٤) الرافى : مصطنى كامل ص ٢٨١ .

وهى التفرقة بين الشعب والحديو أو شكت أن تسد ، فسارع بتأييد الحديو وجعله رمزا للمقاومة الشعبية للاحتلال ، ووجه تلامذته أن يلتفوا من حول الحديو الشاب وأن يؤيدوه في سياسته الجديدة ، ولذلك كان الحديو يلاقى من الشباب بالخفاوة العظيمة ، يهتفون بحياته وبتأييده في كل مكان يذهب إليه ، وبلغت هذه الخفاوة أقصاها حين ذهب الحديو لزيارة مدرسة الحقوق العليا فاحتفى به الطلبة وعلى رأسهم مصطفى كامل وألقوا بين يديه الخطب والقصائد^(١) .

واتصل الحديو بالنديم وجمعية الشبان التي يجتمع أعضاؤها به ومنحهم تأييده ومعونته في حركتهم الوطنية المناهضة للاستعمار ، وتوثقت أواصر الود بين عباس والنديم^(٢) ، وقوى الأمل في نفس الثائر العائد في أن يوقف الأمة مرة أخرى من نومها ويكشف عنها غيوم الاستسلام لتقاوم الاحتلال .

وأحست عيون الاستعمار وجواسيسه الصلة بين الحديو والنديم والشباب المثقف ، وبدأت المغريات تلتف حول النديم ، وأخذت رسل كرومر تسعى إليه . فمسألة الاحتلال - وهو القوة الحاكمة المسيطرة - والسكوت عنه أو مناصرته يتبعها المنصب الكبير في وزارة المعارف أو الأوقاف والمرب الذي يضمن له اليسار والراحة طوال حياته ، كما فعل غيره من زعماء

(١) سنة ١٨٩٢ انظر الراعى : مصطفى كامل ص ٢٨ .

(٢) ولي الدين يكن ، العلوم والجهول ج ١ ص ١٨ - ٢٠ .

الحركة الوطنية ، وخاصة بعد أن ضعفت صحته من آثار الاختفاء .

أما مناهضة الاستعمار ومواصلة الكفاح السياسى فمعناهما النفى والتشريد .

ولكن النديم لم يكن لديه سبيل للاختيار ، فهو الزعيم الوحيد الذى بقى على مبادئه حتى الآن من زعماء الحركة العراية ، وفى عنقه أمانة مواصلة الكفاح السياسى بعد تسليم الآخرين وموت على الروبى^(١) فى السودان ، ولو أنه سلم وهادن الاستعمار لكتب على الثورة الوطنية كلها الذلة الى الأبد . لقد وجد النديم نفسه والأمانة معلقة فى رقبتة وشرف الأمة فى يده ، فاما أن يكتب على مصر العار والذل باستسلام زعماء ثورتها الوطنية جميعا ، واما أن يحفظ هذا الشرف بمواصلة الجهاد ، وعلى أقل تقدير سيقول التاريخ ان من الزعماء من سلم ومنهم من واصل الكفاح .

عودة الروح بالاستاذ

عقد النديم العزم على أن يبدأ الكفاح من جديد ، يث فى الناس روح المقاومة الشعبية ويلهب الشعب النائم ويهزه من مرقده . ولكنه لا يستطيع أن يعقد الاجتماعات فيخطب ويشعل

(١) كان الزعيم الثانى من الثوار الذى لم يقبل أن يقر بالعصيان أو الذنب . بل امر على أنه ادى واجبه نحو وطنه وحكم ونفى الى السودان ومات هناك .

الرءوس بالحمية والوطنية ، ولا يستطيع أن يطوف بالبلاد ويستحث أبناءه على مقاومة الاستعمار ، فقد اشترط لعودته الى مصر أن لا يشتغل بالسياسة ولن تسمح له الحكومة ، أو بالأحرى سادة البلاد المستعمرون بأن يفعل كما فعل من قبل ، وخاصة أنهم أحسوا أنه خصم عنيد له خطره ، فلم يستطع لورد كرومر بكل دهائه وحيلته أن يغيره أو يكتسب تأييده أو يعقد معه هدنة كما فعل مع الآخرين .

اختار النديم الصحافة ميدانا لكفاحه . ولكن كيف السبيل الى تصريح وزارة الداخلية ، وتاريخه في حرب الانجليز معروف . وحملة التعبئة التي شنّها عليهم تقف حجر عثرة في سبيل هذا التصريح واستطاع النديم أن يتخطى هذه العقبة بحيلة من حيله ، واستطاع أن ينفذ الى الأمور من طرقها ومنافذها ، فاستصدر أخوه عبد الفتاح النديم ترخيصا بإصدار مجلة « الأستاذ » الأسبوعية وهى : « جريدة علمية تهذيبية فكاهية ^(١) لا تتعرض للأمر السياسية الحاضرة الداخلية والخارجية » .

وما أن حصل عبد الفتاح النديم على الترخيص بها حتى أعلن فى أول عدد منها أنه جعلها : « خزانة لشوارد العلوم وفوائد الرسوم لا تنقيد بفن ولا تقتصر على موضوع تقتصر ما يحسن نشره ويلذ سماعه من المقول والمنقول ما لا يطن فى دين

(١) تصدر يوم الثلاثاء من كل اسبوع فى ٢٤ صفحة طولها ٢٤ سم وعرضها

١٦ سم .

ولا يمس شرف شخص ولا يقرب من الأهاجى ولا يتعرض
للأمور السياسية الحاضرة ، أى أنها لا تتكلم فى الإدارات
والأعمال والعمال سواء فى ذلك الداخلية أو الخارجية ، وأما
فن السياسة من حيث هو فانه يدخل فى موضوعها العلمى ...
وانى وكلت تحرير مطالبها وترتيب وسائلها لقلم شقيقى الفاضل
السيد عبد الله نديم .

انه من الظاهر الواضح أن عبد الفتاح لم يكن الا أداة
للحصول على الترخيص ، أما النديم فهو رئيس التحرير والمحرك
لسياسة الجريدة .

صدرت « الأستاذ » فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ . وكانت فريدة
فى تاريخ الصحافة العربية ، جعل التحرير فيها على ثلاث درجات :
١ — مقالات علمية وطنية بلغة أدبية رفيعة يكتبها للخاصة
وللمتقنين من القراء ، وقصد بهذا القسم أن يكون امتدادا
لمجلة « العروة الوثقى » (١) .

٢ — مقالات ومحاورات باللغة العلمية بين النديم وواحد
من أولاد البلد أو واحدة من بنات البلد أو بين بعض أولاد
البلد والبعض الآخر ، ترمى الى تهذيب العامة وترقية مداركهم ،
ويصور النديم فى هذه المحاورات الحياة الاجتماعية والسياسية
والثقافية وما فيها من عيوب ، ويتولى قلمها بعنف وحدة ثم
يصف لها الدواء ، لتكون مدرسة للعامة ، وجعلها بهذا القسم

(١) النار ج ٢ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

امتدادا « للتسكيت والتبكيث » ، ولكنه في « الأستاذ » يحشوها
بنقده اللاذع لأحوال البلاد تحت ظل الاستعمار .

٣ - قسم بأسلوب عربي مبسط قريب الى العامة ، دروس
للتلاميذ من البنين والبنات أو محاورات في صورة فكاهات
ولكنها ترمى الى التهذيب ، كتبت لأنصاف المعلمين والتلاميذ.
قصد النديم بذلك أن تكون المجلة فعلا مدرسة يدخل اليها
كل فئة من الشعب متعلمها وجاهلها ، من ينظر الى الحياة بمنظار
الجد ومن ينظر اليها بمنظار الفراغ واللهو ، يتولى بقلبه وفكره
صفة الأستاذ فيها ، ييث تعاليمه ومبادئه في كل فريق بين سطور
المقالات التي كتبت له « وانما التزامنا هذه الطريقة لميل النفوس
اليها وليرى كل قسم من العلماء والأدباء والعقلاء والعوام
ما يحبه ويرضاه ، فما القصد الا أن تكون الخدمة عامة ينتفع
بها الخاص والعام ، ومن تأمل هذا المشرب وجده دقيقا
مفيدا » (١) .

لم يتعرض النديم في أول أعداد « الأستاذ » للاحتلال
علنا ، ولم يحارب البريطانيين جهارا ، ولم يدع الأمة لتقوم
وتحارب الاستعمار صراحة ولكنه بدأ أولا بحرب على
المشروعات التي أدخلها الاستعمار ليتمكن يده من الدولة وبحول
بها مصر الى مستعمرة بريطانية ، فاذا تحدث عن السياسة مسها
من بعيد واستخدم لها مهارته في التلاعب بالألفاظ والتوريات

(١) الأستاذ ص ٥٠ .

والفكاهات ، وكأنه كان يرمى الى أن تطمئن عين الرقيب اليه
فيدع « الأستاذ » تسير وتصل الى القراء وتحتل مكائتها،
وتكوّن لها جمهورا وشعبية . وبعد ذلك ينفذ خطته في الكفاح.
كتب بالعامية تحت عنوان « تحية بلدى » ^(١) حوارا بينه
وبين « حبيب » احدى الشخصيات التى اتخذها رمزا للمصرى
الصميم من أولاد البلد :

حبيب : احنا عاوزين توضح لك كلمتين فى السياسة.
وتورينا الدنيا ييجرى فيها ايه .

نديم : احنا مالنا ومال السياسة التى توجع الرأس وتلخبط
العقل ، السياسة لها ناس بالغبية ، واحنا ناس بتوع نكت.
وتفريح وشبرقة وتسالى ، ولجريدة دى جريدة علم وتهذيب.
أخلاق ونكت مضحكة وحاجات مفرحة ، فان كنت عاوز أتكلم
وياك فى تهذيب الأخلاق أنا وياك ، وان كنت عاوز السياسة.
دور لك على واحد غيرى .

حبيب : يا شيخ احنا عاوزين نشم ريحة السياسة يوم
ونشوف فى الدنيا ايه ، أحسن بنسمع عليها كلام أشكال وألوان.
والجرائيل خرفشت عقولنا وكل واحد يقول لنا كلام على كيفة،
واحنا ماشين وراهم زى العمى ما احنا عارفين آخرتها ايه .

نديم : قلت لك ألف مرة مالناش دعوة بالسياسة اللى
مليانة بالقييل والقال ، وكل يوم نشوف فيها أشكال وألوان.

(١) الأستاذ من ١٦ - ٢١ .

وكل أحوالها تغم وتقرف ، خل ملوكنا وأمرأنا فى اللى هما
فيه أحسن الواحد منهم ما بيات متهنى يوم وسهرانين على
شائنا ، وخليهم يعافروا فى الناس الى تعتوا الساكن » .

ورغم أنه لا يمس السياسة مسا صريحا ومع أنه يعلن أنه
لا يتحدث فيها الا أن مقالاته كلها تدور من قريب أو بعيد
حولها بطريقة غير الصريحة ، والنديم ينبه قارئه الى قصده
ومسلكه فيقول : « ومن اعتمد على جواهر الألفاظ ولم يحم
حول ما قصدناه تكثر اعتراضاته ، ويعز علينا مرضاته » (١) .

كانت خطة النديم — فى كفاحه ضد الاستعمار — ترمى الى
أن يبدأ بالمفاسد التى عمت المجتمع عقب الاحتلال وكان مما
فوجيء به عقب عودته موجة من الانحلال والفساد الخلقى فى
البلاد ، فافراط وجهرة فى شرب الخمر لم يكن معهودا من قبل ،
واستهتار الشارين بنقد النقاد ، واتشار الخمارات انتشارا
كبيرا فى البلاد والقرى ، يبتز الأروام عن طريقها أموال الأهالى،
وانحلال الأسرة بسبب الشراب ، وتقليد النساء المصريات
للأجنبيات فى شرب الخمر ، واتشار الخشيش والمعاجين
والمخدرات والاحتفاء بمجالسها ، ثم اساءة فهم معنى الحرية
واستعمالها وسيلة للانهماك فى الملذات والشهوات ، ثم السقوط
فى تقليد المصرى للأوروبى تقليدا أعمى فى لغته وطرق معيشته ،

(١) الأستاذ ص ٥٠ .

ولبس الضيق المحبوك من الثياب الأفرنجية ، وتفضيل
المصنوعات والبضائع الأجنبية ، والاستهتار بالدين وبالوطنية ،
واحتقار الجنسية المصرية .

واتهم النديم الأوروبيين بتشجيعهم هذه الأمور حتى
يسقط الشرق وتحل أخلاقه ، وقارن بين الشرق والغرب ، وبين
أن تأخر الأول وتقدم الثاني لم يكن لجده ولا لأصله ، إنما
لعصيته الموجودة بين أهله وسعيهم وراء المجد وعدم تكاسلهم .
وكتب النديم مقالا مسلسلا بعنوان « فصل في الأخلاق
والعادات » ^(١) تحدث فيه بأسلوب علمي عن اختلاف عادات
كل أمة تبعا لظروفها وطبيعتها ومناخها وعقليتها ودينها ، ثم بين
كيف يكون التقليد بالاختلاط فيقلد الضعيف القوى والمحكوم
الحاكم ، ويشير بذلك الى موجة التقليد التي اجتاحت المصريين
فقلدوا الانجليز في مظهرهم وطرق معيشتهم ولغتهم وصناعاتهم .
ثم يعقب على ذلك في رفق وهوادة فيقول :

« ولكن ينبغي لمن يغير عادته بعادة الغير أن ينظر في أصل
عادته وفوائدها ومضارها ثم في عادة الغير كذلك ، فإن رأى
حسن عادته وانها من لوازم حفظ المظهر أو الثروة أو الوطنية
أو الجنسية أو اللغة والدين . لزمه البقاء عليها وان لم تحسن في
عين الخليل ، وان رآها ضارة بذاته أو وطنه أو الهية الاجتماعية
غير منها ما لا يفقده الاعتقاد الدينى والشعور الجنسى والغيرة

(١) الأستاذ من ١١ - ١٥ .

الوطنية ، فان انتقل من عاداته بلا روية ولا نظر للعواقب فقد سلم ذاته الى من انتقل لعاداته بلا حرب ويعز عليه الرجوع الجنسيته ووطنيته وخصائص أمته بعد نسيان ما هى عليه من العادات وما لها من الأخلاق .

وكتب فى ذلك أيضا مقالات سلسلة تحت عنوان «الاقتصاد الشرقى» وقارن فيها بين مصر وطرق المعيشة فيها وما كان يستعمل فيها منذ عشرين عاما ، وبينها فى عصره ، مفصلا كل نوع من أنواع الطعام والشراب وأدواته والملابس لكل من الأنواع الثلاثة : الفقير والغنى والأمراء . ثم عدد الصناعات التى ماتت من جراء هذا التقليد . وهو يرى « أن المحسنات المعيشية تألفها النفس ، ولكن الاسراف فيها والتهاكك عليها يقتل الصناعة المحلية ويزيد فى ثقافات الحياة ^(١) فتضيع الثروة القومية وتذهب الى يد الأجنبى وتموت الصناعات الوطنية ويكثر المتعطلون .

المدرسة والمصنع هما الأساس

كان التعليم واحدا من ميادين الإصلاح الاجتماعى والتعليمى الذى بدأ النديم يعمل فيه عقب اصدار المجلة فورا ، لأنه يعتقد بعد أن تعلم درسه من الثورة الأولى أن الأمة لن تكون قادرة على الحصول على استقلالها وهى على ما هى عليه من الجهل

(١) الأستاذ ص ٥٥ . تفصيلات : انظر الأستاذ ص ٥٠ - ٥٦ و ٨١ - ٨٦ .

وعدم الاستعداد ، وأصبحت أولى مراحل الحياة الوطنية في نظرة هي انتشار المعارف والصناعات في الأمة « وإن التهور والثورة مع الجهل والفراغ من المعدات لا يفيدان إلا الخذلان»^(١)

والنديم في سياسته التعليمية كان متقدما على عصره ، فقد كانت نظريته أن يعمم بين طبقات الشعب لأنه الوسيلة الى التقدم والمدنية الصحيحة ، فطالب الخديو بأن يعمم التعليم وأن يبسط يد العلوم على أفكار الأمة حاضرها وبآديها . « لأننا اذا أقللنا من المدارس أو قصرنا التعليم على أفراد معلومة أو طبقة دون أخرى فقد رجعنا بالمدينة القهقري »^(٢) ، والى جانب المدارس كان يريد أن تنشأ المصانع فالتعليم والتصنيع في مذهبه هما عماد الحياة الوطنية ولذلك كتب عن « الحياة الوطنية »^(٣) ففصل تاريخ الاستعمار في العالم في الأزمنة المختلفة من عهد الرومان ، ثم كتب عن الثورات التي قامت بها الدول المستعمرة في سبيل حريتها ، وقال ان الثورات الناجحة ضد الاستعمار أساسها التعليم والتصنيع وانبعاث الحياة الوطنية في قلوب أبنائها ، « فلما تربت هذه البلاد وتحلى أهلها بالمعارف وملكوا زمام المصانع دعتهم الأفقة من ذل التبعية لطلب عز الاستقلال الجنسي واظهار المجد الوطنى .. وانبعثت الحياة الوطنية في قلوب أمتهم فسارت خلف شرفها بما يؤهلها من العلم للسعى خلف

(١) الأستاذ من ٣٢ انظر أيضا من ٢٨ .

(٢) الأستاذ من ٤٠ .

(٣) الأستاذ من ٢٥ - ٤١ .

الكمال ... وما نجحت ثورة تجردت جماهيرها من المعارف
وبعدت عن المصانع والتفنن في الآلات واندفعت خلف
الأنواء» (١) .

ثم كتب ملخصا تاريخيا للحضارتين الشرقية والغربية أوضح
فيه نهضة الشرق تحت الثقافة الاسلامية في الوقت الذي
كان الغرب فيه يرسف في ظل الجهل ، ثم تعاقبت الأمور فانهدر
الشرق الى الجهل بينما صعد الغرب الى العلم والتقدم .

وكانت نعمة جريدة « المقطم » بوق الاستعمار وصنيعته
وقتذاك هي التقليل من شأن المصريين ووصفهم بأنهم لا يصلحون
لتولى الأعمال ولا يحبون المعرفة . ويرد النديم على أصحاب
المقطم ردا خفيفا مقنعا بما يرويه لورد كرومر نفسه بقوله :
« ما مررت بقرية مصرية الا رأيت أهلها يطالبون بتكثير
المدارس » (٢) . ومن يرى الشرق الآن وتدافع أهله في تعلم
العلوم الدينية والرياضية والطبيعية ، علم أن التربية بالاختلاط
تنتج العمران والمدنية ، ويبطل قول من يدعى أن الشرق يكره
التعليم ولا يصلح لتولى الأعمال ، ثم أيد النديم حجته بالوقائع
التاريخية ، وضرب الأمثلة وتفصيل ما قام به المصريون ابان

(١) الأستاذ ١٨٩٢/٨/٣٠ .

(٢) الأستاذ من ٤١ سجلها لورد كرومر بعد ذلك في كتابه

Modern Egypt vol. 2. p. 532

النهضة^(١) في ميادين العلوم المختلفة وما وصلت اليه مصر من المعرفة والرقى العلمى والصناعى فى أوائل القرن التاسع عشر حين اهتم الولاة بالتعليم وفتحوا أبواب المعرفة للشعب ، « ومع كون النهضة غربية فى الديار فقد ثبتت على الاستمرار والنجاح حتى تهذب فيها كثير من المصريين وبرعوا فى الفنون والصنائع فوزعوا على الأعمال والادارات وأظهروا الكفاءة والمقدرة فى أعمالهم ثم ظهر منهم جهابذة صاروا أساتذة ثم مديرين ثم أمراء » (٢) .

لم يكن من رأى النديم أن يقتصر التعليم على الثقافات العربية ، بل طالب بالاختلاط بالأجانب والتعلم منهم علومهم وفنونهم ، « حتى ولو كانوا قاهرين فان المصرى سيتعلم من هذا القهر تكوين العصبية وحياء الوطنية » (٣) .

العربية عماد القومية

أراد الاستعمار أن يقطع الوشائج والعلاقات بين مصر والبلاد العربية أولا وأن يمحو كل أثر للوطنية ومظهر للجنس العربى ثانيا ، فشن حملة على اللغة العربية بواسطة عملائه وصنائعه ، واراد بطريق التهديد والقوة مرة والاقناع والترغيب

(١) ص ٣٦ - ٤٠ .

(٢) ص ٢٤ .

(٣) الاستاذ ص ٤٠ .

أخرى أن تحل اللغة الانجليزية والفرنسية محل اللغة العربية في البلاد ، وبدأ ذلك في المدارس ، ومن ثم حارب النديم تلك السياسة الاستعمارية حربا شعواء ، فاللغة العربية مرتبطة بالجنس والدين والقومية في نظره « وإذا حولنا طريقة التعليم باللغة الوطنية الى التدريس باللغات الأجنبية أمتنا قوميتنا وجنسيتنا وديننا ، وأصبحنا أجنب بين قوما (١) » . ورد على أولئك الذين ادعوا أن اللغة العربية ليست لغة علمية بأن أصول العلوم في القرون الطويلة الماضية والثقافات العلمية المختلفة التي حملها العرب الى العالم الحديث كانت باللغة العربية ، « التي لفت الدنيا ودخلت كل دولة بعلومها وفنونها » (٢) .

وكذلك حمل النديم على أولئك الذين اتخذوا اللغات الأجنبية لغة حديثهم أو يدخلون عبارات أجنبية في كلامهم من أولاد الذوات الذين تعلموا في أوروبا أو في المدارس الأجنبية . « أهو ذا الكلام الذي نعم ، بقي لما تتكلم بلغة ضيوفك وكل من جه تاخذ لك من لغته كلتين حتى تتركب لك لغة من هنا ومن هنا ما بقيت غريب في الديار وضيعت مجدك وشرفك ويبقى كل واحد يعرف لغته وجنسيته وانت تأته لا تعرف لك لغة ولا

(١) ص ١٤ .

(٢) الأستاذ ص ١٩ .

مجدا ولا شرفا ، هو ذا التسدن اللي بتقولوا عليه ؟ اخص علينا وعلى عقولنا الفارغة » (١) .

لكن النديم مع دعوته الى التسك بلغة قومه في التعليم وفي الحديث يدعو الى اتقان اللغات الأجنبية ، « لأن الجسع بين لغته ولغات غيره أساس من أسس العمران المدني ومنبع من منابع الأبحر العلية (٢) » .

وعلى الرغم من تعصب النديم للغة العربية الا أنه كان يعلم أن الحضارة الحديثة والمدنية قد استحدثت ما ليس له مطابق أو مسمى في اللغة العربية . وقد حدث ذلك في كل اللغات تقريبا على مر الزمان ، فاستعارت من غيرها أو استحدثت كلمات للمعاني الجديدة حتى تسير في ركب الحضارة ولذلك نادى النديم بأن ينشأ مجمع يقوم على هذا الأمر .

فكان أول من طالب بإنشاء مجمع علمي يبحث في اللغة ويترجم لها الألفاظ الأجنبية الحديثة ويخضعها لقواعد اللغة العربية وتصاريفها . واستجاب السيد البكري له ، فجمع نخبة من العلماء والأطباء وقطعوا شوطا في ذلك (٣) . ولكن المشروع كان محاولة لم تستمر طويلا .

ثم تحققت دعوة النديم بعد نصف قرن ، ونال المشروع تأييد

(١) الاستاد ص ١٩ .

(٢) ص ١٤ .

(٣) ص ١٦٩ - ١٨٤ انظر أيضا ص ٦٧٢ - ٦٨٦ .

الحكومة ، وصدر به مرسوم ملكى عام ١٩٣٢ وأصبح يسمى
« بالمجمع اللغوى » .

مدرسة البنين والبنات

افتتح النديم بالعامية سلسلة أخرى فى مجلته « الأستاذ »
على هيئة محاورات سماها « مدرسة البنات »^(١) تدور المحاورات
فيها بينه وبين فتاة أو تدور بين فتاتين أو بين فتاة وأمها .
وخلال هذه المحاورات يبدى النديم رأيه فى تعليم الفتاة فيناصر
سياسة الحجاب ويدافع عنها ويعارض تعليمها اللغات الأجنبية
والموسيقى والرقص ، ولكنه يؤيد تعليمها التدبير المنزلى
وشؤون الأسرة والحياة الزوجية والصناعات المنزلية . وتعوينها
احترام دينها والأديان الأخرى الوطنية وعدم التعصب . كما
حارب البدع المنتشرة باسم الدين ، كزيارة النساء لبقابر الأولياء
ومجالس الذكر ، وفرق بين طبائع الريف والمدن وما يجب على
الزوج فى كل حالة .

وكتب مقالات أخرى سماها « المرافعة الوطنية »^(٢) رفع
فيها الوطن دعوى على أبنائه فى محكمة الحقوق (والمعدل)
ونصب قضاتها التسدن والعمران والنظام — رفعها ضد أبنائه

(١) السلسلة على صفحات الأستاذ : ٢٤٦ - ٢٥١ - ٢٦٨ - ٢٠٢ - ٢٥٦ -
٣٦٠ - ٣٦٩ - ٣٧٤ - ٣٩٥ - ٣٩٩ .
(٢) السلسلة على الصفحات : ٩٧ - ١٠٧ - ١٨٤ - ١٩٠ - ١٩٣ - ٢٠٢ .

لاتباعهم طرق الحياة الأوربية باسراف ، فأضاعوا أموالهم واستدانوا وانتقلت أملاكهم الى غيرهم لتشجيعهم الصناعات الأجنبية بدعوى الحضارة والمدنية وقتلوا الصناعات الوطنية . وقد وكل فيها أبنائه « المدنية » محاميا يدافع عنهم ، وعين الخبراء لتقديم تقرير عن حال مصر فى تاريخها وحالها الآن . وفى هذا التقرير والمرافعات ذكر النديم تاريخ مصر وبين ما كان بها من صناعات ، وقارن بين حالها أيام محمد على وحالها أيامه من الفقر وانتشار الأمراض الاجتماعية كالجهل والخمر والزنا والربا وانتقال الأراضي والممتلكات الى الأجانب .

وحكمت المحكمة بعد المرافعات بادانة الأغنياء لعدم تكوين الجمعيات الخيرية وفتح المدارس ولادخالهم أولادهم المدارس الأجنبية ، وضم الشاربين الخمر ولاعبى القمار والمسرفين فى المدنية وطالبهم بتكوين شركات مساهمة تحمى الصناعة الوطنية وبنوك تجارية وتعاونية . وطالب الحكومة بفرض الرسوم الجمركية على الصناعات الأجنبية لحماية المنتجات الوطنية من منافسة المنتجات الأجنبية .

وسلسلة أخرى بالعربية السهلة سماها « مدرسة البنين ^(١) » على هيئة محاورات مدرسة البنات ، شرح فيها سياسة التعليم وما يجب أن تسير عليه ، ورغب الطلبة فى التعلم وبث فيهم

(١) السلسلة على صفحات الأستاذ : ٢٠٢ - ٢٠٦ ، ٢٩٥ - ٢٩٨ ، ٣٥٣ - ٣٥٦ ، ٣٦٤ - ٣٦٩ ، ٣٩١ - ٣٩٥ .

حب الوطن ومحبة المواطنين على اختلاف أديانهم وعدم التعصب
لدين ، فهم جميعاً مصريون أبناء وطن واحد ، وعلمهم احترام
المعاهدات الدولية وغرس فيهم حب الاستقلال ، وعلمهم
الأخلاق الكريمة ، وحارب الآباء الذين أرسلوا أبناءهم الى
المدارس الأجنبية الدينية التي تغير من دينهم أو تحولهم عن
مذاهبهم ، وطالب الأغنياء بفتح المدارس التي تعلم الدين
واللغات وتاريخ أجدادهم ومجد بلادهم السابق كي ينشأوا على
حب الوطن .

وسلسلة أخرى بالعامية للنساء المواطنات من مسلمات
وقبطيات ويهوديات في مناقشات بينهن ، حدد فيها الصلة بين
المرأة وزوجها ، وصور فيها الأسرة المصرية وانحلالها باقبال
الرجال على السكر والقمار والدعارة وفقرها بعد غنى ، ويحذر
السكران على لسان زوجاتهم من الحال الذي ستؤول اليه
حياتهم ، ويصور حالتهم المزرية حين يفرطون في الشراب .
وجعل من النساء ناقداً للمجتمع بما فيه من خلافاً ظهرت بين
أبناء الوطن الواحد أو بين المصريين وفريق من الشاميين بسبب
التفرقة التي أحدثها المستعمر بينهم ، ثم قارن بين حال الشرقيين
وتفرقهم والغربيين وتعصبهم بعضهم لبعض . وعقد من الزوجات
مجالس للنظر في أمر أزواجهن السكران ورغبة في اصلاحهم
يقترحن الحلول ثم يتفقن على أن يشكون « للأستاذ » ويرفعن
« عرضحال » لأزواجهن عن طريقه ليقبلوا عن الخسر ولزنا

والقمار ، ثم صور المجتمع النسائي المصرى وكيف يسوده الحب
والوئام بين المسلمة والمسيحية واليهودية (١) .

لا بد أن النديم قد أدرك أنه مناقض لنفسه ، فبينما هو يدافع
عن اللغة العربية دفاعا حارا ، ويطالب باحيائها وعدم استبدالها
باللغات الأجنبية حتى لا تموت كلغة علمية أدبية ، اذا هو نفسه
يكتب بالعامية فى صحيفته ويروجها بين القراء ، ويقلده الكتاب
فى ذلك فيكتبون المقالات والحوار بالعامية وينشرونها فى
صحيفته (٢) . ولذلك عقد النديم اجتماعا من شخصيات
مسلسلاته العامة تحت عنوان « عقد اتفاق » حضر فيه « المعلم
حنفى وأبو دعموم ومرعى وحنيفة ولطيفة ودميانة وزينب
ونبوية » ، ودارت بينهم مناقشة طويلة جاء فيها :
« المعلم حنفى : مرادنا تعمل لنا مدرسة فى جرنالك تعلم
الأخلاق اللطيفة والآداب الجميلة . ماذا تقول يا حلو ؟
نديم : حبا وكرامة . ولكن المدرسة يلزم أن يكون كلامها
بالعربى الصحيح وليس باللغة العامية .
حنفى : يمكن احنا ما تقدر نفهم الكلام العربى النحوى
لأنه كلام صعب على الستات والناس أمثالنا . بقى أنت تريد
تحررنا من التعليم بكلامك النحوى .

(١) السلسلة على الصفحات : ١٢٢ - ١٤٠ ، ١٤٩ - ١٥٨ ، ٢٢٥ - ٢٣١ ،

٢٦٨ - ٢٧٢ .

(٢) انظر الامتاز ص ٢٢٣ - ٢٢٧ .

نديم : لكم على أن أخطبكم بكلام يفهمه الطفل الصغير
والرجل والمرأة من غير تعب ولا يحتاج لتفسير ولا لشيخ يقول
لكم على معناه .

حنفى : واذا كنت تمشى مثل ما كنت مائى ماذا يكون ؟
هو أحد خالفك على الكلام العادى ؟

نديم : أما أن أحداً خالفنى فإن ذلك ما حصل ، وإنما رأيت
بعض المشتركين فى « الأستاذ » أرسل محاوره بالكلام البلدى -
فخفت أن الكتابة تمشى بالبلدى فتحارب اللغة العربية بجيشين
جيش الدخيل الأجنبى وجيش العامية ، فلذا جمعتكم لأخبركم
أنى مستعد لمخاطبتكم بكلام بسيط من جنس البلدى فى
سهولته ولكنه عربى صحيح^(١) .

ولكن ما ان نشر قراره حتى كتب اليه القراء يؤكدون له
مختلف الوسائل أن ذلك سيحرم كثيرا من القراء العوام من
مقالاته وأفكاره ، فالمرأة تسمع مقالاته فى بيتها والعامل فى
مصنعه والتاجر فى متجره والفلاح فى حقله ، كلهم يستفيدون
من نقده ، والعامى يشتري مجلته ويعطيها لمن يقرأها له ، وهو
بذلك يرفع من مستوى تفكيرهم ويشاركهم فيما يحدث فى
البلاد ، وأنه لا خطر من هذا القسم على اللغة العربية ما دام
لغة التأليف والتدريس بالعربية ، فالعامية موجودة من قديم
الزمان ، ولم يحدث الخطر المتوقع عليها ، وبكتب يهب الزجج

(١) الأستاذ من ٢٢٥ - ٢٢٦ .

والموالي خاصة للعامة^(١) ، فنزل على رأيهم واستمر يكتب لهم
قسمهم بالعامية ، واستمرت مقالاته تتصل بالعامية .

وفي قسم الأدبيات كان النديم عاملا قويا من العوامل الأولى
في النهضة الأدبية ، فكان يحاول أن يخرج الأدب من مرحلة
الركود ، فأخذ ينشر رسائل أدبية كتبها أيام الاختفاء في
مناسبات مختلفة وقصائد من شعره كانت تغلب عليها نزعة
التصوف ومدح الرسول الكريم وآل بيته ورجال الطريق ، وصار
يشجع الشعراء فينشر لهم قصائدهم ، وكون مدرسة الزجل
وارتفع به الى مصاف الشعر والنثر وعالج به السياسة والاصلاح
الاجتماعي ، ونشر زجله وزجل مقلديه وتلامذته في هذا الفن .
وتوالت عليه قصائد الشعراء وزجل الزجالين يتدحون
« الأستاذ » الذي مكنت للبعث الأدبي ، وأجيت في الأوساط
الأدبية الروح . ورفعت عصا النقد للعيوب الاجتماعية والآفات
الخلقية التي تفشت في البلاد .

ومن أمثلة ما جاء على هذا النسق :

يا سي نديم في غاية الشوق
لرؤيتك يا نور العين
عشر سنين وانت غايب
ويوم بعادك كان بسنين

(١) الأستاذ من ٢٤١ - ٢٤٥ .

ما حد شافك من مدة
وكنت غايب عنا فـين
وذوق كلامك أوحشنا
يا حضرة الشهم الفاضل

وانت جليل في أوصافك
ما حد في الدنيا مثلك
فتحت يا سيدي الأستاذ
وكلنا تشكر فضلك
الله يديمك ويعززك
ويخفف المولى حملك
ويجعل الناس في طوعك
ولا يشمت فيك عادل^(١)

يا سي نديم ظهر الأستاذ
وكان ظهوره أحسن مظهر
وفيه كلام ماثى بالسذوق
والنكتة ماثية بالأكثر
وكل واحد عنده ذوق
يفهم كلامك بتصور

(١) الرجل كاملاً : الأستاذ ١٢٣ - ١٢٩ .

ويهون عليه لو كان قارون
يهديك قوام بره العاجل
ومن قصيدة أحد الشعراء :

وافاك أستاذ النديم
فدع السلامة يا مليم
واستهد بالأستاذ ان
ثبئت الصراط المستقيم
أبسوغ والأستاذ فينا الله
و مع خشف وريم
هشم الملامى وعظه
فكأنها ورق الهشيم
بذل النصائح جهده
فكأنه مولى حميم
نثر كنثر الدر والمر
جان عن عقيد تنظيم (١)

وكانت مقالاته وقصائده وزجله دفعة قوية للكتاب والشعراء
والزجالين أقامتهم على طريق النهضة بهذه الفنون فقلدوه في
أسلوبه المرسل ليساير الانفعال وينطلق مع العاطفة ، وفي زجله
الهاتف الذى استخدمه فى السياسة والثقافة والاجتماع .

(١) القصيدة كاملة الأستاذ ص ٤٥٠ - ٤٥١ .

بين الأستاذ والمقطم

لقد انتشرت الأستاذ انتشارا كبيرا ووصلت أعدادها الى الأطراف البعيدة من البلاد وخارج البلاد ، وكتب فيها كبار الكتاب والشعراء في مصر والخارج ، وأصبحت أكثر الصحف انتشارا حتى اليومية منها ، ففي العدد السابع ١٨٩٢/١٠/٤ كان يطبع منها ٢٠٠٠ نسخة ، وطالب القراء باعادة طبع الأعداد الأولى التي لم يدركوها ^(١).

وأصبحت « الأستاذ » منافسا خطرا « للمقطم » رغم مساندة السلطة المصرية والانجليزية في قصر الأخبار الرسمية على « المقطم » ، واستخدام البوليس في توزيعه في البلاد وامداد السلطة البريطانية له بالمال والتشجيع . وكان الخطر ذا شقين :

الأول : عدم اقبال القراء على قراءة « المقطم » ورد المشتركين الأعداد دون قراءتها لمناصرتها الاحتلال وهجومها على المصريين والحديث والسلطان ، وقد أصبح « الأستاذ » منافسا ومخالفا يحمي الحديث والمصريين والسلطان ويهاجم الاستعمار .
والثاني : خوف أصحاب المقطم من فقدة السلطة البريطانية ، فقد أدخل أصحابها أول الأمر في وهم اللورد كرومر

(١) انظر الاستاد ص ١٦٣ ، ٤٥١ .

أنهم لن يلبنوا أن يجمعوا الشعب حول الاحتلال بدعائهم له
ولسياسته ، وقد بدأ «الأستاذ» ينير الطريق للرأى العام
ويثبغفه فى سياسة الاحتلال ويحنه على طلب الاستقلال .

شن أصحاب « المقطم » حملة على النديم فكانوا يبلغون
السلطات أن النديم وإن كان ظاهر مقالاته الاصلاح الاجتساعى
والتعليسى ، ولكنه يرمى الى غرض سياسى ، ويطلبون تطبيق
القانون باغلاق صحيفته ، ويقبل النديم التحدى ويتستر
بالخديو ، فيعلن جهارا أنه يناصر الخديو ، وأنه يخدم أفكاره ،
ويقول عن « الأستاذ » : « انه هو الوطنى الذى لم يفتح ليكون
لسانا لأجنبى أو تضليلا لشرقى ... ليس لصاحبيه مسند ينسبان
اليه الا مسند سيدهما الخديو الأعظم ... وقد وقفا حياتهما
لخدمته ... أما وقد عز عليهما الخدمة الذاتية فهما يخدمان الأمة
المحاطة برعايته لعلهما أن خدمته خدمة لجلالته » (١) .

ويعلن النديم أن مثل هذه الوشايات « لن تصرفنا عن
الوجهة التى توجهنا اليها ، وهى اصلاح ما فسد من أخلاقنا
واحياء ما مات من صناعتنا » (٢) .

واتقل « الأستاذ » خطوة وعلت نفسه طبقة ، فجاهر
بنصرنه للخديو وتأييده لسياسته التى تناهض الاستعمار ، ولم
يعد يهمه أن يقف فى طريقه ما أشاعه أصحاب « المقطم » من أنه

(١) الأستاذ من ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) الأستاذ من ١٦٦ .

سينفى وسيفلق الأستاذ^(١) ، وهم حين يتحدثون إنما يؤخذ حديثهم على أنه صدى لعملائهم البريطانيين ، بل قامت بينه وبين « المقطم » التى تهاجم الحديو وتؤيد السياسة الانجليزية حرب مستترة أو لا تغنى فيها الرموز عن التصريح ، وإن كانت كل الدلائل والأوصاف توضح المراد .

وترتفع نعمة الخصومة والمركة بينه وبين الصحف غير الوطنية وعلى رأسها « المقطم » ، فيكتب النديم تحت عنوان « إنما يقبل النصيحة من وفق »^(٢) فيحذر المواطنين من الصحف التى تدعو الى بذر بذور الفتن بين الأجناس الشرقية وتصلى وتعبد الأمم الأوروبية « وإذا كنت فى مصر ورأيت من يميل لمس حق من حقوق أميرك المؤيد الحديو ، ويوهبك أن صالحه موقوف على ذلك فافرض قوله وحذر قومك منه ، فأنما هو خادع غاش بل عدو ميين ... وما ضرَّ الشرق وفرق جبعه الا أمثال هؤلاء ، فاقرب الى الأفعى ولا تقرب منه ، فانه تاجر ينجر ببيع الأوطان فى سبيل لقمة أو ثوب أو مال »^(٣).

ثم تزداد خطوط المركة وضوحا فى مقاله : « لم يختلف كلمتنا اذا اتحدت وجهتنا ؟ »^(٤) فيكتب عن 'الصحف التى دعت الوطنية وهى فى الواقع تخدم الدول الأجنبية « فاذا بحث نقراء

(١) الأستاذ من ٢١٤ .

(٢) الأستاذ من ٣٦١ - ٣٦٤ .

(٣) الأستاذ من ٣٦٣ .

(٤) الأستاذ من ٣٨٥ - ٣٩١ .

تلك المواعظ وجسدوها دخانا صاعدا من خلال تراب يندور
ياشتعال ما تحته من النيران ... هنالك يتبينون أن أفواه الكتاب
ما انضمت الا على نيوب صل يتحين غفلة النائم ينهشه نهشة
يسرى منها سسه في جميع الأعضاء ... هذه هى حال فريق من
الجرائد فى الشرق بين عربية وافرنجية . ترى كل جريدة انها انما
أنشئت لخدمة الشرق وأهله ... ثم يتبين من خلال عبارات
بعضها ما تخدع به الشرقيين وتدعوهم الى الاستسلام
للدخيل « (١) . ثم وضع الحدود الفاصلة بين الجرائد الوطنية
الخاصة والصحف التى تدعو للاستعمار .

وتسوء العلاقات بين الصحفيين المصريين والنازحين من البلاد
العربية الذين انضموا الى الانجليز يدافعون عن سياستهم ،
ويسميهم النديم بالأجراء ، وتشتد المعركة بين الصحف الوطنية
الخالصة والصحف المناصرة لفرنسا من جهة والمالية لانجلترا
وعلى رأسها « المقطم » من جهة أخرى ، ثم يعلن الحرب على
المأجورين الذين يخدمون الأغراض الأجنبية فى ثوب الوطنية .
ويكتب عن النزلاء الذين أتوا مصر لكسب العيش فاستعانوا
بالقوة الحاكمة فولوهم المناصب وأقصوا عنها المصريين
وأعانوهم على سلب أموال المصريين وتجارتهم (٢) .

ويكتب النديم تحت عنوان : « لو كنتم مثلنا لفعلتم

(١) الاساذ من ٣٨٥ - ٣٨٧ .

(٢) انظر الاساذ من ٤٠٩ - ٤٢٢ .

فعلنا » (١) « أنا أخوك فلم أنكرتى ؟ : ما الشام ومصر الا
توأمان أبوهما واحد ، يسوء الاثنان ما ساء أحدهما ، فلم تنافر
أبناءؤهما وانحاز السوريون في جانب بعيد عن المصريين وان
ساكنوهم في مصر ، ألم يكن الأجدد بنا أن نصرف علومنا
ومعارفنا وقوانا العقلية في صلاح بلادنا وبث روح العلم والحياة
الوطنية فيها ؟ أبراتب قدره عشرون جنيتها يبيع المرء منا أخاه
ووطنه بل جنسه ودينه ، أم بكلمة تغرير نصرف حياتنا في خدمة
الأجنبي لنعينه على اخواننا لينتقم منهم بغير ذنب ويجنى على
غير جان ... ولو اجتمعت كلمتنا وتوحدت وجهتنا واختلفت
قوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم في وحدة الوطنيين
واعلاء كلمة الجنس العربي لحسدتنا المعالي ووقفت أوروبا
تنظرنا بعين الاعظام والاحلال ، ولكن قضت شقوة الشرفيين أن
يكونوا كحطب النار يأكل بعضه بعضا لينتفع الغير بنارهم ...
والأسفاه على رجال قضى آباؤهم الدهور الطويلة يتبادلون
العمران والاستيطان لا يفرق بينهم دخيل ولا يقطعهم عن بعضهم
أجنبي فجاءوا من بعدهم وخالفوا سيرهم وحالفوا غيرهم
وخدموا الأجنبي بمساعدته على التداخل في بلادهم ؛ بل على
الاستيلاء عليها ، لا لعداوة بين الأمتين ولا لحرب جرت بين
الوطنين بل برغيف يحصله الزبال وخرقة يملكها انشاذ .
« وان قيل ان جامعة الدين (٢) اضطرتهم ، قلنا ان عزاء

(١) الأستاذ ص ٥٠٧ - ٥٢٢ .

(٢) يشير الى أصحاب القظم وهم مسيحيون والمستعمرون الاجنبيون كذلك .

الاستقلال بالوطنية خير من الازلال بجامعة الدين ، فان الأجنبي
يغر الرجل منا حتى يصل به الى غرضه ثم يلحقه بغيره عند تمام
الاستيلاء ، ولا يعرف له حقا غير خدمته ، ولا يفرق بينه وبين
من غايه دينا في الاستخدام والاستعباد . أقول هذا وقتنا
فنحصل فيه لذاتنا البدنية البهيمية ولا نبالي جاء المستقبل على
أهلنا واخواننا بالعز أو بالهوان ؟. بشئ ما يختاره الرجل لنفسه
من أن يطعم لقمته مغموسة في دماء جنسه واخوانه ... » (١).

وتحدثت بمقالات النديم في « الأستاذ » المعارضة الصحفية
تقوية ضد الاحتلال ، وأخذت الصحف الوطنية تحذو حذوه
وتسير على نهجه وتببع خطاه (٢) .

رأى النديم تفكك رأى العام وجهله نتيجة السياسة
الاحتلالية فكتب تحت عنوان : « طريقة الوصول الى تكوين
الرأى العام » ، يطالب الكبراء والوزراء بأن يستقبلوا الناس
ويعقدوا الاجتماعات ويناقشوا الموضوعات الاجتماعية
والسياسية ، ويطالب المثقفين والعلماء والكتاب أن يثقفوا الشعب
بالاجتماعات العامة ، ويتصلوا بالجمهور ليشرحوا له حياته
الوطنية وماضيه وحاضره ومستقبله ، ويطالب الشعب بأن يسمع
نهؤلاء وهؤلاء وأن يأخذ حظه من الاجتماعات الرياضية والفنية ،
وأن ينتهز الفرصة ليناقدش ويفهم كل شؤون بلده .

١١ الأستاذ ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

٢١ مصر والسودان ص ٢٠٢ .

وأصبحت نعمات النديم واضحة ظاهرة تهز الأمة ، وتدعوها الى النهوض وطلب حقوقها الوطنية ، وصارت تسخر من أولى الأمر في الأمة الذين أصابتهم الدهشة والرعب بعد الاحتلال ، فانطوا على أنفسهم ولزموا دورهم ، فان تكلموا في الشؤون العسامة فمن وراء حجاب ، وتركوا الناس مبلبة أفكارهم مضطربة نفوسهم دون قادة يقودونهم ، لا يعرفون أين يتجهون. ودعاهم النديم الى الخروج من عزلتهم واختلاطهم بالعامة في المجامع يخطبون فيهم ويشرحون ما حدث وما يحدث ، وهذا هو طريق تكوين الرأي العام ^(١) . وأصبحت لهجة « الأستاذ » ومقالاتها في ذلك السبيل على نمط العروة الوثقى وامتدادا لها. ويعقد النديم المقارنات بين تقدم الغرب وتأخر الشرق ، فيكتب تحت عنوان : « بم تقدموا وتأخرنا والخلق واحد » ^(٢) . ويفند وينفي دعاوى القائلين بأن تأخر الشرق سببه الجو أو الدين أو اختلاف الجنس ، ثم يحدد تقدم الغرب في توحيد لغتهم وادارتهم ودينهم وفي المعاهدات الدولية والدفاع المشترك بينهم ، وفي حرية القول والصحافة والفكر التي تربي الأمم وتعلمها ، وفي البنوك التجارية والزراعة والمالية والحياة الجمركية والاختراعات والتسليم الاجباري والحياة النيابية والمنتديات الأدبية والجمعيات . ثم يقارن بين ذلك وعكسه في الشرق الذي هو سبب التأخر .

(١) انظر الأستاذ ص ٢٨٩ - ٢٩٥ - ٥١٩ - ٥٢٢ .

(٢) الأستاذ ٢٣٧ - ٢٥٢ .

ويطالب النديم بالحياة الديمقراطية وبتكوين الأحزاب على غرار ما يحدث في إنجلترا ، حتى يكون هناك هيئة مشرفة محاسبة لما يفعله الحكام وحتى تنتهى الديكتاتورية الشرقية^(١) ، « فعلينا معشر المصريين خصوصا والشرقيين عموما أن نبحث في طرق أحزاب أوروبا وروابطهم وكيفية سيرهم وموجب استمرارهم على ما هم فيه ، ونقلدهم بسير لطيف مع التزام الهدوء والمحافظة على حقوق الأجانب والنزلاء والاتباه لدسائس الدخلاء وفتن الأجراء ، ولتكن لكل فريق جرائد تنشر أعماله وتؤيد أقواله وتنبه على ما يجب اتخاذه مما تراه صالحا آخذة أفكاره عن مجموع أعمال الحزب أو آراء عقلائه »^(٢) .

ويزداد انتشار « الأستاذ » وتصبح أكثر الصحف انتشارا اذ يطبع منها ٣٠٠٠ نسخة في كل أسبوع^(٣) .

كان الشعب يزداد جبا والتفافا حول الخديو حين كان متحمسا أول أيامه لاستقلال البلاد ، وكان رئيس الوزراء آنذاك مصطفى فهمى عميل الاستعمار الأول وخادمه الأمين لا يعبأ بالخديو فأبغضه عباس وأقاله وعين مكانه حسين فخرى باشا ، ولكن اللورد كرومر ثار ، وأرغى الأمد الانجليزى

(١) في مقال تحت عنوان : «أشبات الشرق وعصبيات أوروبا» ص ٥٧ - ٤٦٧ .

(٢) الأستاذ ص ٤٦٤ - ٤٦٧ .

(٣) الأستاذ ص ٥١ انظر أيضا زيدان ، تاريخ مشاهير ج ٢ ص ١١٠ .

وأزبد لأن الخديو لم يستشره وتصرف دون اذن منه ، وهدد بعزل الخديو وباستقدام قوة جديدة من الجيوش الانجليزية لتفرض سياسة الاستعمار بالقوة ، وطال الأخذ والرد بين الخديو ومدوب الاستعمار وأخيرا حلت الأزمة بأن عين رياض باشا مكان حسين فخرى باشا .

كانت هذه الحادثة الحد الفاصل بين حذر النديم ومدارته في كتاباته وبين سفوره وكشف النقاب عن سياسته في محاربة الانجليز المستعمرين واتهم النديم الفرصة وأظهر للشعب نيات الاخلال .

فقد دخلت إنجلترا مصر مدعية أنها تعيد حقوق الخديو انيه وعملت بقاءها بالمحافظة على حقوق الوالى الشرعى . ولكنها اليوم تفتت على هذه الحقوق ، فتتزع منه حق اختيار رئيس وزرائه ، وتفرض عليه الوزراء الذين تريد لهم ليخدموا أغراضها .

وظهرت « الأستاذ » وسط الأزمة تهاجم في شدة وعنف الاستعمار في صورته الجديدة وتدخله في شؤون البلاد . وتدد بأذئاب الاستعمار ، في مقال كتبه النديم تحت عنوان « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » ^(١) ، وهو مقال في ٢٦ صفحة كتبه في أسلوب ثورى ملتهب ندده فيه بالغرب وأساليبه في استغلال الشرق ماليا ودينيا وسياسيا ، وافساده الأخلاق وسعيه الى اقسام الأمة .

(١) الاسناد ص ٥٠٧ - ٥٢٢ .

وصار يعدد فى هذا المقال ما فعلته انجلترا فى مصر من استئجار صحافة مزيفة لتوطد دعائهما فى البلاد وتقتل الروح الوطنية فى المواطنين ، وفى سلب الادارات من المواطنين واستعمال المصريين أداة فى تنفيذ مآربهم وقتل الروح المعوية فى عواطفهم وبليلة أفكار الأمة .

وتحدث النديم عن طريقة حكم الأوربيين للشرق واستعمال أهله فى تنفيذ أغراضهم ليأمنوا لوم الدول ، وابعاد المصريين عن الوظائف ، واعطاء المشروعات للأجانب ، وصرف ملايين الجنيهاات على جيش الاحتلال ، واقلال عدد المدارس وتغيير اللغة العربية بلغات أجنبية . تحدث عن كل ذلك ، وأن ذلك كله حدث بيد عملائهم المصريين .

وكرر لوم المنقفين وذوى الرأى فى البلاد ونعى عليهم جبنهم وخوفهم وانصرافهم للذانهم واحتجابهم فى منازلهم ، وطلبهم بالخروج للتسعب « ليحدثوا فى البلاد عصبية وطنية لا تردها أعظم أمة عن مشربها المصرى وسعيها المؤيد بربط القلوب على عزيمة صادقة ، وما الذى استفاده النبهاء المصريون من الأخلاط والأمشاج غير تقدم الغير وتأخرهم واتخاذنا بيت مال لفقرائهم وعجائزهم ... دعونا من المجاملة فى الكلام والتستر على ما استهجنه العقلاء . فما ابتدعت المحافظ الا لتصير الممالك دستورية . وقد نجحت فى ذلك وقلبت كثير! من ممالك أوروبا ، وحيث نزع أننا بين يدى حكومة دستورية فلم لم تؤيدها بعصبية وطنية ... فان بقى الأمراء فى البيوت

والنبيهاء فى المحافظ على ما هم عليه والعقلاء صامتين والضعفاء طائرين حول أوهام الأجنبى وارهابه ... فلا تعترض على بربر افريقيا — فضلا عن الانجليز — اذا جاءوا واستعسرونا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلاتنا^(١) .

وحتى هذه الأزمة التى حدثت بين الخديو ولورد كرومر كان النديم لا يهاجم انجلترا هجوما سافرا ولكنه كان دائما يكرر أن استقلال مصر من رغبات انجلترا ، وأنه يسرها أن يلتف الشعب حول خديويه لنيل الاستقلال « ألم تدخل مصر بدعوة من الخديو لحفظ ملكه ؟ » .

ولعله كان متأكدا من أن الهجوم على انجلترا هجوما صريحا سيضع نهاية له ولجريدته ، فاتخذ هذه الوسيلة كى ينجو من العقاب . ولكنه بعد هذا الحادث انفجر مرجل الغضب المكبوت فى قلبه وشعوره ، وصار يثير الحسم المخزون من هزيمة الثورة الأولى ، فذكر المواطنين بها ، وأخذ يعير أولئك الدين فرحوا بدخول الانجليز فيقول : « كلكم فائل ييدى لا بيد عمرو . مضت السنون العشر التى قابلتم غرتها بالأفراح وطرتم فيها حول الأوهام طريا وسرورا وعميتم عن سوء العاقبة . فأنشد شعراؤكم القصائد الطنانة الرنانة مدحا وثناء ، وشربتم الخمر جهارا باسم من استعديتموهم على بلادكم ونصرتموهم بتشيط اخوانكم ، وبذلتهم أموالكم وأرواحكم فى دخولكم

(١) الأستاذ ص ٥١٩ — ٥٢٠ .

البلاد والتخلي لهم عسا بأيديكم من الأعمال ، وطالما طأطأتم
الراءوس وحنيتهم الظهور وركعتم أمامهم تعظيما وتسليما ،
وبصستهم على وجوه اخوانكم ^(١) ، ولبستم أجمل ثيابكم
تنتظرون يوما يقتل فيه ١٠٠ ألف مصرى . فهذه الأيام تريكم
كيف تدور الدوائر وكيف تنقلب الأحوال بالأحوال على من لم
يفرأ العواقب ومن يلقي بنفسه بين نيوب الصل خائفا من
العقاية (السحلية) . فقد أبدلت المصائب اللوائم الأجنبية
بالمآثم الفقرية ، ودعتكم لتكسير أعواد الطرب والسرور وضرب
دف النذب والرتاء ، هل تجزون الا ما كنتم تعملون ؟ ^(٢) » .

ويتساءل النديم : ألم تدخل انجلترا لتجعلنا قلع الأوربيين
في حياتهم ؟ ثم يطالب بتقليدهم في طلب حقوقهم في الحرية
والحكم الذاتي . فيدعو الأمة الى أن تثبت رغبتها في طلب
حقوقها بالتظاهرات الأدبية : « فأى مانع يمنع المصريين من
المطالبة بحقوقهم بالتظاهرات الأدبية . أصرنا أقل درجة من فعلة
الانجليز والغزالين الذين تعصبوا لحقوقهم وتجمعوا لراحتهم
وأذهلوا العالم بأفعالهم ...

« فيا بنى مصر لم تبق قطعة من الأرض الا والجرائد تنقل
لكم أخبارها وتريكم أعمالها في طلب استقلالها ، ليعد
المسلم منكم الى أخيه المسلم تأليفا للعصبية الدينية ، وليرجع
الاثنان الى القبطى والاسرائيلى تأييدا للجامعة الوطنية ، وليكن

(١) يشير الى الدين بصقوا في وجوه العراقيين وهم في السجون .

(٢) الأستاذ ص ٥٢٠ - ٥٢١ .

المجموع رجلا واحدا يسعى خلف شيء واحد هو حفظ مصر
للمصريين ... (١) .

وتخرج « الأستاذ » على الشعب بهذه الأفكار وسط
الأزمة ، ويتردد صداها في أرجاء البلاد ، فيلتهب شعور
الشباب ، وتخرج المظاهرات لأول مرة بعد الاحتلال تطالب
بالجلاء وتهتف ضد الاستعمار ، وتؤيد الحديو في موقفه ،
وتهرع وفود الشعب من كل طائفة الى قصر عابدين ، « فأقبلت
وفود الأمة من العلماء والأمرء والأشراف وأعضاء مجلس
شورى القوانين والجمعية العمومية وقضاة المحاكم وكبار
الموظفين والأعيان والتجار ، جاءوا مدفوعين بشعورهم الوطنى
لتأييد الحديو في موقفه (٢) » .

وتلهب مقالات النديم ضد الصحافة المأجورة الشباب وعلى
رأسهم مصطفى كامل الطالب بالحقوق فتسير مظاهراتهم في
شوارع القاهرة وتوجه الى دار « المقطم » فتهاجمها وتحرقها
لنزعتها الاحتلالية وانحيازها الى الانجليز ضد الوطن والحديو (٣)

وشنت الصحف البريطانية ، وعلى رأسها التيمس والديلي

(١) الأستاذ ص ٥٢٦ .

(٢) التيمس ١٨٩٣/١/٢٠ .

(٣) تفصيلات انظر : مذكراتى في نصف قرن ج ٢ ص ٥٧ - ٧٦ ، التيمس

٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ / ١ / ١٨٩٣ .

تلفراف والمورننج بوست والاستاندارد والديلي نيوز ، حملة على المصريين وعلى الصحافة الوطنية واتهمتها بإثارة التعصب الدينى فى البلاد .

فكتب النديم فى العدد التالى من « الأستاذ » ^(١) عن « الحقوق المقدسة » بين حقوق خديو مصر الخاصة والعامّة وأحقّيته فى تعيين الوزراء والحكام فى بلاده ، ويهاجم تهديد انجلترا بعزله عن العرش ، ويفصل الأزمة وتطوراتها ، ويعتبرها انتصارا للوطنية كلها ، ويطالب الشعب بالهدوء حتى لا تستغل انجلترا سلاح التعصب الدينى الذى ترفعه أوروبا فى وجه أمة دولة اسلامية تطلب استقلالها قائلاً : « فأقدم خالص النصيحة لآخوانى المصريين على اختلاف أديانهم أن يقرأوا العواقب ، وأن يبعدوا عن كل ما يكدر الراحة ، وأن يعاملوا الأوربيين المعاملة الحسنة . وبهذه المعاملة يظهر لنا الفرق بين التمسك بالدين والتعصب ، فإن التمسك بدينه يعاشر النزول والمجتاز بالحسنى مع محافظته على أصول دينه وفروعه ، فإذا انتهى من اجتماعه بغيره ذهب الى معبده الخاص به . والمتعصب يحمل الغير على الأخذ بدينه ويلتزم الطعن فى دين غيره ، فيهيج النفوس ويحركها للعدوان . وهى طريقة ما سلكها المصريون خصوصاً ولا المسلمون عموماً من عهد ظهور الاسلام الى الآن » .

(١) ١٨٩٢/١/٢٤ .

ويرد على الصحف البريطانية وتابعتها « المقطم » تحت عنوان « لا دليل على دعوى تهديد الأمن ^(١) » . وينقض دعوها أن الأمن العام مهدد ، ويقدم الدليل على كذبها واقترائها ، ويصف مقتريات تلك الصحف بأنها فول لا يقوله الا من يسوءه انتظام أحوال المصريين ومساواتهم للأمم في الأعمال المدنية والمحافظة على سلطة حاكمهم ، وهل يعد حضور وفود الأمة لتعبر عن تأييدها لحقوق الأمة الوطنية والدستورية اخلالا بالأمن ؟ اما الذى هدد الأمن ما أرجف به المرجفون منهم وطنطنت به جرائدهم المهيجة ومقترياتها . ومن الغرب أنسا نسمع عن أوروبا أن النهليست (Nihilists) تظاهروا وفتكوا بالملك ، والسوشاليست (Socialists) الاشتراكيون فعلوا كذا ، والكمون (Proletarians طبقة العمال) فعلوا كذا ، وحزب كذا تظاهر بكذا ، والغزالين توقفوا عن العمل ، وفعلت الفحج أبوا الا زيادة أجورهم وقوضت دائرة كذا بالديناميت ، وتظاهر الارلنديون بالسلاح ضد البوليس ... ثم من العجيب ألا يعد سعى الأحزاب في قلب الدول ولا قتل القيصر المحترم ولا هدم الأماكن بالديناميت تهديدا للأمن العام ، وتعد زيارة الأمة لأمرها تشويشا للأفكار وسلبا للأمن العام موجبا لزيادة الحامية .

« أصرنا أقل درجة من الزلوس والأوغنديين حتى نهدد

(١) الاستاذ ١/٢١/١٨٩٢ ص ٥٥٥ - ٥٦٣ .

بدعوى التهديد ولا نعرف ما نحن عليه ولا نفرق بين الأمن والخوف « ان هذا لهو البلاء العظيم » .

« والذي ينبغي أن يعرفه أصدقاء المصريين ليقفوا على سبب فرحهم ... هو أن المصريين كانوا يعدون زيادة سلطة الأجنبي وتوسعه في اختصاصاته الادارية واستبداده بحال المصرى وأحكامه أمرا حاصلا برضا أميرهم المرحوم توفيق باشا ، فلهذا لم تسع منهم كلمة معارضة لأى أجنبى استبد عليهم فى مدته ، فلما رأوا حضرة الخديو الحالى سعى فى أمر هوله بمقتضى فرمان وراثته وفرسان ولايته ، وقوبل فيه بشبه المعارضة علم المصريون أن تلك الاجراءات التى سبقت كانت بسلب الغير حقوق مسند الخديوية واستئثار الدخيل بما يراه صالحا لنفسه ودولته لا لمصر ولا للمصريين ...

« ولو نظرنا الى الجرائد غير المتشيعه لرأيناها سالكة طريق الاعتدال معلنة بأن الأمن العام لم يمس بشئ ، فهذه جرائد « الوطن » و « الأهرام » و « الاتحاد » و « البوسفور » و « المحروسة » و « الفار » وغيرها تنادى بأن الأمن قوى الأركان ، فضلا عن الجرائد الاسلاميه « كالمدينة » و « النيل » فلم يبق الا الشاذة التى غرست الأحقاد فى القلوب ^(١) ونفرت المصريين من الانجليز وأعمالهم بسوء سياستها وتظاهرها عليهم . وهذه عادة الأحقق يريد أن ينفع صديقه فيضره من حيث لا يشعر » .

(١) يريد « المقطم » .

ونظم الديلم القصائد محذرا الشعب من صنائع الاستعمار
الذين أحدثوا الفركة بين أبناء الأمة وفي احداها يقول :

وحانسوا أناسا أشربوا حب غيركم
وهم منكم لكن يسرهم الشر
مثالهم بعض الأولى أنشأوا لكم -
جرائد يزهو في صحائفها السطر
ومن بات مسرورا بخدمة غيركم
ومثر له من فضل أعدائكم وفر
ينادونكم للغير باسم صلاحكم
وسم الأفاعى في صناعتهم حبر
أزيلوا بنى ودى تنافركم ولا
تميلوا لما ضر الصدور به الغمر
تنافركم بالدين ينثر جمعكم
ويجعلكم نوقا يشردها النبر
مذاهبكم شتى وكل دينه
قرير عيون لا يحوله النعر
فليس لكم الا المواطن وحدة
وليس لكم الا عزائمكم مهر

ونادوا بأن الشرق حر وأهله
وسيان في الماوى التعمم والزّنر

ولا تجعلوا حرية الدين ضيلة
وسيراً مع الأهوا فذاك هو الوزر
بل القصد أن نمشي على أصل ديننا
فلا ينتحى نهى ولا ينتفى أمر
ولا تجعلوا التوحيد سوء تعصب
على النزلا لو كان دينهم الكفر
ففى ذمة السلطان قوم اذا دنوا
من العدل والانصاف صانهم الوزر
وان جنحوا للغير ضيقا بفعلكم
جرى خلفنا من كل ناحية عقر
فلا ملك الا بالمساواة والاخا
ولا حر الا من تنكره الحجر (١)

ان لمقالات النديم الوطنية وقصائده أثرها فى الشعب ،
فظهرت حركة شعبية جديدة هى امتداد للحركة القومية
السابقة ، أو هى المرحلة الثانية من الحركة الوطنية الأولى ، غير
أنها فى هذه الفترة كانت تحارب الاستعمار . وقاد النديم الطور
الثانى من الحركة الوطنية ممثلة فى المقاومة الشعبية
للالحتلال (٢) .

(١) الفريدة كاملة الاستاذ ص ٥٦٤ - ٥٦٧ .

(٢) انظر التيمس ١٨١٢/١/٢٥ .

وطالب النديم الأمة أن تنبصر في سياسة الاستعمار وكيف
أنها أدت الى فساد الأداة الحكومية فقال : « اننى أرجو مواطني
أن يجعلوا كلامهم فى الاحتلال كلام الحكماء الذين يبحثون فى
الحقائق بفكر صائب . فان انجلترا دخلت مصر لتأييد الخديو
ووضع حكومة ثابتة كمشورها الدولى ، ولم تقل يومها انها
دخلت بقصد الاستيلاء على بلادنا ، وعللت الانجلاء باتمام
ما دخلت من أجله ... وهى الى الآن وبعد ١٠ سنوات ترى
الحكومة غير نظامية ، وما ذلك الا لأنها وضعت معظم اداراتها
فى أيدي الأجانب ، ولم تمكن المصريين من اصلاح بلادهم تحت
مراقبتها ، فاختلت البلاد وفسدت الادارات ، فان كان مرادها
افساد البلاد فقد أفلحت ، أما اذا كانت تريد صلاحها وتسليها
لأبنائها فكيف يحدث ذلك وهى لا تستعمل أبناءها فى الحكم
وتبعدهم عن الادارات ودولاب الحكم ؟ » .

وتحاول « المقطم » أن ترد على النديم فتدعو للسياسة
البريطانية وتلغى أن تنظيم الأداة الحكومية وادارتها لم تعرفه
مصر الا على يد الانجليز ولم تعرف مصر المدنية الا على أيديهم
أيضا ، والمصرى بطبعه غير قابل للاصلاح ولا لحكم نفسه
ولا للاستقلال بالأعمال^(١) .

ويلقها النديم حجرا ، ويفحمها فيما ادعت بالحقائق الدامغة
فيكتب سلسلة من المقالات تحت عنوان « حالنا أمس

(١) انظر المقطم ١٥/٢/١٨٩٢ .

واليوم (١) « يفتتحها بقوله : أكبر عجائب مصر أن كل وارد عليها وكل مسترزق فيها من الغرباء يطعم في كرم المصريين وطبيعة نفوسهم ، ويدعى أنه أقدر على مديتها وأحق بإدارتها وأولى بتجارها ، وأقل كلمة يحيى بها المصريين : لستم أهلاً للقيام بأعمالكم ولا تدرون طرق الإصلاح وأحكام النظام . وهى كلمة أقلق المصريين ونبت كل مولود فى عاصمة العلوم والسياسات الأولى ، فلذا أخذ المجموع المصرى يتذاكر فيما كان عليه بالأمس وما صار إليه اليوم ... وقد التزمت جرائد الأجراء تحويل الأفكار بما تنسبه لغير المصريين من الأعمال وما تدعيه من الإصلاح . وفى الناس من أدرك القرن الماضى (٢) ورأى ما كان فيه من الأعمال وعرف من قام بها من الرجال . »

ثم يفصل النديم تاريخ الحكومات فى مصر وتنظيمها بعد الاحتلال الفرنسى ونهضتها ورجالاتها الذين نبغوا فيها والصناعات والادارات المختلفة التى نشأت فيها والإصلاحات والتنظيمات التى أحدثها المصريون الذين تعلموا فى أوروبا فى النواحي التعليمية والصناعية والزراعية ، كتب النديم كل ذلك بالتفصيل : « تطهيراً لأفكار الشسبان من الأقذار والأكاذيب والمفتريات التى سلبت نسبة تنظيم البلاد عن المصريين وألحقها بالأجانبى زوراً وبهتاناً . ولترشد الآتى الى معرفة فضل آبائهم ومجدهم . »

(١) الاستاد ص ٦٤٣ - ٦٦٢ يلاحظ خطأ ترقيم الصفحات فى هذا العدد

١٨٦٣/٢/٢٨ وكان يجب أن تكون ٦٥١ - ٦٧٠ انظر أيضاً ص ٧٢٩ - ٧٤٣ .

(٢) يقصد أوائل القرن التاسع عشر .

وفقدت السلطة الانجليزية هيبتها في مصر بعد أزمة يناير ١٨٩٣ فأرادت أن تستعيدها ، واتبعت لذلك طريقتين أولاهما : زيادة قوة الاحتلال تهديدا للخديو وللشعب^(١) ، وثانيتهما : محاولة التقرب من الشعب نفسه ، فصار كرومر يدعو الناس من مختلف الطبقات الى حفلاته ويتبسط معهم في الحديث زاعما لهم أن عباس سيعود بالدكتاتورية الى عهد الأتراك ، وأن الانجليز يسعون لمصلحة الشعب^(٢) .

فكتب النديم مقالا تحت عنوان « هذه يدى في يد من أضعها ؟ » جاء فيه : « ضعها في يد وطنيكَ ... والا فقطعها خير من وضعها في يد أجنبي يستميلك اليه بوعود كادبة وحيل واهية يظهر لك سعيه في صالحك وحبه لتقدمك وبرهيك بأوهام لا توجد الا بينك وبينه ويضلك بنسبة أمراك للقصور وحكامك للجهل والظلم ، ويصور لك الأباطيل في صورة حقائق حتى يخدعك به ويحول أفكارك الشرقية الى أفكار غربية تأخذها وتقول بها فتكون يده القوية وعونه الأكبر على ضياع حقوقك واذلال اخوانك واحتلال بلادك » .

ثم تكلم عن سياسة الانجليز في الوعود التي لا تتحقق .

و ضرب الأمثلة بالهند التي يعدونها كل عام بالجلاء ولم يحققوا وعدا واحدا مما وعدوا^(٣) .

(١) أحمد شوقي ، مذكراتي في نصف قرن ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) تفصيلات : انظر الاستاذ ص ٦٩٥ - ٦٩٦ .

(٣) الاستاذ ٦٩٨ .

أحسن كرومر بخطر « الأستاذ » وقوة التأثير التي تحدثها مقالات النديم العدائية للإنجليز ولسياستهم في البلاد وتهيجها الشعب لطلب الاستقلال ، وأيقن أن « المقطم » وأنصارها لم تعد تقف أمام هجمات النديم ، ومنذ هاجمها هجرها القراء المصريون ، فرأى أنه لكي تستقر له الأمور في البلاد لابد أن يسكت هذا القلم ، فأوعز الى رياض باشا رئيس الوزراء أن يرسل انذارا الى « الأستاذ » بالعلق اذا تعرض للسياسة ^(١) .

واتخذ صنائع الاستعمار من هذا الانذار قوة وسندا وراحوا يروجون الاشاعات بنفى النديم ويهاجمونه ، ويدعون للاحتلال .

ولعل النديم كان مطمئنا الى تأييد الخديو له فلم يلق بالا الى الانذار وكان رده عليه « أن الأستاذ ممتع بالحرية التي تتمتع بها البروتستانت في نشر جريدة دينية باللغة العربية تتكلم على الدين المسيحي بحرية تامة ، والتي تتمتع بها صحف الأجراء في تكلمهم على أحوالنا بما تهواه أنفسهم وما يوعز به المستأجرون ^(٢) » .

ووقت الصحف الوطنية الى جانب النديم تشد أزره وتهاجم « المقطم » والصحافة المأجورة ، وبلغت المعركة أشدها بين الوطن والمؤيد وبقية الصحافة الوطنية من ناحية يقودها

(١) انظر التيمس في ١٨٩٢/٣/٢٠ .

(٢) الأستاذ من ٧٩١ - ٧٩٢ .

« الأستاذ » وبين المقطم والبروجريه والجازيت من ناحية أخرى ، تدعو الأولى الى جلاء الاحتلال وتأييد الحديو ، وتدعو الثانية الى بقاء الاحتلال والى تحقير الحديو الصغير .

وزادت المعركة سعيرا بين النديم وبين الانجليز والمقطم فى مقالته « عن أقتدى اذا اختلفت الآراء ؟ » . وطالب فيها الشعب بالاعتداء بالمخلصين من المواطنين والاستماع لأقوالهم حتى تنضج أفكارهم ويستحقوا الاستقلال الذى يطالبون به ، وهاجم أصحاب « المقطم » وسماهم النازحين الأجراء .

وبدأ الاستعمار يستعمل لغة القوة والتهديد وحرب الأعصاب فى تخويف الأمة فيستعرض قواته ويزيد من عددها . وأشارت « المقطم » الى ضعف الحديو والمصريين أمام قوة بريطانيا ، وأخذت تبث الخور وتثبط الهمم والنفوس . فكتب النديم تحت عنوان « حرب الأقلام بجيوش الأوهام » (١) يرد عليهم بأن القوة لن ترهبهم فى طلب استقلالهم ، وأن الضمير العالمى سوف يساندهم . وكشف الأوهام التى كانت تضعها انجلترا فى آذان الشرقيين من أنها محبة لهم وللسلام وتسعى فى مصلحتهم . « وقد تبين أن تلك الكلمات كانت بروقا خلافة ، وحيلا استمالوا بها النفوس ... وقد انكشف الغطاء ووضح الصبح لذى العينين وأيقن أن القصد الاستعباد بسوط الاستبداد » .

واتهمته « المقطم » و « البروجريه » بأنه يعد لثورة كالثورة

(١) الأستاذ من ٧٩٢ - ٧٩٦ .

العرايية ، وأنه يحرك الضغائن بين المصريين والأجانب ، ونصحتنا الانجليز بأن يأخذوا حذرهم منه وأن يسكتوا لسانه . وشهرت به الصحف الانجليزية وكررت اتهامه بالتعصب الدينى . فرد عليهم بمقاله : « هذا عندكم فما مقابله عندنا ^(١)؟ » فند فيه دعوى الصحف الانجليزية وأنها على غير أساس وجاء فيه : « كثيرا ما ترمينا جرائد انجلترا بالتعصب الدينى تشويشا لأذهان أهلها وترويجا لأفكار سياسيتها التى تبعثها المطامع الاستعمارية . ولو تأملنا حال المسلمين وقابلنا بين سكونهم وعدم تعرضهم لدين غيرهم وبين سعى غيرهم فى تنصيرهم لرأينا أمرا يذهل العاقل ويحير الأفكار بهذه الدعوى الباطلة ، فأننا لم نسمع أن مسلما دخل أوروبا لدعوة أهلها للإسلام ، ولا أن جمعية عقدت لنشر دين الاسلام بين النصارى ، ولا أن أناسا اجتمعوا للبحث فى كيفية اخراج النصارى من دينهم ، ولكننا نرى ونسمع هذا كله فى أوروبا ، ومع ذلك يقول عنا ذوو المطامع الملكية أننا متعصبون تعصبا دينيا ، والله يعلم أن هذا التعصب لا رائحة له فى جميع بلاد الاسلام وأنه لا يوجد الا بين رجال أوروبا » .

ثم يؤيد قوله بنفقرات من تقرير جمعية التوراة الانجيلية الانجليزية عن عام ١٨٩٢ وما أفتق على التبشير من ملايين الجنيهات وما طبع من ملايين الكتب لنشرها فى جميع بلاد العالم وبين جميع الأديان .

يلاحظ أن العدد ٣٦ من الأستاذ الصادر في ٢/٥/١٨٩٣
أن مقالات النديم السياسية قد اختفت ، ولم يظهر فيه بقلم
النديم الا زجل عنوانه « النشأة المصرية » يردد فيه هجومه على
« المقطم » والصحف المأجورة ويعدد الصحف الوطنية التي
تدافع عن البلاد ويمدحها ومساءجاء فيه :

انظر الى بلد الاخير مصر الامصار تلقى الجميع عرف الصدمة
واتنبهت كل الافكار من دى الاسرار والخبر قد عم الأمة
وادخل مجامع اعيانه مع نسبائه تلقى الجميع قام من نومه
دارت دوايب الافكار حول الانكار على فعال اهل التهمة
والكل قد عرف الاعداء بين الاندا والى يريد مقتنؤ بلومه
دبت حرارة الوطنية في الجمعية والكل خايف من ذمه
ما احلى اجتماع شبان مصر في ذا العصر بسر توحيد الكلمة
حملت جموعنا الادبية ع العصية كتره كلام ناقض النمة
وحط اعداء ذموهم بل ستموهم وغنونوهم باللخمة
قالوا رجال مصر العرفا مثل الضعفا ما يعرفوش غير البرمة
والشيخ والسبان ناموا بل لو قاموا ما كان قيامهم غير زحمة
اثر كلامهم في العقلا ويا النبلا فما رضى حد بنسمة
ومن يرى شتم اللؤما لبنى الكرما ونام على فرش غمة
انظر لتبانا الظرفا ابنا اللطفا وضمهم مثل الحزمة
والى استعانوا بجرايد بتدى فوايد تخلص الشيخ من وهمه
ردوا كلام جمع الغربا عمن طربا جهلا بتسوين النعمة
وبينوا غش الاجرا والكل جرى يدى النصائح من حزمه
فنبهوا فكر الأمة بعد النومة وحركوا اهل الهمة
وحياة ابوك بكره تسمع عن ذا المجمع لما تجى اوقات غمة
شوف « المؤيد » ولسانه حسن بيانه تكلم العدا احسن نكمة

أما «الوطن» حرك أهله تشرب نهلة وتقوم بأحكام الخدمة
للله در « المحروسة » دى المأنوسة حفظت حقوق كل الأمة

ثم صار يعدد الصحف الوطنية فذكر منها : الأهرام ، والنيل ،
والآداب ، وفرصة الأوقات ، والفلاح ، والاتحاد ، والنديم ،
والهدى ، والشرائع ، والمهندس ، وحكمت ، والحقوق ، والهلال ،
والنجاح ، والرشاد ، والراوى ، والمدرسة ، والفوائد ، والمحاكم ،
والتلميذ ، والزراعة ، والرياض ، والفتاة ، وأشار إليها بقوله :

هذى الجرايد المصرية صافية النية والكل خالى من ذمة
خدموا البلاد خدمة صادق غير منافق يحفظ لأوطانه الحرمة
والله يصلح أحوالنا مع أقوالنا ويدرك الناس بالرحمة
ويزحزح الأعداء عنا لو كانوا منا ويبدل النعمة بنعمة
فكل سئء عنده بيمقات فى الأوقات وكل شئء فعلو لحكمة (١)

ولعل تطور الحوادث يفسر هذا التغيير وهذا الصمت المفاجئ
فى « الأستاذ » ، فقد اختلف الحديو الجديد والدكتاتور القديم
رياض على طريقة الحكم ، كل منهما يريد أن يستأثر بالسلطة ،
وتتج عن ذلك الخلاف انضمام رياض الى السلطة الانجليزية
ضد الحديو ليحتى بها ولتكون له ظهيرا . ورياض يعلم أن
« الأستاذ » على رأس الصحف الوطنية المطالبة بأن يكون
الحديو لا الاستعمار مرجع السلطة ، ومن ثم أرسل إليها انذارا
ثانيا بأن لا تتعدى أغراضها الأدبية والعلمية (٢).

(١) الزجل كاملا : الأستاذ ٨٥٨ - ٨٦٢ .

(٢) المقلم فى ١٨٩٢/٥/٢١ .

ولكن كانت قد بدأت ربح الثورة على الحكم الانجليزي. تنتشر في حديث الناس واجتماعاتهم وأعادت اليهم مقالات النديم ذكرى جهادهم ، وظهر أنصار عرابي من جديد وجاهروا بحركتهم الوطنية « وأعاد لهم نديم النعمة الوطنية والحرية المفقودة ... ودعاهم الى الثورة والامارة تحبوه بما يقوم بأوده ويطلق لسانه ... فطرب لنغماته الشعب وعرتهم هزة الثورة » .
وقل كل هذه الأخبار أصحاب « المقطم » في مبالغة الى لورد كرومر وأدخلوا في وهمه أن النديم هو الخطر على انجلترا في مصر « وأن له أشياعا يأترون بأمره ويسرون تحت علمه ؛ وأنه كان سبب الثورة العرابية ، وأنه ان ترك حرا سوف يعيد الثورة على العهد الحاضر » وما زالوا به حتى اعتقد كرومر أن النديم اذا داوم على نشر الأستاذ حدثت ثورة في البلاد ، وأراد كرومر اجتتاب الثورة فطلب الى الخديو تقي النديم لأله يثير روح التعصب الديني في البلاد^(١) .

وتلقف أصحاب « المقطم » هذا الخبر ، فأشاعوا تقي النديم واغلاق « الأستاذ » ، وحتى يؤدوا رسالتهم للاستعمار طلبوا من عميده أن يوعز الى رجال البوليس والادارة أن يوزعوا المقطم بالقوة بدعوى أنها رسمية ، وأشاع وكلاؤها وأصحابها في البلاد بين الموظفين في المصالح والادارات أن من لم يشترك

(١) ولي الدين يكن - المعلوم والمجهول ج ١ ص ٢٧ ، انظر ايضا ص ٢٩ -

فيها أو يرفضها ناله ضرر في معاشه وربما تعطلت مصالحه في الحكومة أو صودرت أملاكه^(١).

ونفى النديم اشاعة نفيه في مقاله « صبر جميل »^(٢) وهاجم مصدرها وهي الصحافة الاستعمارية فقال : « ونحن ننادى في متارق الأرض ومغاربها أننا من رجال الهيئة الوطنية المسؤولة برعاية الحضرة الخديوية وحياطة الحكومة المصرية ، لا ننطق بكلمة ولا نتحرك حركة الا وهي أعلم بها ، وكذلك رجال بريطانيا يعلمون من حركاتنا وسكناتنا ما هو مقرر بالتقارير المتتالية ممن لا نخطو خطوة الا وهم على أثرنا ، ولا يليق بدولة كدولة بريطانيا أن تحجر على زيد ما أباحت لعسرو ، أو أن تبعد سيبويه (النديم) لتنفق بضاعة نعطويه (المقطم) وعلى كل فإن ما أرجف به المرجفون من ابعادنا عن أوطاننا محض افتراء وكذب لا يكون في حكومة نظامية مقيدة بمجالس قانونية ولا تستبد عليها بفعل من الأفعال » .

ورفض الخديو أول الأمر طلب كرومر نفي النديم ، واتخذ النديم من هذا الرفض مصدر قوة له فعاد أقوى من ذي قبل ، وهاجم الطريقة التي توزع بها « المقطم » بعد أن قاطعه القراء ، بواسطة التهديد بين الموظفين والأعيان والعمد ومشايخ البلاد ، ونفى دعوى مروجيها أنها الجريدة الرسمية ، وهاجم وكلاءها

(١) انظر الامتياز ص ١٠٥ .

(٢) الامتياز ص ٨٨٦ - ٨٩٥ .

الذين يدعون « أن من لم يشترك فيها أو اشترك فيها وأعادها دون قراءة ناله ضرر في معاشه وربما تعطلت مصالحه في الحكومة أو صودرت أملاكه » في مقال تحت عنوان « الحمد لله »^(١) جاء فيه : « ولكل فرد ألزم بأخذ بعض الجرائد أن يردّها حتى على رئيسه الذي ألزمه بها ، فإن أعيدت إليه كان عليه أن يقدمها لدائرة من دوائر الحكومة ومعها ورقة الشكوى ، ولا يخشى مستخدم أو شيخ بلد أو عسدة على وظيفته ان رفض جريدة لا يريدّها لأنه رآها ضد حكومته أو لا توافق مشربه . » و فرّق النديم بين الصحف الوطنية التي تجب قراءتها والصحف المأجورة التي تهاجم الوطن وتؤيد الاستعمار والتي تحرم قراءتها شرعا ، وأفتى النديم بكفر من يقرأها وخيائته لوطنه ، وطالب بمقاطعة من يقرأ هذه الصحف الاستعمارية .

ثم هاجم انجلترا لأنها تعتمد على الأجانب المرتزقة في شؤون البلاد ولا تعتمد على المصريين ولاستماعها الى « دعوى ادعاها بغرض المصريين (صاحب المقطم) بأنهم لا يصلحون لعمل ولا يحسنون التصرف في الأمور » .

وحين نشرت « المقطم » و « الجازيت » و « البروجريه »^(٢) خبر تقى النديم وطالبوا بتنفيذ ذلك وإغلاق جريدته^(٣) ، بلغ

(١) الأستاذ ص ٩٠٦ - ٩١٨ .

(٢) المقطم ٩ ، ٢٠ ، ١٨٩٢/٥/٢٢ ؛ الجازيت ١٨٩٢/٥/٢١ ؛ البروجريه

١٨٩٢/٥/٢٠ .

رد النديم عليهم في العدد الصادر في ٢٣/٥/١٨٩٣ أقسى
ما وصل اليه هجومه في مقال شغل ٢٦ صفحة بدأه بقوله :

« ولو أنى بليت بهاشمي خؤولته بنو عبد المدان
لهان على ما ألقى ، ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

رب أعوذ بك من همزات الشياطين ولمزات أمثال الخراطين
وأستعين بك على نزع قلوب المردة وقلع أعين الحسدة واخماد
أنفاس الخائنين واعدام ذكر المارقين ، فاجعل كلامي سما بلا
ترياق وحجرا قوى الاحراق ، يصير به يانع نبات الأعداء
هشيما ، ويعود به موجود المنافقين عديما ... وأعنى على ازالة
هذا المنكر ، حتى لا يرى ولا يذكر ، فقد أطلعنى بعض المصريين
على وريقة ، وجدها تحت الأرجل فى سويقة ، فخرجتها عنى
حرجة لاعب الحلقة ، ورميتها رمى النعل الحلقة ... فاقسم على
بحرمة الوطن ، ومن فيه لاصلاح قطن . أن أعيرها نظرة ،
تعود على أهلها بحسرة ، فاستعذت بالله من الشيطان وقبح
الفعل ، وتناولتها برجلي وهى فى النعل ... خرج فيها كتابها من
الزمنيات الى الشخصيات ، والتزموا ما لا يجدى من السعاية
التي هى لهم مبدأ وغاية ... ، موهمين أنهم يسعون لصالح
الأمة المصرية ، بل الأمم الشرقية ، واذا انكشفت الحقائق ، تبين
المخلص من المنافق ... فاسمع - وقيت الشر - براهين تذهل
بها أفكارهم ، وتعمى أبصارهم وتنخلع منها قلوبهم
ولألبسهم ثوب الخزي بأيديهم لسجوه ، وان يستغيثوا يغاثوا

بماء كالمهل يشوى الوجوه ... قفوا قفوا أيها الشاردون ، وعلى
رسلكم أيها الجاحدون ، فخلفكم من يسل الألسن من القفا ،
ويعيدكم الى حالة الجوع والحفا ... فميز أيها القارىء الجيد من
الرثيث ، فانه لا يستوى الحبيث والطيب ولو أعجبك كثرة
الحبيث ، فقد قرب طهر الوطن من هؤلاء الجهلة العلوج ، يوم
يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج »^(١) .

ثم أخذ يبرهن على أنهم أعداء الله وأنبيائه وأعداء السلطان
الأعظم ، وأعداء الحديو ، وأعداء وزراء مصر وحكامها ، وأعداء
المصريين ، وأعداء السوريين ، وأعداء انجلترا وفرنسا ، وأعداء
الأمن العام ، وأعداء الصدق ؛ بل أعداء أنفسهم .

وفي ختام المقال وعد النديم قراءه أنه « لن يغمد سيف
بيانه وبين يديه كتبة مناققون ومحرون خائنون حتى يقطع
ألسنتهم التى طالت بغير حق ونطقت بغير صدق » .

و « المقطم » من جانبها شنت عليه حملة قوية وأثارت الأحن
القديعة ، واتهمته بالاشتراك فى مذبحه الاسكندرية وفى ثورة
عرابى وباثارة التعصب الدينى ، وعيرته بماضيه وبأنه كان أفاقا
يتطفل على الموائد ويأكل بنظم الزجل والشعر مع الأدبائية^(٢)
وكان أصحاب المقطم أقوى منه باتصالهم بلورد كرومر ،

(١) الاستاذ ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) المقطم ٢٢ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨/٥/١٨٩٣ .

فاستطاعوا أن يسكتوا النديم بآخر انذار من وزارة الداخلية بإغلاق « الأستاذ » اذا تعرضت للحديث عن السياسة ، ونشرت صحف الاحتلال أن لورد كرومر عازم على نفيه وإغلاق مجلته اذا خالف الانذار ^(١) ، وخرجت « الأستاذ » خالية من كل إشارة سياسية في عدديها ٥/٣٠ و ٦/٦ . ولكن الأمور تعقدت حين أخذت التيمس والدبلي نيوز تشيران الى خطر النديم وتطلبان اسكاته ^(٢) فكان أن أصر لورد كرومر على نفيه .

وأخيرا أذعن الحديو للقوة وتخلّى عن النديم وضحى به في سبيل مصلحته « ولم يستطع أن يحصى من كان يحميه » ^(٣) . وطلبت الحكومة من النديم أن يغادر البلاد . وخرج آخر عدد من « الأستاذ » ٤٢ في ١٣/٦/١٨٩٣ ، وفيه يودع النديم قراءه بمقال « تحية وسلام » تحدث فيه عن المؤامرات التي حيكت ضده والتي تحاك ضد الوطن ليظل مستعمرا ، وعن الصحف الاحتلالية التي هاجمته وناصرت الاستعمار ، ولم يذكر أنه سينفى خارج البلاد ، ولكنه زعم أنه سيحتجب للسفر لتغيير الهواء ، ولم يقطع الأمل في العودة ومواصلة الجهاد ، و « لا بأسفن أخ شرقى على احتجاج « الأستاذ » عنه ، فان هى الا مدة حتى يعود يخطر فى ثياب الصحة ولباس السلامة » ، وشكر

(١) المظم ١٨٩٣/٥/٣١ التيمس ١٨٩٣/٥/٣٠ .

(٢) التيمس ١٨٩٣/٥/٢٦ و ٥/٣٠ و ٥/٣١ . الدبلي نيوز ٥/٢٥ و ٦/٢ و ١٨٩٣/٦/٦ .

(٣) تراجم أعيان ص ٢٦ .

الصحف الوطنية التي وقفت الى جواره تسانده في محنته ،
وشكر الشعب الذي استيقظ وأصبح يحس احساسه ، ولم
ينس « المقطم » فقد شكرها لأنها نبهت الأفكار بحريها
الوطنيين وتأيينها الاستعمار .

وختم مقال الوداع بقوله : ولا يظن شرقى أن ما ألاقه من
المشاق والمتاعب في خدمته يكدرنى أو يؤلمنى ...
« ... وما خلقت الرجال الا لمصابرة الأهوال ، ومصادمة
النواب . والعامل يتلذذ بما يراه من فصول تاريخية من العظم
والجلالة وان كان المبدأ صعوبة وكدرا في أعين الواقفين عند
الظواهر ، وعلى هذا فانى أودع اخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى
أحب لقاءكم والخلود اليكم
وما عن قلى كان الرحيل وانما
دواع تعلقت فالسلام عليكم

النديم في منفاه الأخير

اختار النديم « يافا » ثانية مقرا لمنفاه ودفعت له الحكومة
٤٠٠ جنيه ليتجهز بها لسفره ثم رتب له ٢٥ جنيه شهريا يعيش
بها على ألا يكتب شيئا في الصحف يتصل بسياسة مصر^(١)

(١) تراجع اعيان ص ٢٦ ؛ سلافة النديم ج ١ ص ١٧ .

وفي يافا عاد سيرته الأولى ، والتف حوله العلماء والمتقنون والأعيان ، ولم يستطع أن يفى بشرط الحكومة المصرية عليه : فقد اتسع نطاق مجلسه واتسع نطاق حديثه ، فلم يقتصر على انتقاد الاحتلال الانجليزي لمصر ، بل تطرق الى نقد سياسة الدولة العلية ويلمز السلطان ودكتاتوريته وضعفه أمام الانجليز وخذلانه مصر في محتتها ، وانتقل ميدان كفاحه من القاهرة الى يافا ، ولكن العيون كانت له بالمرصاد ، فكانت التقارير من الجواسيس تعلن عن مبلغ خطورته على الانجليز والسلطان معا . فأمر الخليفة بعد أربعة أشهر بإبعاده من يافا ومن الأراضي التابعة لتركيا ^(١) .

وأصبح النديم ولا مأوى له ، ممنوعا من دخول مصر أو البلاد التركية ، وأقلته الباخرة الى الاسكندرية وأقام بها أياما . حتى تحل مشكلته وقابله خلالها الغازي مختار باشا المندوب السلطاني العالي ، وزين له السفر الى القسطنطينية ^(٢) . وقد كان كثير من أحرار العثمانيين والبلاد التابعة لتركيا من ذوى الأفكار المتحررة الشائرة اذ ذلك قد فروا الى أوروبا ومصر وأنشأوا الجرائد يطالبون بالدستور وباصلاح الدولة أو بتحرير بلادهم ، ويتقدون السلطان تقدا مرا . فكان من سياسة السلطان عبد الحميد في بعض الأوقات أن يسترضى هؤلاء الناقمين ويجب

(١) تراجم أعيان من ٢٦ ، ٢٧ ؛ تراجم مشاهير ج ٢ ص ١١٠ - ١١١ .
سلافة النديم ص ١٧ .
(٢) المراجع السابقة .

اليهم الإقامة في الآستانة تحت سمع عيونه وأبصارهم ويجرى عليهم الرزق الواسع ويسند اليهم بعض المناصب ويمنعهم من الاتصال بخارج تركيا فيصبحون سجناء فيها ، وبذلك يتقى أذاهم ، ويستجلب رضاهم ، فاحتشد في الآستانة من أرباب القلم واللسان والفكر عدد كبير ، وكان السيد جمال الدين الأفغانى قد سبق النديم ودخل القفص السلطانى عام ١٨٩٣ فتجمد نشاطه ، وأصبح محاطا بالجواسيس يعدون عليه حركاته وسكناته^(١) ، ولحق النديم بأستاذه ودخل القفص أيضا . وكان قفص جمال الدين ضيقا مبطنا بالحرير ، أما قفص النديم فكان واسعا بادی الخشونة ، فالسيد جمال الدين يخصص له قصر فخم وعربة وخدم وحشم هم في الواقع جواسيس السلطان عليه ، ويصرف له ٧٥ جنيها شهريا ، وأما عبد الله النديم فيعين مفتشا للمطبوعات بالباب العالى بخمسة وأربعين جنيها شهريا^(٢) . ولكن كيف يقبل النديم وظيفة مفتش مطبوعات وهو الذى كان يناله الأذى دائما من إدارة المطبوعات ؟ وكيف يرضى أن يتحكم في الصحف وهو الذى كان يأبى أن يتحكم فيه أحد . وأن يكون أداة لتقييد الحرية بعد أن كان داعية لتأييد الحرية ؟ أنواق أن الوظيفة كانت اسمية محضة ، وكان الغرض منها أن يمنح النديم المكافأة في مظهر كريم .

(١) تاريخ . الأستاذ ج ١ ص ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ .

(٢) تراجم اعيان ص ٢٧ ؛ سلاقة النديم ص ١٧ .

وفي الآستانة عطلت مواهبه وسكت لسانه وصمت قلبه ،
ولم يعد هناك مجال للخطابة أو للكتابة أو للتعبير عما بنفسه
من أفكار يدعو فيها الى الحرية ، بل أصبح في وسط يكاد يختق
فيه ، تسمسه العيون والجواسيس ، لا يفرج عنه الا مجلس صديقه
جمال الدين يحدّثه ويسامره وكل يشكو لصاحبه تعذيب روحه
الحبيسة في القفص ، فقد كانا شريكين في الجهاد ، تقيا وحبا ،
شريكين في مصير واحد ، في قفص السلطان ، فجمعت بينهما
المحنة والغربة واتصلت بينهما روابط الاتحاد حسبا ومعنى .

وكان النديم يلزم السيد جمال الدين ويحضر مجلسه
« الجلوة »^(١) الذي يعقده في داره ويحضره كبار رجال
الدولة ومريدوه ، وكان لا يصبر أحدهما عن الآخر ولا يطيب
لأحدهما مجلس الا اذا كانا فيه معا^(٢) .

ونال النديم الخطوة لدى السلطان وتعرف بكثير من الوزراء
ورجال الدولة واستقر به المقام في القسطنطينية ، ولكنه مقام
الحسول والصمت والهدوء الذي يخالف طبيعة النديم الديناميكية
الشائرة .



وكان في حاشية السلطان عبد الحميد وقتذاك داهية أكبر
يدعى أبا الهدى الصيادي . كان عجيبة من عجائب الزمان دفعته

(١) انظر خاطرات جمال الدين : محمد ناشأ المخزومي ص ١٢٩ - ٢٤٨ .

(٢) سلافه النديم ج ١ ص ١٧ ؛ تراجم مشاهير ج ٢ ص ١١١ .

المقادير من حلب الى الآستانة ، وكان ذكيا عبقريا وسيم الطلعة قادرا على معرفة نفوس الناس ومن أين تتوتى ، اتخذ طريق الصوفيين وربط نسبه بأعلى نسب وهو رفاعى الطريق له أتباع فى كل البلاد وكانوا عيونا له يأتونه بالأخبار فيستغلها عند السلطان أمهر استغلال ، مد نفوذه الى السياسة والادارة والجيش حتى سمي « مستشار الملك » و « حامى العشانيين » و « سيد العرب » ، اتخذ من الأمراء والأعيان أعوانا له على ما يريد ، يبطن بهم حين يريد البطش ، ويرفعهم حين يرضى عنهم ، يؤلف له العلماء الكتب وينسبونها اليه ، وينظم له الشعراء القصائد ويدعونها له ، له عدد وفير من الضحايا فى كل البلاد التى تظلمها الخلافة العثمانية ، وظل تفوذه يزداد لدى الخليفة حتى استولى على تفكيره وحواسه ، وأصبح مطاع الكلمة لا يعصى له أمر ، ولم يكن يحب الخير وأهله حتى لقب وقتذاك بشيطان تركيا لقوته وشره وبطشه ودسائسه . وبعد أن رأى أبو الهدى مكان جمال الدين لدى السلطان واستساعه لمشورته وأخذ به رأيه خاف على مركزه ، ذلك المركز الذى كان يقوم على التأثير فى السلطان من ناحية الطرق الصوفية والاستخارات والأحلام والأوهام التى لا يرضى عنها جمال الدين . وبدأ أبو الهدى يدس لجمال الدين لدى الخليفة ليفقده ثقته ، وكان الخليفة يستمع لهذه الدسائس ويصرح بها لجمال الدين ، وكان من دأب السلطان أن يرى كل حاشيته فى شقاق حتى لا يتآمروا عليه .

وسريعا ما وجد النديم شيئا يشغل به وقته المضيق
وديناميكيته المعطلة فقد جاء الى القسطنطينية والخصومة على
اشدها بين جمال الدين وأبى الهدى الصيادى ، وكان من الطبيعى
أيضا أن يتعرض النديم صديق جمال الدين لحملات أبى الهدى
ودسائسه لدى السلطان ، ومع أن أبا الهدى كان من القوة
بحيث يخافه الوزراء والعظماء لنفوذه لدى عبد الحميد .
حتى ان أمره كثيرا ما نفذ وأبطل أمر السلطان ، وكم تدلل على
عبد الحميد وغضب منه والسلطان يترضاه ^(١) . الا أن النديم
لم يتحرز أن يخاصمه وينازله ويطلق لسانه بهجائه ، « لما كان
المرحوم السيد جمال الدين والمرحوم عبد الله نديم على قيد
الحياة كانا يغيطانه حتى تتبادر شئونه من عينيه . ولقد أطلاا
سهاده وضاعفا همه . فما كنت تسمع له الا صخبا وعويلا
متواصلا وشكايات أثر شكايات يطرق بها باب السلطان » ^(٢)
وزاد من كره الصيادى للنديم أنه مصرى ، وقد أفتى ٢١ عالما
من علماء مصر بتكفير أبى الهدى وزندقته ، ومن ثم يريد أن
يخسف الأرض بمصر ، وقد سوأ صحيفة المصريين قاطبة أمام
السلطان بغشه وتدليسه ^(٣) .

لقد وجد النديم فى خصومته لأبى الهدى متنفسا لنفسه

(١) تفصيلات حول أبى الهدى انظر السار ج ١ من ٥٩٩ - ٦٤٢ ؛ العلوم
والمجهول ج ١ من ٢٨ - ٢٩ ف ٩٠ - ١٣١ .
(٢) يكن ؛ العلوم والمجهول ج ١ من ٢٨ - ٢٩ .
(٣) ابراهيم الويلحى ، ما هنالك من ٢٢١ .

المكبوتة فأخذ يفصح دسائسه وكتابه التقارير الكاذبة للسلطان وتلاعب بالدين وادعاءه الولاية ، واتسابه للطرق الصوفية بما يسود وجه أبي الهدى . ولجأ أبو الهدى وهو القوى ذو البطش الى السلطان يستنجد به على النديم . « ودعى نديم الى قصر الخلافة وسئل أن يكف عن هجاء أبو الهدى ، والسلطان مظل عليه من كوة يسمعه ويراه ، فاستشاط نديم غضبا ، وصاح بأعلى صوته : لقد قلد مولانا السلطان أبا الضلال ^(١) وسام الافتخار فلألبسنه أنا وسام العار يلزمه في حياته ويصحبه الى قبره بعد مماته . فخاف من بالقصر من وعيد النديم وأخذوا يتلفعون في اسكاته ، ولم يستطيعوا ذلك الا بعد جهد أضعاهم ^(٢) . »

وبر النديم بوعد فكتب فيه كتابا سماه « المسامير » وهو فريد في نوعه ، فقد كان الشيطان شخصية من شخصيات الكتاب لكنه ظهر بصورة جدية ، صورة المهزوم لأول مرة في تاريخ البشرية على يد أبي الهدى الصيادى ولم يتورع فيه النديم عن أن يصف والد أبي الهدى وأمه بكل قبيحة مزرية مخلة بالشرف والكرامة ، أما أبو الهدى فقد كمال له النديم من أنواع الرذائل والموبقات ما يحيط به علم البشر في أبواب الفسوق . والكتاب يتكون من المقدمة وتسعة مسامير بلغت من الأقدار

(١) لقب كان يطلقه عليه جمال الدين في مجلته السلطان معايل « أبو الهدى »

المعلوم والمجهول ج ١ ص ١٧٧ .

(٢) المعلوم والمجهول ج ١ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

حدا لم يعرفه فن الهجاء في التاريخ العربى وغير العربى ،
والكتاب وان حوت معانيه أسوأ أنواع السب بالفحش
والفسوق والعصيان الا أنه يعتبر آية في فن الأسلوب !لبديعى،
ويدل دلالة لا تترك مجالا للشك على زعامة النديم في فن البديع
في سلالة وعدم تكلف وخاصة الاقتباس من القرآن واستعمال
الجناس والطباق .

ولما بلغ أبا الهدى أمر هذا الكتاب « قامت له قيامته وجعل
يهدر كما يهدر الفحل اذا هاج (١) » .

وأبلغ السلطان أن الهجاء يشمله كذلك ، فانتشر رجال
البوليس باحثين عنه ، وهاجموا بيت النديم وفتشوه وصادروا
كتبه ومخطوطاته ، ولكنهم لم يجدوا « المسامير » فقد استطاع
جورج كوتشى (٢) ، وكان ملازما لجمال الدين وصديقا للنديم
أن يخفيه ويفر به الى القاهرة ثم يطبعه ، فخرج في طبع أنيق
مكونا من ٩٤ صفحة وموضحا بصور كاريكاتيرية لكل مسمار ،
وقد أعلن النديم أن هذا هو الجزء الأول وسيليه بقية الأجزاء
ولذلك لم تكمل قصة أبى الهدى في ذلك الجزء ، وظلت القصة
ناقصة اذ لم يظهر غير هذا الجزء .

(١) العلوم والمجهول ج ١ ص ١٧٧ .

(٢) كان من عائلة يونانية يتكلم أهلها العربية والتركية ، وكان أول أمره
ضابطا اداريا بمدرسة الحقوق المصرية ثم اتصل بجمال الدين وسافر الى
الاستانة ولازم جمال الدين وخدمه فى مرضه .

وفي عام ١٨٩٤ زار الخديو عباس الثاني القسطنطينية واتصل بالنديم ، وكان النديم وجمال الدين وعزت العابد رسل الخديو وسفراءه لدى السلطان . وجرى النديم في ذلك العام بين الخديو ويلدز بالوساطة في طلب زواجه من بنات الخلافة ، وكاد يفلح في سفارته لولا أبو الهدى ، فقد أوهم السلطان أن هذه دميصة انجليزية يراد بها انتزاع الخلافة من تركيا ونقلها الى مصر حين يولد لعباس ولد من زوجته العشانية فسوف يتخذه الانجليز ذريعة وينادون به خليفة على المسلمين ، وصدق السلطان ، وكان رغم جبروته له أحلام الأطفال ويعتقد في الأوهام ويصدق الخرافات فمنع هذا الزواج ^(١) .

واتهز أبو الهدى فرصة مقابلة الخديو لجمال الدين وعبد الله النديم وهما يتنزهان في حديقة الكاغدخانة ، فدس لهما عند السلطان ، وادعى أنهما بايعاه تحت الشجرة على أن يؤسسا له خلافة عباسية ، وأن جمال الدين طلب من الخديو تأميناً بعد أن يتم له الأمر ، وصدق السلطان الدميصة ، وكانت أزمة بينه وبين الخديو من ناحية وبين جمال الدين وعبد الله النديم من ناحية أخرى ^(٢) .

وفي زيارة عباس الثاني لتركيا عام ١٨٩٥ استأذنه النديم في

(١) انظر العلوم والمجهول ج ١ ص ٣٠ ، ١١٢ - ١١٤ : مذكراتي في نصف

قرن ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) تفصيلات انظر خاطرات جمال الدين ص ١٢٢ - ١٢١ .

أن يعود معه الى الوطن الحبيب مصر فقد كان دائم الحنين اليها
دائب الشوق الى أهله وصحبه يود لو قضى بقية عمره على أرض
الكنانة يجاهد في سبيل حريتها ويعمل على استقلالها ، وأذن له
الحديو واصطحبه معه على ظهر الباخرة ، ولكن دسائس أبي
الهدى كانت أسرع من الباخرة . أمر الى السلطان أن المؤامرة
التي دبرت تحت الشجرة في منتزه الكاغدخانة في العام الماضي
بدأت تتحقق ، وها هو النديم يفر من القسطنطينية — دون اذن
أو تحية — الى مصر ليتم فصولها . وصدق السلطان كعاداته
وأمر بحجز الباخرة في مضيق الدردنيل وإعادة النديم تمهيدا
لنفيه الى احدى الولايات البعيدة المهجورة . وعلم النديم بعد
انزاله من الباخرة بالدسياسة فأخذته سورة الغضب « وكتب
الى السلطان تلغرافا يتبرأ فيه مما اختلقه الواشي وختمه بقوله :
انك أنت أمير المؤمنين القادر على الانتقام والعقاب بلا معارض
أو منازع ، ولكننا سنقف بين يدي عادل قاهر يقضى بيننا بالحق
وهو خير الحاكمين ، وحين وصل التلغراف أعجب السلطان
بشجاعة النديم وأكبر فيه عزة نفسه ولذلك عاد فرضى عنه
وشمله بعطفه ^(١) ولكنه لم يسمح له بالعودة الى مصر .

وانضم الى أبي الهدى عدوه آخر في حرب النديم ، عدو
قاهر ، لم يستطع النديم أن يصدّه بلسانه أو شجاعته أو حتى
بحيله ، أعلن عليه الحرب في سرية تامة فلم يكتشف النديم

(١) سلافة النديم ج ١ ص ١٨ .

مؤامراته الا بعد أن أنشب أظفاره في صدره وأصاب منه مقتلا ولم يتعرف عليه الأطباء الا بعد أن تمكن من رثيته ذلك هو السل الرئوى ^(١) وأشار عليه الأطباء أن ينتقل الى منزل صديقه السيد عبد الرحمن الجزولى . وحين علم النديم أن النهاية آتية لا ريب فيها أرسل تلغرافا الى أخيه وأمه حتى يحضرا اليه ليراهما قبل أن يوافيه أجله . ولكن الموت وصل قبل أن بصلا اليه ولقى ربه في ليلة الأحد العاشر من شهر أكتوبر عام ١٨٩٦ (الرابع من جمادى الأولى عام ١٣١٤ هـ) .

وحزن عليه رفيق الجهاد حزنا شديدا ، وبكاه أصدقائه ومحبيه بدار السلطنة . وما ان علم السلطان بموته حتى أصدر أمره بالاحتفال بمشجده رسميا ، وسار في جنازته وجوه الدولة وكبرائها وعلمائها يتقدمهم السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد ظافر شيخ السلطان وامامه والسيد عبد الرحمن الجزولى وكثير غيرهم ، وساروا به الى مقبرة يحيى افندى فى باشكطاش حيث أودعوا جسده التراب .

وسكت خطيب الشرق سكوته الأبدى وهذا جسمه النحيل بعد أن عنته روحه القوية وحملتته الكثير فى سبيل المبدأ والغاية . سكن جسمه ولكن روحه كانت قلقة تنبج الى الوطن الذى من

(١) قيل ان سبب موته سم كان يوضع له فى الطعام فأخذت محته تسوء وهاجمه السل حين أضعفه السم - وكان ذلك بواسطة أعوان السلطان وأبى الهدى كما فعلا بعد ذلك بصديقه جمال الدين .

أجله عاش ومن أجله قاسى الكثير ، ومن أجله مات غريبا ، وكان
العزاء لروحه يوم أن مات أنها سلّمت راية الكفاح قبل أن تصمت
الى الجيل الجديد ليواصل الجهاد من أجل الحرية ، وصارت
تسعى فى مصر صدى دعوته من جديد على يد تلامذته وعلى
رأسهم مصطفى كامل ليقودوا المرحلة التالية من مراحل الحركة
القومية فى سبيل الاستقلال والحرية وحتى تتحقق الغاية الكبرى
فتصبح مصر للمصريين . ولعل روحه القلقة قد استقرت اليوم
— على البعد — بعد أن تحقق الأمل الذى كان يراودها والهدف
الذى كافحت من أجله سنين وسنين ، فأصبح المصرى عزيزا حرا
كراما وأصبحت مصر فعلا فى عهدها الجديد للمصريين الحقيقيين .

مؤلفات عبد الله النديم

يعد عبد الله النديم في الصفوف الأولى مع كبار المؤلفين العرب ، فقد شغل نفسه في حياته وخاصة في فترة الاختفاء بتأليف الكثير من الكتب والرسائل الأدبية والعلمية والدينية . ومع أن أكثر مؤلفاته قد فقدت أو لا يمكن الحصول عليها إلا أن لأسباب قاهرة ^(١) فما بقي يكفي للحكم عليه كسؤلف أدبي وعلمي .

ولا يمكن تحديد عدد الكتب التي ألفها النديم ، فضياع الكثير منها وهي ما زالت مخطوطة أو عدم طبع كل ما بقي وأخذ من الضياع يضع العراقي أمام هذا التحديد . وقد ذكر صديق حياته « أحمد سمير » أن « له من المؤلفات الكبيرة والصغيرة ما يعد بالمئات ^(٢) » ، وقال أيضا : « ورسائله الأدبية ومؤلفاته تبلغ نحو مائة مؤلف في فنون مختلفة فقد أكثرها سرقة أو اغتصابا أو رميا في مياه النيل ^(٣) » ، وكتب اسماعيل باشا البغدادي في كتابه هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين أن « تصانيفه الصغيرة والكبيرة تزيد على المائة » ^(٤) .

(١) يقال ان كثيرا من مؤلفاته في المكتبات العامة والخاصة بتركيا وهذه الكتب غير مباحة للجمهور وليس لها قوائم مضبوطة منظمة .

(٢) سلافة النديم ١/٢٠ .

(٣) سلافة النديم ١/٤ .

(٤) ج ١ ص ٤٩٢ مطبعة وكالة المعارف بإستانبول (١٩٠١) .

وعلى ذلك فقليل جدا من مؤلفات النديم هو الذى وصل الى أيدينا . ويمكن أن نضع تقسيما لمؤلفات النديم حسب التطورات والمراحل التى مر بها فى حياته ، وذلك كما يلى :

المرحلة الأولى : منذ نشأته الى آخر عام ١٨٧٨ ، وقد ألف فيها ما يأتى :

- ١ — ديوان شعر صغير فى نحو ٣ آلاف بيت فقد (١)
- ٢ — ديوان شعر متوسط فى نحو ٤ آلاف بيت فقد (٢)
- ٣ — مجموعة كبيرة من الرسائل الأدبية كتبها أيام صباه فى أغراض مختلفة وكلها رسائل بديعية مسجوعة وقد ضاع أكثرها ولم يبق منها سوى ١٦ رسالة . منها : « لواء النصر فى أدباء العصر » (٣) — التنوير المسحور فى المفاخرة بين السفينة والوابور (٤) — طالع الكرامة بحسن السلامة (٥) — نار الغدو وثار العدو (٦) — استعطاف المقرر قلب المحرر (٧) — درر النحلة وغرر الرحلة (٨) حفظ الودائع لدرر البدائع (٩) تنبيه اللبيب وتسلية

(١) سلافة النديم ٢٠ ، ١/٢١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) نص الرسالة سلافة النديم ٢٩ — ١/٢٢ .

(٤) نص الرسالة المرجع السابق ٢٤ — ١/٢٩ .

(٥) النص سلافة النديم ٢٣ — ١/٣٤ .

(٦) نص الرسالة المرجع السابق ٣٥ — ١/٣٦ .

(٧) الرسالة سلافة النديم ٣٧ — ١/٣٩ .

(٨) نص الرسالة : سلافة النديم ٣٩ — ١/٤٥ .

(٩) المرجع السابق ٤٥ — ١/٤٩ .

الحبيب^(١) — دفع العرام بذل الغرام^(٢) — نجوم
 الليلي في عقود التّلالىء^(٣) — الساق على الساق في
 مكابدة المشتاق^(٤) ، وهى موجودة فى كتاب سلافة
 النديم .

٤ — مجموعة أخرى من الرسائل الأدبية جمعها تحت عنوان :
 «رياض الرسائل وحياض الوسائل» . من هذه الرسائل:
 الستر المسدول فى دلالة الانجيل على الرسول —
 الحصون المنيعه فى الرد على أهل الطبيعة — الفكرة
 المطبوعة فى تطبيق الطبيعة على الشريعة — تطهير الأذواق
 فى حميد الصفات والأخلاق — الابتكار البديعة فى الرد
 على المعتزلة والشيعة — السهم السريع فيما تضمنته وقيل
 يا أرض من البديع — اخراج الودائع من الظرف فى أن
 المعجز النسق لا الصرف — الشئ والرتبة فى أولاد مصر
 الزئفة — الشجرة الغشاشة فى أولاد مصر الحشاشة —
 شد الدبلاق فى أكتاف أهل بولاق — حاورنى يا طيبة
 فى الطربوش والبرنيطة — صحبة السلامة للإس العمامة
 ولم يعثر من هذه المجموعة الا على المقدمة ورسالتين

-
- (١) المرجع السابق ٥٠ — ١/٥٢ .
 (٢) المرجع السابق ٥٤ — ١/٥٥ .
 (٣) المرجع السابق ٥٥ — ١/٥٦ .
 (٤) المرجع السابق ٦٢ — ١/٦٧ .

هما : زبد الأذهان وزبد الأذهان (١) — حوض الخمر
وخوض الجمر ، وهما في كتاب سلافة النديم .
٥ — ديوان زجله الأول (٢) . فقد

المرحلة الثانية من ١٨٧٩ — ١٨٨١ .
مرحلة الإصلاح الاجتماعي والسياسي :
١ — التنكيت والتبكيت موجودة بدار الكتب
٢ — تمثيلية الوطن وطالع التوفيق ، فقدت ولم يبق منها
الا بضع صفحات في كتاب سلافة النديم .
٣ — تمثيلية « العرب » فقدت
٤ — آثار الانسانية في تاريخ الجمعية الخيرية الاسلامية (٣) فقد

المرحلة الثالثة ١٨٨١ — ١٨٨٢ .
مرحلة الثورة العرابية :
١ — الطائف — جريدة الثورة منها ٢٠ عددا بدار الكتب .
٢ — مقابلة النظر — كتاب سياسي (٤) في أربعة أجزاء . فقد

(١) الرسالة : سلافة النديم ٧٢ — ١/٧٢ .

(٢) الاستاذ ص ٩٩٤ .

(٣) التبكيت ص ٥٠ .

(٤) لكان ويكون ١/٦ .

المرحلة الرابعة ١٨٨٢ - ١٨٩٢ .

مرحلة الاختفاء :

١ - مجموعة من الخطابات الأدبية المطولة لأصدقائه وهو بالاختفاء . بعضها موجود بالأستاذ

٢ - مجموعة رسائله الى عرابي بـسيلان مطبوعة

٣ - كان ويكون في ٣ أجزاء . وهو يبحث في أصل الديانات وفلسفتها والتاريخ وأحداثه ، غير أن الجزء الأول منه لم يتم طبعه بل طبع منه ٢٥٦ صفحة فقط والباقي ٦٤ صفحة ضاعت ولم تطبع ، والجزء الثاني فقد ، والجزء الثالث عثر عليه الدكتور محمد أحمد خلف مخطوطا في دار الكتب وطبعه عام ١٩٥٦ تحت عنوان : عبد الله النديم ومذكراته السياسية .

٤ - عشرون كتابا شغل بكتابتها سنواته التسع التي قضاها في الاختفاء ، وقد فقدت كلها وهي :

الاحتفاء في الاختفاء - السانحة في علوم الفاتحة -
الآلام والذات في اتصال الروح بالذات - صرف الوصمة
عن صرف العصمة - وفند البديع على باب الشفيق -
خلاصة ما كان في ليس في الامكان أبدع مما كان -
الفرائد - طهارة القلوب والأفواه في شرح لا اله الا الله -
حلة الأنوار لمادح المختار - سيف الموحد في نحر الملحد
- ترصيع الماس في خير الناس - مأتم البكى في آل

النبي — وطنية شرق — النحلة في الرحلة — السكر
والنبات في تربية البنين والبنات — نحن وأنتم — اقهاذ
البليد من ورطة التقليد — الدر النفيس في تاريخ بنى
ادريس — نيل الأرب في أخبار العرب .

٥ — ألف كتابا عن طائفة السامرة سماه « التذكرة العامرة
بأحوال السامرة » . فقد

المرحلة الخامسة : ١٨٩٢ — ١٨٩٣ .

فترة الجهاد ضد الاستعمار :

- ١ — الأستاذ مجلة موجودة بدار الكتب
- ٢ — التحفة السنية بالأفراح الرياضية . موجودة بدار الكتب
- ٣ — آداب رمضان . ملحق كان يوزع مع الأستاذ

المرحلة السادسة : ١٨٩٣ — ١٨٩٦ في المنفى .

- ١ — المسامير . في هجاء « أبو الهدى الصيادى » . في ثلاثة
أجزاء : طبع منه جزء واحد ، ألفه على نسق المقامات
راويته الشريف أبو هاشم عن الشيخ مدين أبى القاسم
وهو ٩ مقامات أو مسامير ، وضعها أصلا لهجاء أبى الهدى
ولكنه ضمنها أبحاثا دينية والهية قيمة وزين طبعه برسوم
كاريكاتيرية .

بقى شيء يستحق أن ننوه عنه وهو أن بروكلمان ذكر ضمن مؤلفات النديم ديوانا تحت عنوان : « حنين النديم » ولكنني تبينت بعد البحث أن الديوان ليس لعبد الله النديم الادريسي بل لعبد الله نديم موبال اللبناني ولعل تشابه الاسمين ألبس الأمر على بروكلمان .

وقد جمع بعض أصدقائه أثر وفاته بعض مقالاته ورسائله وفصلا من مسرحيته الوطن وطالع التوفيق وضمنوها كتابا أطلقوا عليه « سلافة النديم » طبع في جزئين وصدرَ بترجمة له بقلم صديق عمره أحمد سمير .

وبعد ؛ فلعلّى آكون قد وفيت النديم بعض حقه ، ولعل هذا الكتاب يلقي بعض الضوء على جهود بطل من أبطال الرعيل الأول في الكفاح من أجل مصر والمصريين .

فهرست

صفحة	صفحة
١٩٨ . الطائف تواصل الجهاد . . .	٣ مقدمة
٢٠٣ . يريدونها جمهورية حيادية . . .	٥ عميد
النعلات الواهسة للاعتداء	١٤ ابن الخباز
٢٠٥ الفاشم	١٩ في المسجد الأنور
٢٠٩ الى الحرب المقدسة	٢٣ الاديب الناشئ
٢٣٥ جبهات الرجعية والاستعمار	٣٠ التنديم
٢٤٣ النائر الهارب	٣٢ الاذيب التفراقي
٢٥٣ كان ويكون	٤٢ على الطريق مع الأحرار
البطل الاسطورة	٤٦ الرحلة النائية
٢٧٠ في أعقاب الهزيمة	٥٧ التنديم الزجال
٢٧٦ زواج التنديم	٦٥ بدء الانطلاق
٢٧٩ من ازمات الاختفاء	٦٩ أحلك فترات الظلام
٢٩٥ الوشابة عجلت النهاية	٧٨ رسول الدعوة
٣٠١ عوامل النجاح في الاختفاء	٨٥ محور الدعوة
٣١٥ الاستعمار في عشر سنوات	٩١ على مفترق الطرق
٣٢٢ الأمل الجديد	١٠٩ النيكب والتبكيك
٣٢٨ عودة الروح	١٣١ لسان الثورة ومسئارها
المدرسة والمصنع هما	١٣٤ ضرورة الثورة
٣٣٥ الأساس	١٤٤ الزحف المقدس
٣٣٨ العربية عماد القومية	١٦٣ «الطائف» جريدة الثورة
٣٤١ مدرسة البنين والبنات	١٦٨ تحزن الاستعمار
٣٤٩ بين الأسناذ والمقطم	١٧٢ هزة النصر
٣٨١ التنديم في منغاه الأخير	١٨٠ الطائف لسان مجلس النواب
٣٩٣ مؤلفات عبد الله التنديم	١٨٢ الإصلاح الاجتماعي أيضا
	١٨٨ مؤامرات الرجعية
	١٩٥ التحالف غير المقدس